سلسلة
ومضات إعجازية من القرآن والسنة النبوية
(١٤)

الكتاب الرابع عشر

الاقتصاد والاجتماع

الدكتور المهندس
خالد فائق العبيدي

منشورات
محمد علي بيضون
دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان

منشورات محمد علي بيضون

دار الكتب العلمية

جميع الحقوق محفوظة
Copyright
All rights reserved
Tous droits réservés ©

جميع حقوق الملكية الأدبية والفنية محفوظة
لدار الكتب العلمية بيروت - لبنان.
ويحظر طبع أو تصوير أو ترجمة أو إعادة تنضيد الكتاب كاملاً أو
مجزأ أو تسجيله على أشرطة كاسيت أو إدخاله على الكمبيوتر
أو برمجته على اسطوانات ضوئية إلا بموافقة الناشر خطياً

Exclusive rights by ©
Dar Al-Kotob Al-ilmiyah Beirut - Lebanon

No part of this publication may be translated, reproduced, distributed in any form or by any means, or stored in a data base or retrieval system, without the prior written permission of the publisher.

Tous droits exclusivement réservés à ©
Dar Al-Kotob Al-ilmiyah Beyrouth - Liban

Toute représentation, édition, traduction ou reproduction même partielle, par tous procédés, en tous pays, faite sans autorisation préalable signé par l'éditeur est illicite et exposerait le contrevenant à des poursuites judiciaires.

الطبعة الأولى
٢٠٠٥ م - ١٤٢٦ هـ

دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان

رمل الظريف - شارع البحتري - بناية ملكارت
الإدارة العامة: عرمون - القبة - مبنى دار الكتب العلمية
هاتف وفاكس: ٨٠٤٨١٠/١١/١٢/١٣ (٥ ٩٦١+)
صندوق بريد: ٩٤٢٤ - ١١ بيروت - لبنان

Dar Al-Kotob Al-ilmiyah
Beirut - Lebanon
Raml Al-Zarif, Bohtory Str., Melkart Bldg. 1st Floor
Head office
Aramoun - Dar Al-Kotob Al-ilmiyah Bldg.
Tel & Fax: (+961 5) 804810 / 11 / 12 / 13
P.O.Box: 11-9424 Beirut - Lebanon

Dar Al-Kotob Al-ilmiyah
Beyrouth - Liban
Raml Al-Zarif, Rue Bohtory, Imm. Melkart, 1er Étage
Administration général
Aramoun - Imm. Dar Al-Kotob Al-ilmiyah
Tel & Fax: (+961 5) 804810 / 11 / 12 / 13
B.P: 11-9424 Beyrouth - Liban

ISBN 2-7451-4629-7

http://www.al-ilmiyah.com/

email: sales@al-ilmiyah.com
info@al-ilmiyah.com
baydoun@al-ilmiyah.com

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أفضل وأشرف رسله وأنبيائه سيدنا محمد ﷺ، وعلى آله وصحبه أجمعين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، وبعد.

لقاؤنا يتجدد معكم للمرة الثانية عشرة في سلسلتنا (ومضات إعجازية)، وسنتعرض في هذا الكتاب إلى روعة وسبق القرآن الكريم في مجال غاية في الأهمية، وهو علوم بناء الأفراد والأسر والمجتمعات بناءً هادفاً متأنياً مازجاً بين الروح والمادة.

لم يعرف العالم نظاماً اقتصادياً واجتماعياً عادلاً يضمن للجميع حقوقهم دون غصبٍ أو تمييز بين عرق أو دين أو انتساب مثل النظام الاقتصادي والاجتماعي الإسلامي، هذا النظام العظيم الذي وصل حدًا يضرب به المثل في التأريخ البشري في العدالة والمثالية، كما هو الحال في عهد سيدنا عمر بن عبد العزيز ﷺ الذي لم يُبق فرداً واحداً من أفراد الأمة الإسلامية المترامية الأطراف يدخل ضمن إطار الفقراء، فالكل دون استثناء مكتفٍ ومرتاح، هذا في الصدر الأول من عصر الرسالة الإسلامية، وهذا ما يؤكد عظمة التشريع الإسلامي للاقتصاد وأحوال المال من الزكاة والصدقات والتدابير الاقتصادية الإسلامية العظيمة الأخرى التي تحتاج إلى مجلدات كثيرة وهذا يترك لأهل الاختصاص.. أما في عصرنا هذا فإن النظام الاقتصادي والاجتماعي الإسلامي الذي طبق في السويد باقتراح من **أولف بالمه** نهاية العقد الثمانيني وبداية العقد التسعيني من القرن العشرين قد أنقذها من هاوية اقتصادية واجتماعية مرعبة.

لقد سبق التشريع الإسلامي كل الشعارات والثورات والمؤسسات الداعية لذلك كالثورة الفرنسية ومنظمة الأمم المتحدة ومنظمة حقوق الإنسان والدعوات المتعلقة بمحاربة التمييز العنصري بدءاً من حقوق الإنسان، وعدالة توزيع الثروات، وحرية العقيدة والفكر السامي غير المبتذل، وتطبيق مبدأ القانون فوق السلطة، واحترام العهود والمواثيق مع الصديق والعدو، وسماع واحترام الرأي الآخر.. لكن الفرق الرئيس بينهما رغم تقدم الأول أي الإسلام على الثاني أي الدعوات الحديثة هو أن الأول دعى وطبق فملأ الدنيا عدلاً

ورحمة لأن الإسلام جاء لتحقيق هذا الغرض، أما الثاني فدخلت فيه المصالح الضيقة للنفس البشرية ومطامعها فلم يطبق ولم يعدل وإنما كانت شعارات فقط أو تطبيق رمزي بأحسن الأحوال.

والقصص في عدل الإسلام الذي لم يشهد تاريخ البشرية مثله أكثر من أن تذكر، فهذا سيدنا الصديق رضي الله عنه، الرجل عند المواقف، الذي يهابه الجبال من الرجال، وأي رجال، إنهم الصحابة رضوان الله تعالى عنهم، يذهب يومياً، فيما يروي سيدنا عمر رضي الله عنه، بعد صلاة الفجر وإكمال الورد بالذكر حتى طلوع الفجر إلى مكان جعل الصحابة يسألون عنه، حتى يقول سيدنا عمر: هممت يوماً أن أتبعه بعد شروق الشمس وخروجه من المسجد لأعرف الخبر وأستقصي الأمر، فاتبعته ووجدته دخل بيتاً في طرف المدينة، فإذا هو بيت امرأة عجوز لا عائل لها، فدخلت عليها وسألتها عن أحوالها فقالت: لولا هذا الشيخ الذي يأتينا يومياً لإنجاز عمل البيت من إعداد الطعام والتنظيف لكان حالنا بأتعس حال، فقال لها الفاروق أتعرفين من هو قالت لا. وكان سيدنا عمر رضي الله عنه كلما يذكر القصة بعد توليه أمر المسلمين يجلس ويضع يده على وجهه قائلاً: أتعبت الخلفاء من بعدك يا أبا بكر..

وها هو الفاروق عمر رضي الله عنه في تطبيق العدالة والاقتصاص من الظالم وإن كان مسؤولاً مع القبطي الذي ظلمه ابن عمرو بن العاص – ابن الأكرمين – بضربه بالسوط على رأسه عقب سباق بينهما، وقوله المأثور والمشهور لأبيه عمرو بن العاص والي مصر (متى استعبدتم الناس وقد خلقتهم أمهاتهم أحراراً) إلا دليلاً بسيطاً عن العدل الذي ساد الأرض وأممها إبان الحكم الإسلامي بعد الجور والظلم الذي عانته من قبل الحكم الفارسي والروماني والحبشي قبل ذلك.

وعدل سيدنا عثمان رضي الله عنه مع رعيته وقبوله للنقد خلال الفتنة يسجل بأحرف من نور.. ومن بعده سيدنا علي عليه الرضوان والسلام مع اليهودي في قصة الدرع، ومع غيره من الرعية تبين عظمة هذه الأمة.

وما كل ذلك إلا إخراج للناس من الظلم الذي وقع بهم جراء تسلط الأشراف والرؤساء والأكابر عليهم وعدم الاقتصاص منهم إذا أخطأوا، وهو ما شخّصه الرسول الأكرم ﷺ بقوله في الحديث الذي أخرجه الإمام مسلم (الحدود ٣١٩٦) عَنْ عُرْوَةَ عَنْ

عَائِشَةَ أَنَّ قُرَيْشًا أَهَمَّهُمْ شَأْنُ الْمَرْأَةِ الْمَخْزُومِيَّةِ الَّتِي سَرَقَتْ فَقَالُوا مَنْ يُكَلِّمُ فِيهَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَقَالُوا وَمَنْ يَجْتَرِئُ عَلَيْهِ إِلاَّ أُسَامَةُ حِبُّ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَكَلَّمَهُ أُسَامَةُ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: (**أَتَشْفَعُ فِي حَدٍّ مِنْ حُدُودِ اللَّهِ**)، ثُمَّ قَامَ فَاخْتَطَبَ فَقَالَ: (**أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَهْلَكَ الَّذِينَ قَبْلَكُمْ أَنَّهُمْ كَانُوا إِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الشَّرِيفُ تَرَكُوهُ وَإِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الضَّعِيفُ أَقَامُوا عَلَيْهِ الْحَدَّ وَايْمُ اللَّهِ لَوْ أَنَّ فَاطِمَةَ بِنْتَ مُحَمَّدٍ سَرَقَتْ لَقَطَعْتُ يَدَهَا**). وما ذلك إلا تحقيق لأوامر الله ورسوله في القضاء والعدل الاجتماعي والاقتصادي الذي سنحاول جاهدين في هذا الكتاب من سلسلتنا أن نطرق بعض أبوابه الواسعة.

تكثر هذه الأيام عقد الندوات والمؤتمرات في كل دول العالم لأجل نيل المرأة كافة حقوقها وتمام استقلالها من نير احتلال الرجل تارة، ولأجل تشريع زواج الجنس الواحد تارة أخرى، ولأجل إعطاء أهل البغاء حقوقهم الكاملة وتشريع مهنتهم السامية تارة ثالثة، وهلم جرّى.. وعجباً وحسرة على العباد، فلا يتركون حالة تشيع معها الفوضى الفكرية والتخبط الاجتماعي والانحطاط الخلقي إلا وطرقوها بدعوى الحرية والمساواة والديمقراطية، بينما يذبح البشر جوعاً وقتلاً وحصاراً فترمل النساء ويسبى أو ييتّم الأطفال تحت شعارات شتى، وترمى آلاف الأطنان من القمح والزبد واللحم في البحر لئلا يؤثر ذلك على اقتصاد الأغنياء بينما يتضور الفقراء جوعاً، ولا من مجيب أو سامع أنّات الملايين من البشر.. وبأحسن الأحوال تجتمع الوفود، في فنادق السعود، لتنفق النقود، وتكتب العهود، ويبقى الحال على ما هو عليه.. أية عدالة لنظام عالمي جديد أعمى تلك التي يعدنا بها من يسمون أنفسهم أهل التحضر والعدالة والديمقراطية؟!.

الحق أيها الأخوة أن الذي يريد أن يصلح ويصدق النية في ذلك من الساسة والحكام يستطيع الإصلاح، لأن توافر النوايا والإمكانات والتعاضد بين أمم البشر موجود، لكن المشكلة أنه حتى الذين يريدون الإصلاح تاهوا في زحمة أهل المصالح الضيقة والنوايا الخبيثة الذين يخلطون الخبيث بالطيب، فيتكلمون بكلمة الحق ويريدون بها الباطل.. والحق أن البشر يجرب ليفشل فيكرر التجربة بعناد أشد وكبر أعلى نحو أوامر خالقه، الذي يعلم خيره فيأمره باتباعه ويعلم شره فيجنبه الخوض فيه.

وما يحصل اليوم من تخبط للبشرية وانتشار الفقر والأمراض التي لم يعهدها بنو

البشر من قبل كالأيدز والسارس وجنون البقر وأنفلونزا الطيور، وكذلك التلوث البيئي وفتحة الأوزون وظاهرة الاحتباس الحراري وما تبعها من زيادة حرارة الأرض، وتدمير الكوكب بتغيير مستمر في بنيته البيئية بحجة التطور والحاجة للتصنيع، وانتشار الفوضى العارمة جراء العولمة في كل العالم، وكثرة القتل بالحروب الفتاكة والحصارات المهلكة، وانتشار الكوارث الطبيعية جراء كل ذلك من زلازل وبراكين وفيضانات وتصحر وجفاف وحرائق وأعاصير وخسف الأرض وغير ذلك، إلا صور بسيطة لنتائج التدخل العشوائي وغير المنتظم للبشر وتلاعبهم بمصيرهم ليقودوه إلى هاوية سحيقة من حيث لا يشعرون، وما خفي كان أعظم!.

أما الإسلام الذي تنبأ بحصول كل هذه الفوضى في العالم في آخر الزمان(*) فإنه جاد في إحلال الخير لكل البشرية، فلا يبحث عن تجربة وخطأ، إنما هو إرشاد الخالق لخير المخلوق، فأعطى الإسلام لكل ذي حق حقه، وحرّم الظلم بكل أنواعه وعلى كل المخلوقات حتى الحيوان والجماد.. وها هو العلم يثبت يومياً صحة ودقة الأوامر الإسلامية في التشريعات سواء أكانت للأحوال الشخصية، أو للجنح والجرائم، أو للعلاقات الخاصة والعامة بين الكتل البشرية من الأسرة إلى الجيرة إلى المحلة فالمدينة فالدولة، وانتهاء بعلاقات الأمم ببعضها سلماً وحرباً.

ولكن البشر رغم كل الأدلة يعاندون ويكابرون لا لشيء إلا لأنهم إذا ما أقروا بأحقية التشريع الإسلامي فإن بضاعتهم ستبور، وتفسد دعاواهم الباطلة وتخسر تجارتهم الفكرية العقيمة، فتكون الضربة القاضية لأتباع إبليس من الإنس والجن، وهذا بالطبع لن يتحقق لأن للجنة أهلها وللنار أهلها، وستستمر المعركة بين جند الله وجند إبليس حتى يقضي الله أمراً كان مفعولا مصداقاً لقوله تعالى:

﴿ وَلَئِنْ أَتَيْتَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٍ مَّا تَبِعُوا۟ قِبْلَتَكَ ۚ وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ ۚ وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ ۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٤٥﴾ ﴾، (البقرة: ١٤٥).. ﴿ وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا

(*) راجع حديث (خمس بخمس) في كتاب الطب (الكتاب التاسع من هذه السلسلة)، وكذلك الأحاديث في الكتاب القادم من هذه السلسلة عن مواصفات ما سيحصل في آخر الزمان.

وَعُلُوًّا ۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤﴾ ﴾، (النمل: ١٤).. ﴿ أَمْ يَقُولُونَ بِهِۦ جِنَّةٌ ۚ بَلْ جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ ﴿٧٠﴾ وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ ﴿٧١﴾ ﴾، (المؤمنون).

المشكلة أن الأهواء والشهوات بكافة أشكالها هي التي تحكم البشر ولو أنهم قدروا الله حق قدره وعرفهم مع من يتعاملون، لما تجرّا أحد على الاعتراض على أوامر الله وتشريعاته، ولكن الله تعالى رؤوف بالناس على ظلمهم رغم كونه سبحانه غني عنهم وهم من يحتاج إليه في كل الأحوال:

﴿ وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُوا۟ مَيْلًا عَظِيمًا ﴿٢٧﴾ ﴾، (النساء: ٢٧).. ﴿ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٠﴾ ﴾، (القصص: ٥٠).. ﴿ أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾، (الجاثية: ٢٣).

على أن التشريع الحنيف أعطى فسحاً عظيمة في جنباته لاستيعاب المتغيرات التي تطرأ على المجتمع، لكن الأصل هو الحفاظ على إنسانية البشر وكرامتهم وحرية أفكارهم وحرمة دماءهم وأعراضهم وأموالهم، فلا تجارة بجمال المرأة وجسدها، ولا أموال تزاد بربا يسحق الأغلبية المحرومة، ولا اعتداء على أهل ذمة أو عقيدة مخالفة، ولا قبول بأي جنس عمل يحول البشر الذين خلق الكون من أجلهم إلى مجرد آلات تستغل لرفع نفر قليل وسحق أمم بأكملها.

هذا الكتاب يبين لكل من يريد أن يستبين أن أي تشريع جاء به الإسلام كان لسبب مصلحي في الصحة والاقتصاد والاجتماع، ولكل البشر دون استثناء ودون تمايز بين الرجل والمرأة، الأسود والأبيض، العربي والأعجمي، إلا بالاستحقاق الذي تقتضيه المصلحة العامة وبما شرّعه الله تعالى الخالق الكامل العالم بكل خفايا مخلوقاته لمصلحة المخلوق الناقص مهما علا علمه، والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون...

وسنفرد في نهاية الكتاب ملحق بتاريخ التشريع الإسلامي.

إن هذه الدنيا التي نعيش فيها لهي بحق اسم على مسمى، فهي حياة دنيا لا قرار فيها ولا ثبات لأي شيء وديدنها التغيير والتبديل من حال إلى حال.. بل هي طريق إلى حياة أخرى أهم وأبقى — هي حياة البقاء والاستقرار أو الدار الآخرة – فما نزرعه في حياتنا الدنيا نحصده هناك في ذلك العالم الذي ينتظرنا في عالم غيب الله تعالى، عند ملك الملوك، المليك المقتدر، هناك حيث لا أحد يظلم فتيلا، فإما رضا وثواب، وإما سخط وعقاب.. إما إلى نار وإما إلى جنة.

الفصل الأول

نظرة عامة

مقاصد الشريعة: لفظ الشريعة في أصل الاستعمال اللغوي الماء الذي يرده الشاربون، وهي في نفس الوقت طريق ومنهاج ومنبع يرتوي منه، ثم نقل هذا اللفظ إلى معنى الطريقة المستقيمة التي يفيد منها المتمسكون بها هدايةً وتوفيقاً[1].

أما الشريعة فقهاً فهي ما يختص بالأوامر والنواهي والإرشادات التي وجهها الله تعالى إلى عباده ليكونوا مؤمنين صالحين عاملين، سواءً أكانت متعلقة بالأفعال أم بالعقائد أم بالأخلاق، وذلك لأنها محكمة مستقيمة ولأنها الطريق إلى حياة النفوس وارتواء العقول. ونفوس البشر مجبولة على الأثرة وعدم الانضباط وحب الذات، فالناس بحاجة إلى تشريع ينظم علاقاتهم ويحد من أنانيتهم ويمنعهم من العشوائية وعدم الانضباط في السلوك والتصرفات، وإلا كان الأمر فوضى بينهم، والفرد في المجتمع يرغب في إيجاد نظام يحدد له الحدود والواجبات في المجتمع الذي يعيش فيه.

وحيث إن البشر لا يستقرون على ضابط واحد يضبطهم لفترة زمنية معينة، فهم دائموا التغيير في الفكر والمنطق والمعتقد بحسب مراحل الحياة التي يعيشون ونوع البيئة المحيطة وعوامل أخرى عديدة، من أجل ذلك كانت الشرائع السماوية رحمة بالعباد وفصلاً بينهم فيما يختلفون أنزلها خالقهم كي يبين لهم أفضل السبل لفضِّ هذه الاختلافات والنزاعات فضلاً عن تنظيمها لعلاقات الناس بربهم وخالقهم كي يتوجهوا له بالحمد والشكر والعرفان بجميل النعم، فالتشريع الإلهي عدل من الله تعالى ورحمة لعباده[2].

تهدف الشرائع السماوية عامة وشريعة الإسلام بوجه خاص إلى تحقيق مصالح

---

(١) الشريعة الإسلامية ومكانة المصلحة فيها، القاضي فاضل دولان، ص٣٦، وانظر (بين الفقه والقانون)، للأستاذ عبد الهادي أبو طالب، ص٧.

(٢) الشريعة الإسلامية ومكانة المصلحة فيها، القاضي فاضل دولان، ص٣٦-٣٧ بتصرف. وانظر مدخل الفقه الإسلامي، للدكتور محمد سلام مدكور، ص١١ وما بعدها.

العباد وحفظها ومنع الضرر عنهم، إلا أن هذه المصالح ليست هي ما يراه الإنسان مصلحة له ونفعاً حسب هواه ورغبته، إنما المصلحة ما كانت مصلحة في ميزان الشرع الذي شرعه خالق الإنسان والكون معاً فهو سبحانه مسبب أسبابه وأصل وجوده، وهو سبحانه القيوم –أي القائم– على ديمومة هذا الكون وهذا الإنسان حتى ينتهي العالم بإذنه، وهو سبحانه الوحيد الذي أحاط بكل شيء علماً،ومن دواعي ومتطلبات هذه القيومية وهذه الإحاطة أن يحدد الأطر والقوانين والنواميس التي يمشي بها هذا الكون بشكل صحيح سواء أكان في المادة أو الروح، فيعرف تبعاً لذلك أن الأمر الفلاني مناسب للإنسان باستخدام الأسلوب الفلاني وهكذا.. ويقسم العلماء مقاصد الشريعة هذه إلى ثلاثة أقسام وهي حسب الأهمية والأولوية:

١. **الضروريات**: ومعناها أنها لابد منها في قيام مصالح الدين والدنيا بحيث إذا فقدت لم تجر مصالح الدين والدنيا على استقامة، بل فساد وتهارج وفوت حياة، وفي الآخرة فوت النجاة والنعيم والرجوع بالخسران المبين. وهذه الضروريات هي خمس، حفظ الدين والنفس والعقل والنسل والمال. والحفظ يكون بأمرين فأما أحدهما فهو ما يقيم أركانها ويثبت قواعدها وهو عبارة عن مراعاتها من جانب الوجود، وأما الثاني فهو ما يدرأ عنها الاختلال ويحافظ عليها من كل ما يمكن أن يؤثر عليها أو يقوضها.

٢. **الحاجيات**: ومعناها أنها مفتقر إليها من حيث التوسعة ورفع الضيق المؤدي في الغالب إلى الحرج والمشقة اللاحقة بفوت المطلوب، فإذا لم تراع دخل على المكلفين الحرج والمشقة، ولكنه لا يبلغ مبلغ الفساد العادي المتوقع في المصالح العامة وهي جارية في العبادات والعادات والمعاملات.

٣. **التحسينيات**: وهي الأخذ بما يليق من محاسن العادات وتجنب الأحوال المدنسات التي تأنفها العقول الراجحات، فهي التي تجعل أحوال الناس تجري على مقتضى الآداب العالية والخلق القويم. فإذا فاتت لا يختل نظام الحياة ولا يلحق الناس المشقة والحرج، ولكن تصير حياتهم على خلاف ما تقتضيه المروءة ومكارم الأخلاق والفطرة السليمة.

ولكل من هذه الأقسام الثلاثة مكملات وهذه بالتأكيد ليست على مرتبة واحدة،

وقد نتجت عن هذه المصالح الثلاثة ومكملاتها عدة قواعد فقهية استنبطها الفقهاء[١].

إذن أول مقاصد الشريعة وأهمها هو الضروريات بأقسامها الخمسة، وأهم هذه الأقسام هو حفظ الدين ومن ثم النفس والعقل للكائن البشري الذي هو أهم مخلوق في هذا الكون بل خلق الكون لأجله، فجعل الله تعالى كل ما في الكون من أمور عظيمة لا يجحدها إلا مكابر مسخر بأمره لأجل خدمة هذا المخلوق. ومن ثم أنزل الكتب وأرسل الرسل ليبينوا للناس على مر الأجيال حقيقة وسبب وجودهم، وحذروهم من مغبة انقيادهم وراء ما خُلِقَ لأجلهم وترك ما هو أهم ألا وهو ما خُلقوا من أجله[٢].

تتميز تنظيمات الله تعالى بسلامتها من أي غرض وميل إلى الهوى وتفضيل لبشر على بشر في لون أو نسب أو جنس، فالخلق عند الله تعالى سواء، بالإضافة إلى نفوذ علمه وإحاطته بجميع خلقه. والناس لو سلمت تنظيماتهم الوضعية من الهوى والغرض فهي لم تسلم من النقص والعوج والزيغ، بدليل تناقض أحكامهم، بل إن الشخص الواحد يناقض نفسه فينقض اليوم ما أبرمه بالأمس. ويؤكد أهل الشريعة الإسلامية أن هذه الشريعة تعتبر أساساً ومصدراً لكل تشريع لأنها شمولية أي شاملة للجنس البشري لأي جيل في كل زمان والمكان بحيث لا يمكن أن تقوم مقامها شرعة أخرى لشمولها الأصول والفروع والظاهر والباطن، فهي الحق وهي العدل وهي المصلحة وحيثما كان الحق والعدل والمصلحة فثم شرع الله تعالى، ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۖ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾، (المائدة: ٤٨).. ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾ ﴾، (الجاثية: ١٨).

والأحكام التي تناولها الشرع الإسلامي ثلاثة: الأحكام الاعتقادية، والأحكام

---

(١) الإسلام والتنمية البشرية، الدكتور أسامة عبد المجيد العاني، ص٩-١٤ بتصرف.

(٢) انظر كتابنا (القرآن منهل العلوم)، إصدار الجامعة الإسلامية، بغداد، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م.

الخلقية، والأحكام العملية. وهذه الأنواع الثلاثة تشمل جميع أنواع تنظيم العلاقات من عبادات وحقوق وواجبات وأخلاق وتعاملات وأقوال وأفعال وتصرفات بين الإنسان وربه، نفسه، أهله، جنسه، بيئته في الأرض والكون، وكل ما يحفظ حقوق الجميع بما يحفظ لكل ذي حق حقه، وما ينجي الكائن البشري في دنياه وآخرته. فحدد الإسلام العبادات التي يتقرب بها الإنسان من ربه ﷻ من صلاة وصيام وزكاة وحج، وتناول أحكام المعاملات بين الناس، فنظم العقود وحدد أحكامها كعقد الإيجار والرهن وما إلى ذلك، وتناول أحكام ومسائل الأحوال الشخصية وشؤون الزواج وتنظيم شؤون الأسرة والعلاقات الأسرية وحقوق كل فرد فيها، وأوضح السبل والإجراءات القضائية في المحاكم وطرق الإثبات، وبين مركز الحاكم بين المتقاضين، وحدد أحكام النظام الإداري والدستوري في الدولة، وبين السبل لاختيار رئيس الدولة وحقوقه تجاه الرعية وواجباته نحوها، كما نظم القانون الدولي وعلاقات الدول ببعضها في الحرب والسلم. وكل ذلك نظم تنظيماً دقيقاً بقواعد قانونية رصينة لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها لأنها من لدن حكيم عليم بشؤون البشر وسائر الكون، ﴿ صِبْغَةَ ٱللَّهِ ۖ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً ۖ وَنَحْنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ ﴿١٣٨﴾ ﴾، (البقرة: ١٣٨)[1].

وحيث أن الأحكام الشرعية الإسلامية التي نسخت ما قبلها تعهد الله بحفظها من أي تحريف أو تلاعب بشري قد يصيبها، فإنها خالدة باقية دائمة حتى يرث الله الأرض ومن عليها.

إذا ما تدبرنا آيات الله الخالدات من وجهة نظر تشريعية قانونية واجتماعية واقتصادية، فماذا نرى؟:

- المسلم الغني مستخلف في مال الله وملكه، والثروة أمانة في عنق حاملها يسأل عنها يوم القيامة، من أين جمعها وفيم أنفقها.
- الكسب الحلال يؤدي إلى أسرة كريمة طيبة، والكسب الحرام يترك أثره في الجوارح والسلوك ليكون أسرة فاسدة مفسدة كالطفيليات والمكروبات المدمرة.
- توزيع عادل للثروات بحيث لا يبقى فقير أو محتاج، وهذا ما حققه الخليفة

---

(١) الشريعة الإسلامية ومكانة المصلحة فيها، القاضي فاضل دولان، ص٣٧-٤١، بتصرف.

الراشدي الخامس عمر بن عبد العزيز ﷺ.

- ردع لكل متطاول بشكل لا يتجرأ بعده الآخرون على التقليد وهذا ما أثبته التطبيق العملي في المجتمع الإسلامي - كقطع يد السارق مثلاً-.
- نظام عظيم للزواج وتكوين الأسرة وتربية الأولاد.
- القانون فوق السلطة، ولا يستثنى الحاكم والمحكوم من عدالة القضاء، فالإسلام هو أول من وضع هذا الشعار وطبقه.
- تكريم لا يدانيه تكريم للمرأة بدءاً من ولادتها وتحريم الوأد الذي كان شائعاً بين العرب قبل البعثة الشريفة، مروراً بحث الوالدين على تربية البنات على أصول الخلق الرفيع والعلم النافع، ثم أهمية المرأة في البيت والقضاء والعلم والحرب والسلم وغير ذلك مما تزخر به كتب الفقه الإسلامي في أهمية دور المرأة في أن تكون بانية للأسرة والمجتمع لا أن تكون مدمرة له وفق المفهوم الغربي الذي يجعل من المرأة عبارة عن جسد يباع ويشترى بأبخس الأثمان، وما يتبع ذلك من اتباع الشهوات للجنسين، وترك الطريق الأمثل في الزواج وتكوين الأسر إلى الطريقة الغرائزية الحيوانية في تصريف الشهوة.

إن نظرة ثاقبة إلى سورة النساء فقط وتدبر مدى الروعة العظيمة في تقسيم الميراث في الإسلام وحقيقة إعطاء النصف والربع والثلث والسدس لحالات مختلفة يريك مدى الترابط بين القانون وعلم الاجتماع والاقتصاد والرياضيات. فإذا تأملت لماذا هذه الكسور وحقيقة تقسيمها بهذه الدقة وربطها مع الحالات الاجتماعية المختلفة لكل تقسيم، لعلمت الدقة في مراعات الله تعالى لحقوق الأسرة برمتها ومنها المرأة بأصنافها الثلاث الزوجة والبنت والأم، من جهة ودقة التقسيم الرياضي من جهة ثانية.

قام المهندس الأستاذ مولود مخلص الراوي بتقديم بحث رائع في هذا الموضوع إلى المؤتمر الأول للإعجاز القرآني الأول المنعقد بمدينة السلام بغداد للفترة ٢١-٢٦ رمضان ١٤١٠هـ الموافق ١٦-٢١ نيسان ١٩٩٠ م، وأسماه (الإعجاز في علم المواريث) والذي يتضمن إعداد برنامج حاسوبي للقسّام الشرعي يمكنه حل جميع مسائل الميراث مفردةً كانت أم متناسخة (متعددة الوفيات) بأعداد صحيحة أو ما يعرف بالتصحيح وبنفس الأسلوب الشائع في تنظيم القسّامات الشرعية. وقد جرى اختبار البرنامج عملياً من قبل

لجنة شرعية متخصصة ثم تم اعتماده من قبل وزارة العدل العراقية للاستخدام عملياً في المحاكم العراقية[١].

يقول أحد الحقوقيين الغربيين وهو يعلق على ما جاء في سورة النساء: (لا يمكن أن يكون هذا القرآن من عند محمد لأننا الآن وفي عصر التطور الهائل لا نستطيع أن نعطي تشريعاً بهذه الروعة والتفصيل والدقة والعدالة لكل أفراد الأسرة دون استثناء).

وقد اعترف الراسخون في العلوم القانونية من رجالات الغرب بأن التشريع الإسلامي يعد في طليعة المصادر الصالحة لسد حاجات التشريع الحديث. ونطق بذلك قرار مؤتمر القانون المقارن المنعقد في مدينة لاهاي، في شهر آب من سنة ١٩٣٧م، الموافق لجمادي الآخرة من سنة ١٣٥٦هـ، وقد دعي إليه الأزهر، فمثله مندوبان من كبار علماءه فحاضرا فيه عن المسؤولية الجنائية والمسؤولية المدنية في الإسلام، وعن نفي أية علاقة مزعومة بين القانون الروماني الوضعي والشريعة الإسلامية الغراء. وقد خرج المؤتمر على أثر ذلك بقرار تأريخي خطير بالنسبة إلى رجال التشريع الأوربي، جاء فيه:

١. اعتبار الشريعة الإسلامية مصدراً مهماً من مصادر التشريع العام.

٢. اعتبارها حية قابلة للتطور.

٣. اعتبارها تشريعاً قائماً بذاته، ليس مأخوذاً من غيره[٢].

كان النظام القضائي الإسلامي أول من جاء بفكرة القضاء والقانون فوق الحكم والسلطان، وطبقها فعلاً في كثير من الحالات منها القصة المعروفة للإمام علي كرم الله وجهه مع اليهودي الذي اشتكى إلى القاضي بأن أمير المؤمنين —حاشاه— قد سرق درعه، فحضر الطرفان أمام القاضي وانتهت القضية بإعلان اليهودي إسلامه لما رأى من عدل الإسلام.. وهكذا أخذ الغربيون منا هذا التراث العظيم وصدروا لنا دكتاتورياتهم التي كانت في عصور ظلامهم، ثم ادعوا أنهم متحضرون لأنهم ديمقراطيون، فتنبهوا

---

(١) الإعجاز في علم المواريث، المهندس مولود مخلص الراوي، الاعجاز القرآني، المؤتمر الأول للإعجاز القرآني الأول المنعقد بمدينة السلام بغداد للفترة ٢١-٢٦ رمضان ١٤١٠هـ الموافق ١٦-٢١ نيسان ١٩٩٠ م، ص٦٥٩-٦٧٦.

(٢) الشريعة الإسلامية ومكانة المصلحة فيها، القاضي فاضل دولان، مطبعة أنوار دجلة، بغداد، ١٤٢٣هـ، ٢٠٠٢م، ص٢٤.

معشر السلمين لهذه المغالطة.

وها هو الأمير تشارلز يدلي باعتراف خطير خلال مؤتمر عقد بلندن عام ١٩٩٦م من أن ٦٠٪ من القضاء البريطاني يعتمد في روحه وبعض نصوصه على التشريع الإسلامي[١].

ولأهمية الموضوع لعامة الناس كي يفهموا عظمة هذا الدين وسعة آفاقه وتعدد آراءه وشمول آلاءه، فقد أفردنا ملحقاً في نهاية الكتاب لتبيان تاريخ التشريع الإسلامي والمراحل التي مرّ بها بشكل مختصر قدر الإمكان.

---

(١) انظر كتاب (المنظار الهندسي للقرآن الكريم)، للمؤلف.وبإمكان القارئ الكريم الرجوع لنص الكلمة من مصادرها او من شبكة المعلومات الدولية (الإنترنت).

الفصل الثاني

الاقتصاد في الإسلام

إن ما يشهده العالم من ظلم اقتصادي لفئات كبيرة من المجتمع البشري يؤكد ضرورة ملحة ألا وهي كيفية تكوين نظام اقتصادي يجعل العدالة هي السمة الأبرز لتكوينه، ويطرد كل الأفكار التي من شأنها أن تكون دولاً غنية وأخرى فقيرة أو على الأقل أن يكون الفرق بسيطاً مقبولاً وليس ساحقاً للغالبية الفقيرة.

إن أهم مبدأ جاء به التشريع الاقتصادي الإسلامي هو إزالة تلك الهوة بين الفريقين الأغنياء والفقراء ومحاولة تقليصها قدر الإمكان. يقول الله تعالى: ﴿ مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ كَىْ لَا يَكُونَ دُولَةًۢ بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ ۚ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٧﴾ ﴾، (الحشر:٧). أي لكي لا تكون الغنائم محصورة بين مجموعة الأغنياء فقد شرع التوزيع للجميع دون استثناء، فالمبدأ إذن منع الاحتكار المالي والسلعي كي لا يحصل الخلل والمن ثم المظالم والمآسي التي تؤدي إلى الاقتتال من أجل المال. وإنك لتجد في التشريع الحنيف ما أغنانا عن ذكره الكثير من الباحثين والمتخصصين في هذا الشأن المهم، وما ذكر في الكتب والمؤلفات والمجلدات ما يجعلنا نبتعد عن التفصيل ونقترب من الاختصار. دائماً ما يحث الإسلام وكتابه رسول الله ﷺ الناس على التكامل والتكافل الاقتصادي، وينهاهم عن الاحتكار والغش والسحت والسرقة وأكل مال اليتيم واليمين الفاجر والربح الفاحش وغير ذلك من القيم الرائعة في التعامل التجاري والاقتصادي بين الأفراد والدول، كما شرعت الزكاة وجعلت من دعائم النظام الإسلامي لما لها من أثر إيجابي على المجتمع، وكذا والصدقات والمكوس ونظم بيت المال للحفاظ على التوازن بين الغني والفقير في الأمة. وقد فرض على الأغنياء ما يغني الفقراء وهدد المانعون بأشد العقاب في الدنيا والآخرة لأن الفقر كاد أن يكون كفراً، كما جعل الدّين ثقيلاً على النفس لأنه يمنع الحي من الراحة والميت من نيل الأجر حتى يسدد عنه دّينه. وقد طبق كل ذلك في عهود كثيرة وأثبت نجاحه وتميزه.

الناحية الاقتصادية في نظام الحكم الإسلامي تستند على مسألتين، الأولى هي كيفية أخذ الدولة للمال من الأمة، والثانية كيفية إنفاقه. أما الأولى، فكانت الدولة الإسلامية تأخذ الزكاة على الأموال والأراضي وعروض التجارة والمواشي والزروع والثمار، باعتبار أن الزكاة عبادة، لتقوم بتوزيعها على مستحقيها من الأصناف الثمانية المقررة شرعاً، كما تأخذ الخراج والجزية وضرائب الجمارك بحكم إشرافها على التجارة في الصعيدين الداخلي والخارجي، وكانت تقوم على إدارة ما هو داخل في الملكية العامة أو ملكية الدولة كالمعادن والقنوات وغيرها من موارد بيت المال. أما من حيث إنفاق هذه الأموال فإنها توزعها حسب الأحكام الشرعية، وقد طبقت أحكام النفقة على العاجز وحجزت على السفيه والمبذر، وأوجدت أماكن الفقراء والمعسرين، ونفذت أحكام العمل والعمال، ومنعت الاحتكار والغش والاستغلال والرشاوى وكل وسائل الكسب غير المشروع. ومن الحق أن نقول إن بعض الحكام كانوا يسيئون تطبيق أحكام الشرع في هذه الناحية، وكان البعض الآخر يحسن غاية الإحسان في رعاية هذه الناحية، تبعاً لنفسية الحاكم ومدى التزامه بالأحكام الشرعية، وموقف الأمة منه وخصوصاً العلماء، فإذا حصل لبعض الحكام أن يقصر ويسيء فلا يعني هذا عدم التطبيق[١].

لا أريد هنا أن أدخل في تفاصيل هذا العلم الواسع وعظمة التشريع الإسلامي في الزكاة والصدقات والتدابير الاقتصادية الإسلامية العظيمة الأخرى والتي تحتاج إلى مجلدات كثيرة لتفصيلها وهذا يترك لأهل الاختصاص[٢]. إلا أنني سأركز على أمر غاية في الخطورة بل هو أخطبوط مرعب التهم العالم كله بسبب نظام اقتصادي غير عادل حذر الإسلام منه أيما تحذير ألا وهو (الربا).

الربا لغوياً هو مطلق الزيادة والنمو، وهو حسب ما فصله الإمام الرازي رحمه الله في مختار الصحاح: (رَبَا) الشيء زاد وبابه عَدَا. والرابية ما ارتفع من الأرض وكذا

---

(١) الإسلام بين العلماء والحكام، الشيخ الشهيد عبد العزيز البدري، ألفه عام١٣٨٥هـ -١٩٦٥م. مطبعة أنوار دجلة، بغداد، ١٤٢٤هـ- ٢٠٠٣م، ص١٣-١٤.

(٢) بإمكان القارئ الكريم الرجوع إلى مصادر مهمة في النظام الاقتصادي الإسلامي، وأفضل كتاب (المعاملات المالية المعاصرة في ميزان الفقه الإسلامي)، للمؤلف الدكتور علي أحمد السالوس لأهميته وأسلوبه المميز.

(الربوة) بضم الراء وفتحها وكسرها والرباوة أيضاً بفتح الراء. والربو النفس العالي يقال ربا من باب عدا إذ أخذه الربو. قال الفراء في قوله تعالى: ﴿ فَعَصَوْا۟ رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَّابِيَةً ﴿١٠﴾ ﴾، (الحاقة: ١٠)، أي زائدة كقولك أربيت إذا أخذت أكثر مما أعطيت. ورباه تربية وترباه أي غذاه وهذا لكل ما ينمي كالولد والزرع ونحوه. والربا في البيع وقد أربى الرجل والربية مخففة لغةً في الربا وهو في حديث صلح أهل نجران. قال الفراء: هو ربية مخففة سماعاً من العرب والقياس (رُبوة) بالواو[1].

يقول الله تعالى في محكم كتابه:

١- ﴿ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰا۟ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰا۟ ۗ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰا۟ ۚ فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَمَنْ عَادَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٧٥﴾ يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰا۟ وَيُرْبِى ٱلصَّدَقَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ﴿٢٧٦﴾ ﴾، (البقرة).

٢- ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَذَرُوا۟ مَا بَقِىَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ فَأْذَنُوا۟ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۖ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٩﴾ ﴾، (البقرة).

٣- ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَأْكُلُوا۟ ٱلرِّبَوٰٓا۟ أَضْعَٰفًا مُّضَٰعَفَةً ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٣٠﴾ ﴾، (آل عمران: ١٣٠).

٤- ﴿ وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰا۟ وَقَدْ نُهُوا۟ عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦١﴾ ﴾، (النساء: ١٦١).

٥- ﴿ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَا۟ فِىٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرْبُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ ﴿٣٩﴾ ﴾، (الروم: ٣٩).

فإن الآيات المباركات تبين ما لخطورة هذا الأمر وعظمة تأثيره السلبي على

---

(١) مختار الصحاح، الشيخ الإمام محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي، ص٢٣١-٢٣٢.

الاقتصاد للفرد والمجتمع، كما تبين مدى التهديد العظيم الذي هدد به الله تعالى المتعاملين بالربا ألا وهو حرب من الله ورسوله، وهذا ما نراه اليوم.

ولقد اكتشف علمياً أن القلق الذي يحدث نتيجة تراكم الثروات يؤدي إلى إفراز مادة الأدرينالين التي بدورها ترفع ضغط الدم وتؤدي إلى الحزن والألم، وهذا يؤدي إلى مرض البول السكري، ويتعرض الإنسان إلى الانفعالات العصبية فيرى الدنيا في عينيه سوداء قاتمة لا أمل فيها. يؤدي ذلك بالتراكم إلى تخبط الإنسان فيصبح بحال غير طبيعي كأن به مساً من جن أو كأنه مجنون، وهذا ما وصفه تعالى في كتابه الكريم في الآيات التي استعرضناها آنفاً من الآية ٢٧٥ من سورة البقرة والتي تصف حالة المتعاملين بالربا: ﴿ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰاْ ۗ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْ... ﴾. كما وأنك تجد نسبة عالية من الناس قد أصابهم من الربا أما مباشرة أو أصابهم من رشاشه تماماً كما تنبأ رسول الله ﷺ فيما سيكون من أمر الناس عند آخر الزمان(*)، فاختلطت أموالهم الحلال بحرامه بسبب البنوك والتعاملات الربوية من جهة وبسبب تداخل المصالح العالمية اليوم بشبكة عنكبوتية والتي أصبح معها من الصعب بمكان الانفكاك منها شئنا أم أبينا. فماذا كانت النتيجة أننا أكلنا في بطوننا بعض هذا الحرام المتأتي من الربا المفروض علينا فرضاً، فأصبح الرجال والنساء يرقصون ويتمايلون في الملاهي والطرقات كأنهم بهم مس من الشيطان، إلا من رحم ربي، فصدق الله ورسوله.

ذكرنا تلك المشاكل الصحية المتأتية من الربا رغم أنه يفترض أن ندرجها ضمن المواضيع الطبية، ولكن الموضوع يقتضي الإشارة المباشرة. ولا أريد هنا الدخول في الأسباب التي أوصلتنا إلى هذه النهاية لأن الشرح يطول، ولكنني سأذكر بعض الأمور من كتاب ألفه رجل أمريكي اسمه **وليم غاي كار** وترجمه إلى العربية سعيد جزائرلي وطبعته بالنسخة العربية دار النفائس للطباعة والنشر. اسم الكتاب (أحجار على رقعة الشطرنج) دفع المؤلف حياته ثمناً له وكان قد استغرق في تأليفه وجمع وثائقه وحقائقه حوالي أربعين عاماً وقد أحدث ضجة كبيرة في خمسينات القرن العشرين ولا يزال من المصادر

(*) راجع الأحاديث التي وردت في ذلك في كتابنا الأخير من هذه السلسلة (آخر الزمان).

المهمة التي تقض مضاجع اليهود وفضائحهم التي تزكم الأنوف. يذكر المؤلف في هذا الكتاب حقائق مذهلة توصل إليها ببحث واستقصاء مضنيين مفادها أن سبب ما نعانيه هو المشكلة الاقتصادية التي أكلت العالم بسبب ما فعله المرابون اليهود طيلة أربع قرون من الزمن سيطروا فيها على المال العالمي ومصادره وأمسكوا بزمام الشريان الاقتصادي العالمي فتحكموا به وبنوا إمبراطورية اقتصادية مهولة أساسها الربا بأضعاف مضاعفة ومن ثم تحولت سيطرتهم إلى سيطرة إعلامية واجتماعية وسياسية وعسكرية وهذا ما نراه اليوم من سيطرتهم على أعقد العقد السياسية فيما يسمى الدول الكبرى في العالم، ألا وهو الكونغرس الأمريكي وبالتالي سيطرتهم على تعيين الرئيس الأمريكي نفسه، (وأضيف هنا أن أكثر من ٨٠٪ من الحكومة الأمريكية منذ عام ١٩٩٢م ولحد اليوم هم من اليهود المؤصلين وهذه أكبر نسبة لليهود في تاريخ الحكومات الأمريكية)، بل إن المحافظين الجدد الذين يرسمون السياسة الأمريكية الحالية هم صهاينة أو متصهينون، فشتان بين جورج واشنطن الذي سمى اليهود بالحشرات التي يجب أن تسحق وتطرد، وبين ما وصلت إليه أمريكا اليوم، وكذلك شتان ما بين الملك إدوارد الأول الذي طرد ما تبقى من اليهود بعد ذبحهم ذبح الشاة وبين ونستون تشرشل الذي يقول أنا صهيوني ابن صهيوني، وكل من جاء بعده.

إن حب اليهود للمال جاء منذ عهد سيدنا موسى عليه السلام بعد حادثة العجل الذي عبدوه بعدما نجاهم الله تعالى من فرعون وكما أخبرنا القرآن الكريم، يقول الله تعالى: ﴿...وَأُشْرِبُواْ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ...﴾، (البقرة: من الآية ٩٣)، أي جعل الذهب والفضة والمال الإله الذي يحكمهم بعدما كفروا بالله تعالى وسمحوا لأنفسهم بأن يعبدوا عجلاً مصنوعاً من الحلي الذي أخذوه من أهل مصر القديمة. هذا العقاب الإلهي لهم بأن أصبحوا عبدةً للمال جعلهم لا يتورعون عن فعل أي شيء ومن ذلك الربا الذي حرم عليهم في التوراة بنص الآية القرآنية التي ذكرناها (النساء: ١٦١).

إن الكتاب الذي أشرنا إليه يذكر أسماء هؤلاء المرابين وانتساباتهم ومؤسساتهم وأين وصلوا الآن بعد أربعة قرون من العمل الأخطبوطي الدؤوب توارثوه جيلاً بعد جيل، وهو كتاب غاية في الأهمية والروعة يعطي لقارئه الفكرة الواضحة حول خبث هؤلاء الناس ومكرهم ودهائهم الذي جعل من كل دول العالم مقلداً لهم أو طائعاً ذليلاً بسبب

الحبال التي أوثقوها حول رقاب الشعوب وما فعلوه من أسلوب اقتصادي خنق العالم وكبله بالديون والمشاكل الاقتصادية التي لا تنتهي وما صندوق النقد الدولي إلا ذراع واحد من أذرع هذا الأخطبوط المرعب.

لنتحول الآن إلى كاتب آخر وهو الدكتور حسين مؤنس، إذ كتب بحثاً في مجلة أكتوبر المصرية (العدد ٤٧٥، ديسمبر، ١٩٨٥، ص٥٠-٥٢)، توصل فيه في النهاية إلى تعبير نصه: ((إذن فالربا يعني خراب الدنيا فعلاً))، قال فيه: ((خلال السنوات الماضية تجلى بوضوح أكثر فأكثر أن العالم كله يسير بسرعة متزايدة نحو كارثة اقتصادية بلا حدود، وأن تلك الكارثة لا ترجع إلى أن موارد الخير والرزق في الأرض قد قلّت ولم تعد تكفي الناس، لأن الحقيقة عكس ذلك فقد ازدادت هذه الموارد خلال السنوات الماضية بصورة تخطت كل التوقعات والدراسات، فإنتاج العالم من الغذاء يبلغ اليوم أضعاف حاجة البشرية جميعاً إذا هي دُبرت بعدالة، ففي بعض بلاد الدنيا مقادير من الغذاء تكفي أهل الأرض جميعاً، فهذه أمريكا تتحدث عن جبال القمح، وهذه أوربا تحدثت عن جبال الزبد، بينما في قارة أفريقيا يموت ١٠٪ من سكانها سنوياً في حين أن الملوك والأمراء يعملون موائد تكفي إنقاذ أضعاف هذا الرقم من موتهم وهلاكهم ولا أحسب هذا التفاوت إلا من جراء الربا)).

وقد ساق الرجل أمثلة عديدة بالأرقام حول موضوع الربا فمثلاً نراه يقول ((إن القلم الذي أكتب به الآن يكلف من مواد وصناعة وهندسة ونقل وأمور أخرى رقماً يساوي عشر المبلغ الذي أشتريه به))، وأمثلة أخرى عديدة، ويقول أيضاً متسائلاً بعد هذه الأمثلة، (ما الذي يجعل هذا الفرق الهائل بين الواحد والعشرة؟! فيجيب، الوسطاء والبنوك، ثم يتساءل في نهاية البحث ما الذي يعطي الدولار كل هذه القوة؟!، إنه الربا، إنها المعاملات الربوية التي هي أساس الاقتصاد الغربي كله. لأن الثروة الأمريكية التي لا تصدق والتي يصل قيمة المداورة اليومية لها مئات البلايين من الدولارات لا يمكن أن تكون قد تكدست بهذه الصورة الرهيبة عن طريق التجارة الحرة الشريفة، لأن أرباح المعاملات التجارية مهما بلغت فإن للمكاسب التجارية حدوداً، والشطارة والمهارة مهما بلغت فهي لن تسمح لك ببيع منتجاتك بأكثر من أربعة أو خمسة أضعاف تكلفتها، فإذا أنت بعتها بمائة ضعف فأنت هنا تدخل في ميدان السرقة، والسرقة

تسمى في عرف التجارة الغربي (Intrest) أو (Benifet) والترجمة العربية الفصيحة للكلمتين هو الربا)). وتوصل في نهاية بحثه إلى أن مأساة البشرية التي نعيشها الآن هو أساسها أن ((عالمنا الراهن يقوم على الربا من البداية حتى النهاية)).. فشتان بين عدل الاقتصاد في الإسلام وشريعته السمحاء التي ملأت العالم رحمةً وعدلاً طيلة ثمانية قرون وبين بربرية حضارة العم سام.

تعلق بعض المتأخرين بكلمة (أضعافاً مضاعفة) التي وردت في قوله تعالى في الآية ١٣٠ من آل عمران التي أوردناها آنفاً، وقالوا أن الربا المحرم هو ما كان أضعافاً مضاعفة، أما ما كان بسيطاً وقليلاً فلا حرمة فيه. إن هذا الفهم الخاطئ للآية

الرد على هؤلاء كما يذكر الأستاذ صلاح الدين عبد المجيد هو أن هذا من باب التدرج في التشريع تماماً كما تدرج حكم تحريم الخمر، والعبرة دائماً بالحكم الأخير، فكما يلاحظ من آيات الربا التي أوردناها أن هناك تدرجاً في الحكم بتحريمه حتى وصل إلى درجة الحرب من الله ورسوله على فاعليه والعياذ بالله.. والأحاديث الشريفة الصحيحة في ذلك كثيرة، نذكر منها:

١. أخرج البخاري في الوصايا (٢٥٦٠) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهم عَنْه عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ(**اجْتَنِبُوا السَّبْعَ الْمُوبِقَاتِ**)، قَالُوا يَا رَسُولَ اللَّهِ وَمَا هُنَّ قَالَ (**الشِّرْكُ بِاللَّهِ وَالسِّحْرُ وَقَتْلُ النَّفْسِ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَأَكْلُ الرِّبَا وَأَكْلُ مَالِ الْيَتِيمِ وَالتَّوَلِّي يَوْمَ الزَّحْفِ وَقَذْفُ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ الْغَافِلاَتِ**).

٢. أخرج الإمام مسلم في المساقاة (٢٩٩٥) عَنْ جَابِرٍ قَالَ لَعَنَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺآكِلَ الرِّبَا وَمُؤْكِلَهُ وَكَاتِبَهُ وَشَاهِدَيْهِ وَقَالَ هُمْ سَوَاءٌ

٣. أخرج أبو داود في البيوع (٢٨٩٦) عَنْ سُلَيْمَانَ بْنِ عَمْرٍو عَنْ أَبِيهِ قَالَ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فِي حَجَّةِ الْوَدَاعِ يَقُولُ (**أَلاَ إِنَّ كُلَّ رِبًا مِنْ رِبَا الْجَاهِلِيَّةِ مَوْضُوعٌ لَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لاَ تَظْلِمُونَ وَلاَ تُظْلَمُونَ أَلاَ وَإِنَّ كُلَّ دَمٍ مِنْ دَمِ الْجَاهِلِيَّةِ مَوْضُوعٌ وَأَوَّلُ دَمٍ أَضَعُ مِنْهَا دَمُ الْحَارِثِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ كَانَ مُسْتَرْضِعًا فِي بَنِي لَيْثٍ فَقَتَلَتْهُ هُذَيْلٌ**)، قَالَ (**اللَّهُمَّ هَلْ بَلَّغْتُ**)، قَالُوا نَعَمْ ثَلاَثَ مَرَّاتٍ، قَالَ (**اللَّهُمَّ اشْهَدْ**)، ثَلاَثَ مَرَّاتٍ

ولقد أصدر المؤتمر السنوي لمجمع البحوث الإسلامية الذي عقد عام ١٩٦٥م قراراً

هذا نصه: (الفائدة على أنواع القروض كلها ربا محرم، لا فرق في ذلك بين ما يسمى بالقرض الاستهلاكي وما يسمى بالقرض الإنتاجي، وإن كثير الربا وقليله حرام). إن الربا له أضرار كثيرة في جوانب ثلاثة: الجانب الخلقي والجانب الاجتماعي والجانب الاقتصادي.

يرى عميد الاقتصاديين الأوربيين (كينز) أن الربا هو سبب الكساد، وأن المجتمع النامي لكي يحقق آماله في التنمية عليه أن يصل في تعامله الاقتصادي إلى الدرجة التي تصير درجة الفائدة (الربا) صفراً.. وإن نظرة واحدة إلى ديون العالم النامي التي وصلت إلى أرقام مرعبة، هي كلها ديون ربوية، ومهما عملت الدولة لتسديد تلك الديون تراها تغرق فيها أكثر، السبب ببساطة أن المبدأ هو مبدأ إيغال في المشكلة وليس حلها.

على أن هناك فوائد لا تنكر من عمل المصارف الإسلامية كتيسير التبادل وتعزيز طاقة رأس المال وتحويل النقود بين الدول وبيع وشراء العملات وإصدار الشيكات وتحصيل الديون وبيع أسهم الشركات وتأجير الخزائن الحديدية وتسهيل التعامل مع الدول الأخرى.. ومن هنا بدأت فكرة البنوك غير الربوية في خمسينيات القرن العشرين الميلادي، وقد أثبتت نجاحاً باهراً مما دفع إلى تطوير الفكرة وانتشارها حتى وصل إلى أوربا وأمريكا[1].

في بدايات العقد التسعيني من القرن العشرين الميلادي عقد مؤتمر عن الاقتصاد الإسلامي في جامعة ليفيبوروه البريطانية بحضور كبار اقتصاديي العالم، واستمعوا إلى شروح عن آيات القرآن الكريم وأحاديث المصطفى ﷺ المتعلقة بتنظيم الشؤون الاقتصادية، فكان الانبهار العظيم من الجميع، وتم الاتفاق على تدريس الاقتصاد الإسلامي في الجامعات البريطانية في البكولوريوس والماجستير والدكتوراه.

وفعلاً في عام ١٩٩٦م تأسس معهد ماركفيلد للدراسات الإسلامية الاقتصادية تحت إشراف أساتذة مسلمين متخصصين أمناء وأوفياء، وليس المستشرقين الذين شوهوا الإسلام وكتابه وسنة رسوله، ودسوا لنا السم في الدسم. وقد قام هؤلاء الأساتذة بالإشراف

---

(١) بحث للأستاذ صلاح الدين عبد المجيد في مجلة التربية الإسلامية، السنة ٣٥، العدد ١٢، ص ٢٧-٣٠، بتصرف.

على الطلاب من مختلف المراحل الجامعية ولأربعة جامعات بريطانية كمرحلة أولى. وهاهي المصارف الإسلامية غير الربوية تبدأ بالانتشار في أمريكا وأوربا وتدر بالربح الوفير باعتراف الغربيين أنفسهم، وهاهي الإنجازات تترى لتكون بداية الخير، فأول الغيث قطر كما يقولون، والحمد لله رب العالمين.

الفصل الثالث

النظام الاجتماعي الإسلامي

لقد كون رسول الله ﷺ مجتمعاً رائعاً بعد أن طبق النواميس والأوامر الإلهية التي جاء بها القرآن الكريم، فبدأ بالنفس والأهل والأقربون صعوداً إلى المجتمع والمدينة والدولة، فكانت تلك الحقبة تمثل أعظم الحقب التي حفظت للإنسان كرامته وعزته بعد أن عرف ربه واستقام على ذلك.

وهنا أسرد قصة لطيفة لأحد الرحالة الأوربيين الذي زار بغداد في العصر العباسي الثاني، فأجّر منزلاً، وكان يستيقظ كل صباح فيجد القمامة التي رماها في باب بيته ليلة الأمس وقد أزيلت، وكان يتعجب للأمر. فقرر ذات ليلة أن يراقب الباب ولا ينام، فإذا بجاره يخرج عند هجيع الليل ليحمل القمامة ويرميها بعيداً. فأتى لجاره بعد ذلك فسأله عن الأمر، فقال له الجار، إني والله لم أكن أتمنى أن تعلم بهذا، أما أنك وقد علمت وسألتني فسأجيبك... إن ديننا قد وصى بالجار، وإنني رجل أخاف العبور على الصراط يوم القيامة، فلم يفهم السائل، فسأله عما عناه بالصراط، ففسر له الأمر، فازداد عجبه. وعندما عاد لبلده روى القصة لأهله وقال لهم متسائلاً: هل استطاعت كل فلسفاتنا أن تضع في الناس خلقاً رفيعاً مثل ما فعله الصراط بالمسلمين؟... ذكرت تلك القصة لأبين لكل من يدعي أن المسلمين أخذوا النظافة من الغرب أن يعود لهذه الحضارة الرائعة وذلك التاريخ المشرف ليعرف إلى أية أمة ينتمي.

ولقد كفلت حضارة الإسلام العظيمة للبشر كل ما يحتاجونه لإقامة الأسس والمرتكزات التي حددتها، ومن ذلك:

١. **حرمة الدم وحفظ حق الحياة**: ﴿ مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ۚ وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم بَعْدَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾، (المائدة: ٣٢).

٢. **حرمة العرض فصان للفرد حق الكرامة**: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن

قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ ۖ وَلَا تَلْمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلْأَلْقَٰبِ ۖ بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَٰنِ ۚ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿١١﴾ ﴾، (الحجرات: ١١).. ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجْتَنِبُواْ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ ۖ وَلَا تَجَسَّسُواْ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾ ﴾، (الحجرات: ١٢).

٣. **حرمة المال وحق التملك**: في البخاري (الحج ١٦٢٣) عَن ابْنِ عَبَّاس رَضِي اللَّهم عَنْهمَا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ خَطَبَ النَّاسَ يَوْمَ النَّحْرِ فَقَالَ: (**يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَيُّ يَوْمٍ هَذَا قَالُوا يَوْمٌ حَرَامٌ قَالَ فَأَيُّ بَلَدٍ هَذَا قَالُوا بَلَدٌ حَرَامٌ قَالَ فَأَيُّ شَهْرٍ هَذَا قَالُوا شَهْرٌ حَرَامٌ قَالَ فَإِنَّ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ وَأَعْرَاضَكُمْ عَلَيْكُمْ حَرَامٌ كَحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا فِي بَلَدِكُمْ هَذَا فِي شَهْرِكُمْ هَذَا**)، فَأَعَادَهَا مِرَارًا ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ فَقَالَ: (**اللَّهُمَّ هَلْ بَلَّغْتُ اللَّهُمَّ هَلْ بَلَّغْتُ**). قَالَ ابْنُ عَبَّاس رَضِي اللَّهم عَنْهمَا فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنَّهَا لَوَصِيَّتُهُ إِلَى أُمَّتِهِ فَلْيُبْلِغ الشَّاهِدُ الْغَائِبَ لاَ تَرْجِعُوا بَعْدِي كُفَّارًا يَضْرِبُ بَعْضُكُمْ رِقَابَ بَعْض.

٤. **حرمة البيوت وحق الاستقلال الشخصي**: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدْخُلُواْ بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُواْ وَتُسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَهْلِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾، (النور: ٢٧).

٥. **حرية الرأي والفكر والاعتقاد والتعبير**: وفي هذا يطول الشرح والتفصيل لكثرة ما ورد في ذلك.

٦. **حق المعارضة والنصيحة**: للحاكم والمحكوم، ففي الترمذي (الفتن ٢٠٩٤) عَنْ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيق أَنَّهُ قَالَ أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّكُمْ تَقْرَءُونَ هَذِهِ الآيَةَ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ ۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ ﴾ وَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: (**إِنَّ النَّاسَ إِذَا رَأَوُا الظَّالِمَ فَلَمْ يَأْخُذُوا عَلَى يَدَيْهِ أَوْشَكَ أَنْ يَعُمَّهُمُ اللَّهُ بِعِقَابٍ مِنْهُ**). وفي صحيح مسلم (الإيمان ٨٢) عَنْ تَمِيمٍ الدَّارِيِّ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: (**الدِّينُ النَّصِيحَةُ**) قُلْنَا لِمَنْ قَالَ: (**لِلَّهِ وَلِكِتَابِهِ وَلِرَسُولِهِ وَلأَئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ وَعَامَّتِهِمْ**).

٧. **حق القضاء والقصاص العدل**: كما ذكرنا في ما سبق من آيات وكذلك قوله

تعالى: ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴾، (الأنعام: من الآية١٦٤). ﴿ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴿٣٨﴾ ﴾، (النجم: ٣٨)..

٨. **حق التعلم حتى وقت الحرب**: ﴿ ۞ وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا۟ كَآفَّةً ۚ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴿١٢٢﴾ ﴾، (التوبة: ١٢٢)... وقد حث النبي ﷺ على طلب العلم في عدة أحاديث كما في حديث النسائي في الطهارة (١٥٨) عَنْ عَاصِمٍ أَنَّهُ سَمِعَ زِرَّ بْنَ حُبَيْشٍ يُحَدِّثُ قَالَ أَتَيْتُ رَجُلاً يُدْعَى صَفْوَانَ بْنَ عَسَّالٍ فَقَعَدْتُ عَلَى بَابِهِ فَخَرَجَ فَقَالَ مَا شَأْنُكَ قُلْتُ أَطْلُبُ الْعِلْمَ قَالَ إِنَّ الْمَلاَئِكَةَ تَضَعُ أَجْنِحَتَهَا لِطَالِبِ الْعِلْمِ رِضًا بِمَا يَطْلُبُ فَقَالَ عَنْ أَيِّ شَيْءٍ تَسْأَلُ قُلْتُ عَنِ الْخُفَّيْنِ قَالَ كُنَّا إِذَا كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي سَفَرٍ أَمَرَنَا أَنْ لاَ نَنْزِعَهُ ثَلاَثًا إِلاَّ مِنْ جَنَابَةٍ وَلَكِنْ مِنْ غَائِطٍ وَبَوْلٍ وَنَوْمٍ.

٩. **حق العمل**[1]: فقد دعا الإسلام للعمل لأنه من أهم وسائل الارتزاق، وهو أساس الاقتصاد، والدعامة الأساسية للإنتاج، وهو عبادة من أجلّ العبادات مع النية الخالصة، وكل قطرة عرق تبذل فيه تكون في ميزان المسلم مع صلاته وصيامه وزكاته.. والمسلم لا يعمل من أجل الدنيا والحرص عليها وعلى فتنها ومتاعها، بل لأن العمل أساس كل شيء بل هو أساس التقرب إلى الله تعالى.. يقول العلامة أبو الأعلى المودودي رحمه الله (إذا تعاطيت التجارة والصناعة أو اشتغلت بالخدمة، وأديت ما عليك من الواجب بكل أمانة وصدق اتقاء لله تعالى، ثم كسبت الحلال وتجنبت الحرام، كان كسبك هذا وسعيك في سبيله عبادة لله تعالى، مع أنك ما قمت بكل ذلك إلا لتكسب الرزق لنفسك).. لذلك تجد أن القرآن الكريم قد قرن العمل بالإيمان في آيات كثيرة، فجاء الحث عليه في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ وفي أقوال السلف الصالح. يقول الله تعالى في دعوة صريحة للعمل والارتزاق وطلب الرزق والكسب والسعي لكسب المعاش ﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠﴾ ﴾،

---

(١) هذه النقطة عن مقالة رائعة للأستاذ الفاضل الشيخ الجليل إبراهيم النعمة بمجلة التربية الإسلامية بعنوان العدالة الاجتماعية، السنة ٣٥- العدد ١٢، ص٤١-٤٥، بتصرف.

(الجمعة: ١٠).. ويقول تعالى أيضاً ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولاً فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ﴿١٥﴾ ﴾، (الملك: ١٥).. وكأن القرآن يصرخ بالناس أن اعملوا لتأخذوا ثمرة عملكم، واتعبوا وانصبوا لتجدوا لذة كسبكم. فالسعي إذن هو الوسيلة إلى الكسب.. كما وقرن القرآن الكريم السعي في التجارة بالجهاد في سبيل الله تعالى إعلاء دينه، فيقول تعالى ﴿...وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِى ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ ۙ وَءَاخَرُونَ يُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ... ﴾، (المزمل: من الآية٢٠).. والآيات في هذا المعنى كثيرة، إذ أحصى بعض الباحثين المحققين الآيات القرآنية الداعية إلى العمل والسعي لكسب العيش فكانت تزيد على ١٦٠ آية، والتي ذكرت مطلق العمل بلغت ٣٦٠ آية، كما وردت معاني أخرى للعمل في ١٠٩ آية.

وفي الحديث الشريف نجد الأحاديث الكثيرة التي ترغب بالعمل، منها قوله ﷺ في الحديث الذي أخرجه الإمام أحمد في باقي مسند المكثرين (٨٠٦٠) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ (**خَيْرُ الْكَسْبِ كَسْبُ يَدِ الْعَامِلِ إِذَا نَصَحَ**).. وقوله ﷺ فيما ينقل البخاري رحمه الله تعالى في كتاب البيوع (١٩٣٠) عَنْ خَالِدِ بْنِ مَعْدَانَ عَنِ الْمِقْدَامِ رَضِيَ اللَّهم عَنْهم عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ: (**مَا أَكَلَ أَحَدٌ طَعَامًا قَطُّ خَيْرًا مِنْ أَنْ يَأْكُلَ مِنْ عَمَلِ يَدِهِ وَإِنَّ نَبِيَّ اللَّهِ دَاوُدَ عليه السلام كَانَ يَأْكُلُ مِنْ عَمَلِ يَدِهِ**).. وقوله ﷺ في حديث الطبراني في الأوسط والأصبهاني من حديث ابن عباس رضي الله عنهما: (من أمسى كالاً من عمل يده أمسى مغفوراً له).. وأخرج الترمذي في كتاب البيوع (١١٣٠) عَنْ أَبِي سَعِيدٍ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: (**التَّاجِرُ الصَّدُوقُ الأَمِينُ مَعَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ**).

ويسمو الإسلام بالعمل حتى يجعله بمنزلة الجهاد في سبيل الله، فقد روى كعب ابن عجرة رضي الله عنه قال مر على النبي ﷺ رجل، فرأى أصحاب رسول الله ﷺ من جلده ونشاطه، فقالوا يا رسول الله لو كان هذا في سبيل الله!، فقال ﷺ: (**إن كان خرج يسعى على ولده صغاراً فهو في سبيل الله، وإن كان خرج يسعى على أبوين كبيرين فهو في سبيل الله، وإن كان خرج يسعى على نفسه يعفها فهو في سبيل الله، وإن كان خرج يسعى رياءً أو مفاخرة، فهو في سبيل الشيطان**)، رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح.. وقد نهى النبي ﷺ عن المسألة وحث على القوة الاقتصادية فاليد العليا خير

من السفلى، وخير الصدقة ما كان عن ظهر غنى كما قال ﷺ، وحث على الدقة والإتقان في العمل وقرنه بحب الله للعبد، وحث على إعطاء العامل والأجير أجره بسرعة دون إبطاء.

أما أقوال السلف الصالح رضي الله عنهم في هذا المعنى كثيرة، منها ما يذكره الغزالي رحمه الله تعالى في الإحياء (٦٤/٢) وهو قول سيدنا عمر رضي الله عنه (ما من موضع يأتيني الموت فيه أحب إلي من موطن أتسوق فيه لأهلي: أي أبيع وأشتري)، وقوله رضي الله عنه (إني لأرى الرجل فيعجبني فأسأل: أله حرفة؟، فيقال: لا، فيسقط من عيني).. وقالت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها (المغزل بيد المرأة خير من الرمح في يد المجاهد).. ويقول بعض الصالحين (ليست العبادة أن تصف قدميك — يعني للعبادة- وغيرك يقوت لك: إبدأ برغيفيك فاحرزهما ثم تعبد).. وقال ابن خلكان (لو يعلم المسلمون وأبناء المسلمين ما أعد الله تعالى للمسلمين في إحياء الأرض، ما ترك مسلم بقعة دون إحياء رجاء الثواب المدخر عند الله تعالى).

ويسمو الإسلام بالعمل أيضاً حتى يجعله فوق الكثير من العبادات، فالرجل الذي يعمل ويعول أخاه العابد يصير أعبد منه، وهناك من يفضل الصناع على العباد كالشيخ الشعراني وهو من المتصوفة، ذلك لأن نفع العبادة تعود على صاحبها حسب، بينما نفع الحرف فيعود على الناس جميعهم بالخير.. وإذا كان الإسلام قد دعا إلى العمل فقد نهى عن الجلوس قي البيت من غير عمل، فهذا سيدنا عمر رضي الله عنه يدخل المسجد بعد الصلاة، فيرى فيه قوماً قابعين بدعوى التوكل على الله، فما كان من فاروق الإسلام إلا أن علاهم بدرته، وقال كلمته المشهورة (لا يقعدن أحدكم عن طلب الرزق ويقول: اللهم ارزقني، وقد علم أن السماء لا تمطر ذهباً ولا فضة، وأن الله تعالى يقول ﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠﴾ ﴾.. وهذا الإمام أحمد رضي الله عنه سئل عمن يجلس في بيته من غير عمل بحجة أن رزقه سيأتيه فأجاب السائل (هذا رجل جهل العلم، أما سمع قول النبي ﷺ (..**جعل رزقي تحت ظل رمحي..**)، وقوله حين ذكر الطير (..**تغدو خماصاً وتروح بطاناً**..).

١٠. **حق التجمع لعمل الخير ونبذ التجمع للشر**: ﴿ وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا

تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ﴿٢﴾﴾، (المائدة: من الآية ٢). وهكذا كان العمل الجماعي للخير أمر فيه خير. ففي الترمذي (الفتن ٢٠٩٢) عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ قَالَ رَسُولُ ﷺ: (**يَدُ اللَّهِ مَعَ الْجَمَاعَةِ**). وتعاون الجماعة في الإسلام من أعظم القربات إلى الله تعالى، فعن عَبْدَاللَّهِ بْنَ عُمَرَ رضي الله عنهما أَخْبَرَهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ ((**الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ لا يَظْلِمُهُ وَلا يُسْلِمُهُ وَمَنْ كَانَ فِي حَاجَةِ أَخِيهِ كَانَ اللَّهُ فِي حَاجَتِهِ وَمَنْ فَرَّجَ عَنْ مُسْلِمٍ كُرْبَةً فَرَّجَ اللَّهُ عَنْهُ كُرْبَةً مِنْ كُرُبَاتِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَمَنْ سَتَرَ مُسْلِمًا سَتَرَهُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**))، وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ((**مَنْ نَفَّسَ عَنْ مُؤْمِنٍ كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ الدُّنْيَا نَفَّسَ اللَّهُ عَنْهُ كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَمَنْ يَسَّرَ عَلَى مُعْسِرٍ يَسَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمَنْ سَتَرَ مُسْلِمًا سَتَرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَاللَّهُ فِي عَوْنِ الْعَبْدِ مَا كَانَ الْعَبْدُ فِي عَوْنِ أَخِيهِ...**)).

١١. **ثبت حقوق الزواج والمرأة والميراث ونظام الأسرة**: كما سنفصل لاحقاً.

لقد كثر الحديث هذه الأيام عن حقوق الإنسان في دول العالم وفي دول الغرب بالذات وتحديداً في الولايات المتحدة، فبدأت تسوق هذه الحقوق وكأنها بضاعتها أو أنها وصية عليها، وأصبحت ذريعة في إخضاع من هم دونها وإيذاء الأمم والشعوب تحت دعوى الدفاع عن حقوق الإنسان. لكن الواقع يشير ومنذ ما يربو عن الـ ٥٠ عاماً أن الدول الغربية نفسها هي أول من لا يطبق هذه الحقوق إلا في الأمور التي تفيد مصالح ضيقة لجماعات معينة دون غيرها، والأمثلة في هذا أكثر من أن تذكر. إن الكلام عن حقوق الإنسان لا يأخذ مداه ما لم يكن هناك تنفيذ وتفعيل لتلك الحقوق. فبدون منهجية تفعيل حقوق الإنسان وضماناتها الحقيقية يصبح الكلام عنها والسعي إليها ﴿...كَبَٰسِطِ كَفَّيۡهِ إِلَى ٱلۡمَآءِ لِيَبۡلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦ...﴾، (الرعد: من الآية ١٤).. فلا ينفع الكلام والتأشير والتعداد ما لم تقترن بالتطبيق.

يذهب علماء القانون العام إلى تقسيم حقوق الإنسان إلى مجموعات من أجل تيسير دراستها، فقسموها إلى مجموعة الحريات الشخصية التي تشمل الحرية الشخصية للفرد وحرية التنقل والسكن والمراسلات، ثم تأتي مجموعة حريات الفكر وتشمل حرية العقيدة والتعليم والصحافة والرأي. القسم الثالث هي مجموعات حريات التجمع مثل حرية

التظاهر وتأليف الجمعيات والأحزاب والحركات، ثم مجموعة الحقوق والحريات الاجتماعية مثل حق العمل واختيار نوعه والراحة والفراغ والمعونة عند العجز والمرض والشيخوخة. ثم تأتي مجموعة الحريات الاقتصادية، مثل حق التملك والتجارة والصناعة. ومجموعة الحقوق السياسية مثل حق الانتخاب والترشيح وتقرير المصير... وقد سبق الإسلام وكما فصلنا آنفاً إلى تشريع هذه الحقوق بل أضاف إليها حقوقاً أخرى.

ورغم أن هذه الحقوق والحريات جاءت تعداداً ومناشدة في الإعلان العالمي لحقوق الإنسان غير أنه لا توجد وسائل فعالة لتفعيلها ونقلها من النظرية إلى التطبيق. وفوق ذلك فإنها باتت معرضة لأن تعصف بها العولمة بأبعادها الاقتصادية والاجتماعية والثقافية من جهة أخرى، وتحكّم الدول الكبرى المتغطرسة التي تشن الإرهاب الدولي تحت غطاء الدفاع عن حقوق الإنسان. وبقي ميثاق حقوق الإنسان حبراً على ورق ولم ينفذ منه شيء، فالعالم اليوم يعيش حالة غالب ومغلوب، وتفرد قوة عظمى بالهيمنة على العالم، بل إنها اختطفت الأمم المتحدة وميثاقها وجعلتهما ألعوبة في يدها، فكان حق الفيتو سيئ الصيت لصالح مصالح خاصة ضيقة بمجموعة بشرية معينة قمة الإساءة للمنظومة الدولية وحقوق الإنسان، ثم جاء تشكيل المحكمة الجنائية الدولية ليسهم في تعزيز الظلم والاستبداد في جعل جرائم أميركا وأعوانها في منأى عن المسائلة والعقاب.. لكن الأمر يختلف بالنسبة للشريعة الغراء، التي يستنبط منها نظام كامل متكامل لحقوق الإنسان لا يهتم بالدرج والتعداد، بل جعل حقوق الإنسان منهجاً وفعلاً وتطبيقاً. وحين كانت أوربا تغط في نوم عميق وتعيش قرونها الوسطى المظلمة تحت جبروت القساوسة والنبلاء والسلطات المطلقة للحكام، جاء الإسلام بتصور شامل لحقوق الإنسان، وكانت دولة الإسلام تنشر العدل والإحسان، على أسس ومبادئ شرعية قانونية لم تعرفها البشرية من قبل، وكان الخليفة مقيداً بأحكام الكتاب والسنة، ملتزماً باحترام حقوق الإنسان والأفراد وحرياتهم التي نص عليها الإسلام، ووضع الضمانات التي تكفل حمايتها من كل جور واعتداء.. إن المنهج الإسلامي يقوم على إقامة العدل وتقديمه على السلم عند التقاطع بينهما، ولا يحترم السلم المبني على الظلم، وأعلن القرآن الكريم أن إقرار العدل في الأرض هو أعظم هدف بعد عبادة الله تعالى، والتي هي أعلى غاية على الإطلاق ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ

بِٱلْقِسْطِ ۖ وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٢٥﴾ ﴾، (الحديد: ٢٥). وقوله تعالى ﴿ فَقَٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ﴾، (الحجرات: من الآية٩).. وبعد فإن الإسلام أسس على الأرض أول دولة قانونية تخضع فيه السلطة خضوعاً تاماً لقيود تسمو عليها، لأن مصدرها كتاب الله وأساسها الفكري العقيدة، لا تقبل التلبس بالظلم والباطل وكما ذكرنا في قصة الإمام علي عليه الرضوان والسلام مع اليهودي، ترعى حقوق الإنسان من خلال منظومة كاملة من الأحكام، وحقوق الإنسان في الإسلام ذات صفة دينية تقوم على العقيدة والعبادات، وهي ليست منحة من بشر وإنما هي منح إلهية واجبة على الجميع، ولا مجال فيها لاستثناء أو تمييز ما بين حاكم ومحكوم[1].

منزلة المرأة والأسرة في الإسلام: رغم أننا قد تحدثنا عن بعض أوجه العظمة والروعة في التشريع الإسلامي في الزواج وأسس تكون الأسرة في كتاب الطب النفسي، إلا إننا هنا سنحاول الولوج أكثر في هذا الموضوع.

إن من أشد ما تبتلى به الأمم والمجتمعات والأفراد عدم الاتعاظ بأخطاء وتجارب غيرها من الأمم والمجتمعات البشرية على المستويين الفردي والجماعي، ولذا حفل القرآن الكريم بقصص الأمم السابقة، فأحد أسباب ارتقاء العنصر البشري مقارنة بغيره من المخلوقات تراكم الخبرات بين الأجيال وانتقالها بين الأمم، لكن كثيراً ما يتخلى الإنسان عن هذه الميزة من تلقاء نفسه فيكرر أخطاء غيره ويطيل فترة تطوره وتقدمه. ومن الأخطاء التي ما زالت تعاني منها الأمة ومجتمعاتها استيراد أنماطاً اجتماعية واقتصادية غربية ذات قضايا واهتمامات مختلفة تماماً عن واقعنا وحاجاتنا. لقد عشنا قروناً عديدة لا نجادل في مسلّمة جاءت في كتاب الله تعالى تقول: ﴿...وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ ... ﴾، فلم يكن رجالنا يرون في ذلك ميزة لهم —إلا حالات شاذة لا يقاس عليها—، ولم تكن نساؤنا يرين فيها إقلالاً من شأنهن أو حطاً من قدرهن، بل هي توصيف لواقع وفطرة نراها

---

(١) عن مقالة للأستاذ الدكتور أكرم عبد الرزاق المشهداني بمجلة التربية الإسلامية بعنوان حقوق الإنسان بين الشريعة والقوانين الوضعية، السنة ٣٥– العدد ١٢، ص٤٩–٥٣، بتصرف.

شاخصة ليس فقط بين بني البشر بل بين الذكر والأنثى لدى مخلوقات الله تعالى مما نرى حولنا. لكن هذا الواقع تغير لا بسبب اكتشاف جديد وضعنا أيدينا عليه أو مشكلة نجمت عن هذه المسلّمة، بل لأن تياراً في بعض بلدان الغرب سعى لأن يكون عكس ذلك بدعوى أن المرأة مظلومة لأنها لم تعط حقوقها عبر التاريخ، فجاءت استجابات مجتمعاتنا لهذه الدعاوى سريعة دون تمحيص أو تروي لمعرفة الحقيقة وإعطاء كل ذي حق حقه، فالمرأة في الغرب تخرّج إمرأة تقود طائرة حربية، فنفعل حتى ولو كنا لا نقاتل أعدائنا، وهم يعملون فرق رياضية نسوية في الجمباز الخليع فنفعل ولكن بالبنطال، والمرأة عندهم تلبس الخليع لموضة خريف عام كذا فنفعل ونقلد كالببغاوات والأرجوزات، وغير ذلك من الأمثلة التي تنم عن عقد نفسية مترسخة في كثير ممن ينتمون لهذه الأمة بالاسم فقط، اسمها الغرب.

إن حقيقة كون الجنسين متساويين في كل شيء وبشكل مطلق تم ترويجها في السنين الأخيرة من حياة البشرية، فدعوى تحرير المرأة ودعوى المساواة وإنقاذ الجنس اللطيف من همجية الرجال وتسلطهم جاءت متأخرة وبالتحديد في القرنين الماضيين فقط. فلم نسمع في تاريخ الحضارات جميعاً صدى لهذه الدعوة، لا لأن الرجل كان يضطهد المرأة ويبيعها في سوق النخاسة، أو يتمتع بها ويرميها، أو لأسباب أخرى، وإنما لأن هذه الدعوة هي باختصار كلمة حق يراد بها باطل.

فحقيقة أن المرأة مضطهدة في كثير من حقوقها لا ينكرها عاقل، ولكن المشكلة هذا التكالب والثورة غير المنضبطة في سبيل تحقيق ما يزعم أنه تطبيق عادل لما يضمن للمرأة حقوقها المتكافئة مع حقوق الرجل بما يجعل المجتمع يسير في طريق الخير والمساواة، ولكن الحقيقة أن المسألة أخطر من ذلك بكثير.

لقد أعطى الإسلام حقوقاً للمرأة وتكريماً لم يشهد التاريخ البشري مثيلاً له من قبل، فقد كانت البنت محتقرة، ومحل سخرية وتذمر لأهلها في أغلب المجتمعات البشرية قبل الإسلام، ولا يقتصر ذلك على عرب الجزيرة كما يظن البعض وإن كان يبدو أن الأمر لدى العرب يأخذ منحى أكبر، فقد كانت توأد وتدفن حية لمجرد كونها أنثى، فكان هذه الأفعال وغيرها من أشد الأفعال التي ردّها الإسلام وحرمّها بقوله تعالى ﴿ أَفَأَصْفَىٰكُمْ رَبُّكُم بِٱلْبَنِينَ وَٱتَّخَذَ مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنَٰثًا ۚ إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾ ﴾،

(الإسراء: ٤٠).. ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ ۚ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾، (النحل).. ﴿ أَمِ ٱتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَىٰكُم بِٱلْبَنِينَ ﴿١٦﴾ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿١٧﴾ ﴾ (الزخرف).. ﴿ وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ﴿٨﴾ بِأَىِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ ﴿٩﴾ ﴾، (التكوير).

وهكذا نزل القرآن الكريم ليعطي المرأة المنزلة الراقية التي تستحق، فأفرد لها سورة باسمها (سورة النساء) والتي ثبتت حقيقة مهمة في بداياتها وهي مساواة المرأة للرجل في النشأة والخلق والعبودية لله تعالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾ ﴾، (النساء:١). فكلمة زوج تعني المقابلة، فللزوجية في القرآن عدة معاني وهنا تعني التقابل أو التكامل أو المساواة وليس التضاد... كذلك جمع الله تعالى بين الجنسين في مهمة استخلاف الله البشر على إدارة الأرض وإصلاحها وهو يقصد جنس البشر ذكراً كان أو أنثى (البقرة: ٣٠)، وسوّى بين الجنسين في التكريم والتفضيل الذي خصّ به الإنسان (الإسراء: ٧٠)، وساوى بينهما في الخلق من طين (ص: ١٦)، ونفى الإسلام عن المرأة مسؤولية الخطيئة الأصلية. كما ركزت الآيات والأحاديث على المساواة في العمل ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾ ﴾، (النحل:٩٧). هنا تجدر الإشارة إلى أن تقديم الذكر على الأنثى لا يفيد التفضيل كما يظن البعض، فكما يعلم من قواعد اللغة والأحكام الشرعية أن التغليب هنا يفيد المساواة، فالقرآن كان يمكن أن يشير إلى النساء بصيغة جمع المذكر الذي يفهم على أنه يعني الإناث أيضاً، وهذا يعرف لغة بالتغليب، ولكن القرآن فضل الوضوح منعاً للبس وتأكيداً للمساواة. كذلك ساوى الشرع الحنيف بين الجنسين في اكتساب الأجر ﴿ وَلَا تَتَمَنَّوْا۟ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبُوا۟ ۖ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبْنَ ۚ وَسْـَٔلُوا۟ ٱللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴾، (النساء:

٣٢). كما ساوى الإسلام بين الجنسين في الولاية وتولي المسؤوليات كالدعوة إلى الله وعمل الخير والنهي عن الشر والجهاد وغير ذلك من المسؤوليات التي تقيم المجتمع والدولة بقوله تعالى: ﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾ ﴾، (التوبة: ٧١).

وقد كانت السيدة عائشة رضي الله عنها من كبار رواة الحديث وعنها قال عروة بن الزبير (ما رأيت أحداً أعلم بفقه أو طب أو شعر من عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها). ويروى أن سيدنا عمر بن الخطاب ﷺ ولّى (أم الشفاء بنت عبد الله) على مرفق اقتصادي مهم هو حسبة السوق. كما أن سمراء بنت نهيك الأسدية كانت تمر بالسوق تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر. وهناك أميرات ولّين الحكم في التاريخ الإسلامي كشجرة الدر وقت المماليك في مصر.

كما ساوى الإسلام الجنسين بمسؤولية تحمل النتائج بغض النظر عن الفاعل: ﴿ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴿٣٨﴾ ﴾، (المدثر: ٣٨).. وأخرج البخاري في صحيحه(كتاب الجمعة ٨٤٤) عَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُم عَنْهمَا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: **(كُلُّكُمْ رَاعٍ وَكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ الإِمَامُ رَاعٍ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ وَالرَّجُلُ رَاعٍ فِي أَهْلِهِ وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ وَالْمَرْأَةُ رَاعِيَةٌ فِي بَيْتِ زَوْجِهَا وَمَسْئُولَةٌ عَنْ رَعِيَّتِهَا وَالْخَادِمُ رَاعٍ فِي مَالِ سَيِّدِهِ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ وَكُلُّكُمْ رَاعٍ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ)**.

أما عن العقوبة لجرم كالسرقة فقد قدم الرجل السارق على المرأة السارقة لأنه الأقدر على ذلك: ﴿ وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓا۟ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءًۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٣٨﴾ ﴾، (المائدة: ٣٨). بينما في الزنا قدمت المرأة الزانية في العقوبة على الرجل لأن بيدها إتمام الجرم من عدمه، فهي تستطيع منع الجرم إن أرادت حتى وإن أراد الرجل الزاني ﴿ ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِى فَٱجْلِدُوا۟ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِاْئَةَ جَلْدَةٍ ۖ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِى دِينِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾ ﴾، (النور: ٢). والقاعدة الفقهية في هذا الباب الذي يعنى بالعقوبات

والمعروف قانوناً بالمساواة القانونية بين الجنسين تقول (النساء شقائق الرجال). ولكن الإسلام غلّظ العقوبة في الدنيا والآخرة على الذين يدّعون أمر الزنا على المرأة دون بينة ويتهمونها جزافاً وبهتاناً، إذ عليهم بأربعة شهود على دقة ادعاءهم: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا۟ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَٰنِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا۟ لَهُمْ شَهَٰدَةً أَبَدًا ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٤﴾ ﴾، (النور: ٤).. ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْغَٰفِلَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ لُعِنُوا۟ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ ﴾، (النور: ٢٣).

أما في المعاملة فقد أمر الشرع الحنيف الرجال بحسن المعاملة مع النساء، فها هو رسول الله ﷺ يوصينا بالنساء في كل الأوقات، بل وحتى قبل وفاته ﷺ كان آخر كلامه أن استوصوا بالنساء خيراً، وكان أحن الناس على أزواجه، ففي الحديث الذي أخرجه الترمذي (المناقب ٣٨٣٠) عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: (**خَيْرُكُمْ خَيْرُكُمْ لأَهْلِهِ وَأَنَا خَيْرُكُمْ لأَهْلِي**).. وفي بعض أسفاره كان يأخذ إحدى زوجاته ﷺ فحصل أن ساق الحادي الجمل بقوة فوبخه ﷺ على هذا الفعل وأمره أن يرفق بالقوارير أي بالنساء، وسماهنّ كذلك لرقتهن، فقد أخرج البخاري في الأدب (٥٧٤١) عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ كَانَ النَّبِيُّ ﷺ فِي مَسِيرٍ لَهُ فَحَدَا الْحَادِي فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: (**ارْفُقْ يَا أَنْجَشَةُ وَيْحَكَ بِالْقَوَارِيرِ**). والمتتبع لسيرة المصطفى ﷺ وسير الصحابة والتابعين يجد القصص الرائعة التي تذرف لها الدموع من فرط المحبة والإخلاص وحسن التعامل والمودة بين الزوجين في البيت المسلم وبين الحاكم والمحكوم في حالة الدولة والقضاء.

أما قدسية الزواج فقد كرّم الإسلام الزوجة أيما تكريم منذ خطبتها وحتى أقرب الأجلين الموت أو التفريق إن حصل وما يتخلل ذلك من معاملات، وفي كلتا الحالتين لا يجوز للزوج أن يأخذ من الزوجة ما قدمه لها إلا إذا أتت بفاحشة ﴿ وَإِنْ أَرَدتُّمُ ٱسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا۟ مِنْهُ شَيْـًٔا ۚ أَتَأْخُذُونَهُۥ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٢٠﴾ ﴾، (النساء: ٢٠). وأما الزوجة الصالحة فقد جعلت أعظم كنز يعطى للرجل في دنياه. ففي سنن أبي داود (الزكاة ١٤١٧) عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما قَالَ: لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ ﴿ وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ.. ﴾، قَالَ كَبُرَ ذَلِكَ عَلَى الْمُسْلِمِينَ فَقَالَ عُمَرُ ﷺ أَنَا أُفَرِّجُ عَنْكُمْ فَانْطَلَقَ فَقَالَ يَا نَبِيَّ اللَّهِ إِنَّهُ كَبُرَ عَلَى

أَصْحَابِكَ هَذِهِ الآيَةُ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: **(إِنَّ اللَّهَ لَمْ يَفْرِضِ الزَّكَاةَ إِلاَّ لِيُطَيِّبَ مَا بَقِيَ مِنْ أَمْوَالِكُمْ وَإِنَّمَا فَرَضَ الْمَوَارِيثَ لِتَكُونَ لِمَنْ بَعْدَكُمْ)**، فَكَبَّرَ عُمَرُ ثُمَّ قَالَ لَهُ **(أَلاَ أُخْبِرُكَ بِخَيْرِ مَا يَكْنِزُ الْمَرْءُ الْمَرْأَةُ الصَّالِحَةُ إِذَا نَظَرَ إِلَيْهَا سَرَّتْهُ وَإِذَا أَمَرَهَا أَطَاعَتْهُ وَإِذَا غَابَ عَنْهَا حَفِظَتْهُ)**.

أما تعدد الزوجات والتي أخذها الغرب حجة على الإسلام كما توهموا، فهي اختيارية وشرعت لأسمى غرض وهو الخوف على النساء من الضياع خصوصاً أولاء الأطفال منهن والذين لا يجدون من يعيلهن، فهي اختيار وبشروط مهمة أهمها إقامة العدل بينهن فإذا تعذر ذلك فزوجة واحدة تكفي ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا۟ فِى ٱلْيَتَٰمَىٰ فَٱنكِحُوا۟ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ ۖ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ فَوَٰحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَلَّا تَعُولُوا۟ ﴿٣﴾ ﴾، (النساء: ٣). تدبر الآية وانظر أنها شرطية ابتدأت بـ (وإن) أداة شرط. أي إن خفتم ألا تعطوا اليتامى حقوقهم فلكم أن تتزوجوا من أمهاتهن لترعوهم، ثم تعود الآية لتقول، فـ (إن) مرة أخرى خفتم ألا تعدلوا بين النساء فزوجة واحدة فقط. ويدل على صعوبة القدرة على العدل بين النساء قوله تعالى ﴿ وَلَن تَسْتَطِيعُوٓا۟ أَن تَعْدِلُوا۟ بَيْنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ ۖ فَلَا تَمِيلُوا۟ كُلَّ ٱلْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَٱلْمُعَلَّقَةِ ۚ وَإِن تُصْلِحُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٢٩﴾ ﴾، (النساء: ١٢٩). وكان رسول الله ﷺ دائماً ما يطبق العدل بين الزوجات في الأمور الدنيوية والمعيشية فيوزع عليهن الرزق بالتساوي وكذلك كان يعطيهم حق الزوجية دون تمييز، أما في الأمور العاطفية فقد كانت السيدة عائشة رضي الله عنها أحب زوجاته إلى قلبه وأمور القلب ليس للإنسان عليها من سلطان. فقد أخرج الترمذي (النكاح ١٠٥٩) عَنْ عَائِشَةَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ يَقْسِمُ بَيْنَ نِسَائِهِ فَيَعْدِلُ وَيَقُولُ: **(اللَّهُمَّ هَذِهِ قِسْمَتِي فِيمَا أَمْلِكُ فَلاَ تَلُمْنِي فِيمَا تَمْلِكُ وَلاَ أَمْلِكُ)**، قَالَ أَبو عِيسَى حَدِيثُ عَائِشَةَ هَكَذَا رَوَاهُ غَيْرُ وَاحِدٍ مُرْسَلاً. وَمَعْنَى قَوْلِهِ لاَ تَلُمْنِي فِيمَا تَمْلِكُ وَلاَ أَمْلِكُ إِنَّمَا يَعْنِي بِهِ الْحُبَّ وَالْمَوَدَّةَ كَذَا فَسَّرَهُ بَعْضُ أَهْلِ الْعِلْمِ.

ولك أخي الكريم أن تعرف سماحة الإسلام في التشريع الذي ينظر لكل الناس صغيرهم وكبيرهم ذكرهم وأنثاهم ليحقق العدل. فكل تلك التفاصيل لتبين لك عظمة الزواج ومكانة الزوجة، كيف لا وقد جعلت وثيقة الزواج ميثاقاً غليظاً يشبه الميثاق

الغليظ الذي أعطي لأولي العزم من الأنبياء عليهم السلام وكما فصلنا في كتاب الطب.

ولقد ذكرنا بعض الحالات التي ساهمت فيها المرأة في الحرب والسلم والتمريض في كتاب الطب، ونضيف أن الإسلام أعطى حقاً للمرأة في أمور عديدة اقتصادية واجتماعية وعلمية وغيرها. ولكن الشرع الحنيف ثبّت حقائق واضحة لا يمكن تجاوزها، ألا وهي أن الرجل أفضل من المرأة لا لغرض التفضيل المتعصب، ولكن لأن الرجل يمتلك من المقومات الخلقية والخلقية ما يجعله كذلك.

على أن الجهال وأصحاب الأغراض والمصالح الضيقة والفهم القاصر للدين استغلوا هذه الحقيقة فقدموا نماذج صارخة لظلم المرأة واستغلالها السيئ عبر التاريخ قديمه وحديثه، فحصلت ردة فعل طبيعية للمرأة معتقدة أن الثورة على التقاليد الشرعية ونفي الدين وإبعاد الشريعة عن واقعنا هو الحل، فتسممت الأفكار بدعاوى الغرب في تحرير المرأة، والتي جاءت بعد عقود الظلم التي عاشتها هناك.

يبين الله تعالى أن للذكر أحقية عن الأنثى من أوجه عدة لا لتحقير المرأة بل لتكريمها. فكما أن الملك أو المسؤول يحمى من قبل أناس متخصصون أقوى منه خوفاً من غدر الغادرين، وكما أن الجواهر تحمى في زجاج خاص خوفاً من السراق، كذلك المرأة جعلت بهذه المواصفات كي تكرّم وتحمى لأنها لا تقدر على معترك الحياة القاسية لوحدها دون رجل يقوم عليها ويحميها ويوفر لها سبل العيش الرغيد، تماماً كما أن الرجل القوي لا يقدر على هذه الحياة بدون المرأة..

وهنا نريد أن نعكس الحالة فنقول مثلاً لماذا أحل الله الفضة للمؤمنين من الذكور في الدنيا وحرّم الذهب، بينما أحلهما للإناث، هل ليحقّر الرجال مثلاً دون النساء، أم في المسألة اعتبارات أخرى؟!.

لقد أثبتت البحوث الطبية أن الذهب يؤثر على كريات الدم الحمراء للرجال دون النساء بسبب وجود طبقة شحمية بين الجلد واللحم للنساء تمنع الإشعاعات الناتجة من معدن الذهب. والذي يبلغ عمر النصف فيه ٢,٧ يوماً، بينما لا تؤثر إشعاعات معدن الفضة على الرجال والنساء، كما أثبتت البحوث الطبية العديدة أن إشعاعات الذهب لها دور سلبي على الهرمونات الجنسية الذكرية. وعن كتاب أطلس الكون الذري للدكتور أنيس الراوي، فإن جسم الإنسان لا يحوي على الفضة في تركيبه بينما يحوي

الذهب واليورانيوم والحديد وأغلب العناصر الأخرى، كما وأن الفضة والذهب كأوانٍ يتفاعلان مع مركبات الطعام لتكوين مركبات تتفاعل مع الأنزيمات البشرية فتكون مادة تؤذي صحة الجسم.. وهذا بالضبط ما اخبرنا به ﷺ بقوله ((**الذهب والحرير حرام على ذكور أمتي حل لإناثها**))[1]، وقد نهانا ﷺ عن الشرب بآنية الذهب والفضة ولبس الحرير والديباج وقال ((**هي لهم في الدنيا ولكم في الآخرة**))[2]، كما وأن الفضة أرخص بكثير من الذهب وهي تلائم حالة الأمة الوسط التي ارادها الله لأمتنا. وهذا ما يثبت لنا مدى الفائدة العظيمة من تحريم الذهب على الرجال من أمة سيدنا محمد ﷺ بسببها وكم أن الإسلام يراعي الناس بكل أحوالهم، فما من تحريم لشيء إلا وجاء بسبب فائدة إما صحية أو اجتماعية أو نفسية أو غيرها.

إذن، هنا اختصاص لحالة عامة إذ أن التحريم للذهب جاء للذكور لأسباب عدة منها صحية ومنها نفسية واجتماعية وغيرها وليس تحقيراً لهم بل تكريماً وفائدة، فنفس الكلام ينطبق على التفاصيل الشرعية في حقوق المرأة وواجباتها.

هذه الحقيقة تؤكد أن تكريم المرأة وعلو شأنها في الإسلام جاء لعظمة دورها في المجتمع الإسلامي، وكما أن الذهب يتعب لاستحصاله فهو إما في باطن الأرض أو عند الجواهري فلا يستحصل إلا بمال كثير فكذلك المرأة المسلمة كنز لا يرى إلا لصاحبه ولا يستحصل إلا بتعب وثمن غال وكل من يريد أن يغير هذه السنة الا وهي كرامة المرأة وسترها وحجابها وعدم ظهور زينتها إلا لزوجها والمحارم فقد ساهم في تغيير سنة الله في خلقه وتناغم مخلوقاته ﴿ وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيۡكُمۡ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُواْ مَيۡلًا عَظِيمًا ﴿٢٧﴾ ﴾، (النساء: ٢٧)، والله أعلم[3].

جاءت الآيات التي تؤكد على حقيقة قوامة الذكر على الأنثى كما يلي:

١. **في المجال القضائي:** ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيۡنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى

---

(١) أخرجه النسائي (الزينة ٥١٤٤)، أبو داود (اللباس ٤٠٥٧) ابن ماجة (اللباس ٣٥٩٥).

(٢) أخرجه البخاري (كتاب الأتربة –٥٦٣٢) مسلم (اللباس والزينة –٢٠٦٧) والترمذي والنسائي وأبو داود وابن ماجة.

(٣) المنظار الهندسي للقرآن الكريم، للمؤلف، ص (٥٧٢–٥٨٢)، بتصرف.

فَٱكْتُبُوهُ ۚ وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌۢ بِٱلْعَدْلِ ۚ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَن يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ ٱللَّهُ ۚ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْـًٔا ۚ فَإِن كَانَ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُۥ بِٱلْعَدْلِ ۚ وَٱسْتَشْهِدُوا۟ شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ ۖ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَٱمْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ أَن تَضِلَّ إِحْدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَىٰهُمَا ٱلْأُخْرَىٰ ۚ وَلَا يَأْبَ ٱلشُّهَدَآءُ إِذَا مَا دُعُوا۟ ۚ وَلَا تَسْـَٔمُوٓا۟ أَن تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰٓ أَجَلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَٰدَةِ وَأَدْنَىٰٓ أَلَّا تَرْتَابُوٓا۟ ۖ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا ۗ وَأَشْهِدُوٓا۟ إِذَا تَبَايَعْتُمْ ۚ وَلَا يُضَآرَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ ۚ وَإِن تَفْعَلُوا۟ فَإِنَّهُۥ فُسُوقٌۢ بِكُمْ ۗ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٨٢﴾ ﴾، (البقرة: ٢٨٢).. ﴿ يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِىٓ أَوْلَٰدِكُمْ ۖ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۚ فَإِن كُنَّ نِسَآءً فَوْقَ ٱثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ ۖ وَإِن كَانَتْ وَٰحِدَةً فَلَهَا ٱلنِّصْفُ ۚ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا ٱلسُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُۥ وَلَدٌ ۚ فَإِن لَّمْ يَكُن لَّهُۥ وَلَدٌ وَوَرِثَهُۥٓ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ ٱلثُّلُثُ ۚ فَإِن كَانَ لَهُۥٓ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ ٱلسُّدُسُ ۚ مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِى بِهَآ أَوْ دَيْنٍ ۗ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا ۚ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١١﴾ ﴾، (النساء: ١١).. في هذه الآيات المباركات دلائل واستنباطات عديدة منها اقتصادية في أهمية الاكتتاب والعقد والشهود، ومنها اجتماعية لغرض تثبيت الحقوق لكل الأطراف في الميراث والعقود، ومنها حقائق علمية في أن حقل الذاكرة في دماغ الرجل أكبر منه عند الأنثى لذلك يتم الاعتماد في الشهادة على الرجال أكثر من النساء، وقد فصلنا في هذا في كتاب الجملة العصبية.

٢. **في المجال الفيزيائي والجسماني:** ﴿ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّى وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ ۖ وَإِنِّى سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّىٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٣٦﴾ ﴾، (آل عمران: ٣٦).. ﴿ ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَآ أَنفَقُوا۟ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ ۚ فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُ ۚ وَٱلَّٰتِى تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَٱهْجُرُوهُنَّ فِى ٱلْمَضَاجِعِ وَٱضْرِبُوهُنَّ ۖ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا۟ عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيًّا

كَبِيرًا ﴿٣٤﴾﴾، (النساء: ٣٤).. تبين الآيات أن الرجال أكثر قوة في أمر العمل والمشاق الجسمانية من المرأة. وكان لهذا التفضيل السبب الرئيس الذي جعل للرجل القيومية على الأسرة.

معنى القوامة في الإسلام: لكي نفهم المسألة علينا فهم الآية من خلال علوم القرآن الكريم من حيث الإعراب وسبب النزول والتفسير لغة واصطلاحاً ومعنى. وذلك من خلال مراجعتنا لما ذكرته المصادر التالية:

١. التبيان في إعراب القرآن (ج: ١ ص: ١٧٨): قوله تعالى قوامون على النساء على متعلقة بقوامون وبما متعلقة به أيضا ولما كان الحرفان بمعنيين جاز تعلقهما بشيء واحد "فعلى" على هذا لها معنى غير معنى الباء ويجوز أن تكون الباء في موضع الحال فتتعلق بمحذوف تقديره مستحقين بتفضيل الله إياهم وصاحب الحال الضمير في قوامون وما مصدرية فأما ما في قوله وبما أنفقوا فيجوز أن تكون مصدرية فتتعلق من بأنفقوا ولا حذف في الكلام ويجوز أن تكون بمعنى الذي والعائد محذوف أي وبالذي أنفقوه فعلى هذا يكون من أموالهم حالا فالصالحات مبتدأ قانتات حافظات خبران عنه وقرىء فالصوالح قوانت حوافظ وهو جمع تكثير دل على الكثرة وجمع التصحيح لا يدل على الكثرة بوضعه وقد استعمل فيها كقوله تعالى وهم في الغرفات آمنون بما حفظ الله في ما ثلاثة أوجه بمعنى الذي ونكرة موصوفة والعائد محذوف على الوجهين ومصدرية وقرىء بما حفظ الله بنصب اسم الله وما على هذه القراءة بمعنى الذي أو نكرة والمضاف محذوف والتقدير بما حفظ أمر الله أو دين الله وقال قوم هي مصدرية والتقدير حفظهن الله وهذا خطأ لأنه إذا كان كذلك خلا الفعل عن ضمير الفاعل لأن الفاعل هنا جمع المؤنث وذلك يظهر ضميره فكان يجب أن يكون بما حفظهن الله وقد صوب هذا القول وجعل الفاعل فيه للجنس وهو مفرد مذكر فلا يظهر له ضمير واللاتي تخافون مثل قوله واللاتي يأتين الفاحشة ومثل واللذان يأتيانها وقد ذكروا واهجروهن في المضاجع في وجهين أحدهما هي ظرف للهجران أي اهجروهن في مواضع الاضطجاع أي اتركوا مضاجعهن دون ترك مكالمتهن.

٢. العجاب في بيان الأسباب (ج: ٢ ص: ٨٦٨- ٨٦٩): قوله تعالى الرجال (قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض)، الآية. أخرج ابن أبي حاتم من

طريق أشعث بن عبد الملك عن الحسن قال جاءت امرأة إلى النبي تستعدي على زوجها أنه لطمها فقال رسول الله القصاص فأنزل الله تعالى الرجال قوامون على النساء الآية فرجعت بغير قصاص وأخرجه عبد بن حميد وابن المنذر من طريق حماد بن سلمة وأخرجه الواحدي من طريق هشام كلاهما عن يونس وأخرج ابن المنذر من طريق جرير بن حازم كلاهما عن الحسن أن رجلا لطم امرأته فخاصمته إلى النبي فجاء أهلها معها فذكر نحوه وفيه فجعل رسول الله يقول القصاص القصاص ولا يقضي قضاء فأنزل الله هذه الآية فقال النبي أرادوا أمرا وأراد الله غيره ونقل الثعلبي عن الكلبي قال نزلت في سعد بن الربيع وامرأته عميرة بنت محمد بن مسلمة وذكر نحو القصة الآتية عن مقاتل... ونقل عن أبي روق أنها نزلت في جميلة بنت عبد الله بن أبي وزوجها ثابت بن قيس بن شماس كانت نشزت عليه فلطمها فاستعدت عليه فنزلت قلت وقد تقدم ذكر هذه الأخيرة في تفسير البقرة في قوله تعالى فيما افتدت به وكان ذلك الخلع أول خلع في الإسلام وقال مقاتل نزلت في سعد بن الربيع كان من النقباء وامرأته حبيبة بنت زيد بن أبي زهير وهما من الأنصار وذلك أنها نشزت عليه فلطمها فانطلق أبوها معها إلى رسول الله فقال أفرشته كريمتي فلطمها فقال لتقتص من زوجها فانصرفت مع أبيها لتقتص منه فقال النبي ارجعا هذا جبريل أتاني فأنزل الله تعالى الرجال قوامون على النساء الآية، فقال النبي أردنا أمرا وأراد الله أمرا والذي أراد الله خير ورفع القصاص وقال عبد الرزاق عن معمر عن قتادة صك رجل امرأته فأتت النبي فأراد أن يقيدها منه فنزلت وأخرجه عبد بن حميد من رواية سعيد بن أبي عروبة عن قتادة بلغنا فذكر.

٣. لسان العرب (ج: ١٢ ص: ٤٩٧، ٥٠٣- ٥٠٥): والقامة جمع قائم عن كراع قال ابن بري رحمه الله قد ترتجل العرب لفظة قام بين يدي الجمل فيصير كاللغو ومعنى القيام العزم كقول العماني الراجز للرشيد عندما هم بأن يعهد إلى ابنه قاسم

قل للإمام المقتدى بأمه ما قاسم دون مدى ابن أمه فقد رضيناه فقم فسمه

أي فاعزم ونص عليه، ومنه قوله تعالى ﴿ وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ ﴾ أي لما عزم وقوله تعالى ﴿ إِذْ قَامُوا۟ فَقَالُوا۟ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ أي عزموا فقالوا قال وقد يجيء القيام بمعنى المحافظة والإصلاح ومنه قوله تعالى ﴿ ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى

ٱلنِّسَآءِ ﴾ وقوله تعالى ﴿ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِمًا ﴾ أي ملازما محافظا ويجيء القيام بمعنى الوقوف والثبات. يقال للماشي قف لي أي تحبس مكانك حتى آتيك وكذلك قم لي بمعنى قف لي وعليه فسروا قوله سبحانه ﴿ وَإِذَآ أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا۟ ﴾ قال أهل اللغة والتفسير قاموا هنا بمعنى وقفوا وثبتوا في مكانهم غير متقدمين ولا متأخرين ومنه التوقف في الأمر وهو الوقوف عنده من غير مجاوزة له ومنه الحديث المؤمن وقاف متأن. ومنه قامت الدابة إذا وقفت عن السير وقام عندهم الحق أي ثبت ولم يبرح ومنه قولهم أقام بالمكان هو بمعنى الثبات. ويقال قام الماء إذا ثبت متحيرا لا يجد منفذا وإذا جمد أيضا، وقامت السوق إذا نفقت ونامت إذا كسدت وسوق قائمة نافقة وسوق نائمة كاسدة وقاومته قواما قمت معه صحت الواو في قوام لصحتها في قاوم والقومة ما بين الركعتين من القيام قال أبو الدقيش أصلي الغداة قومتين والمغرب ثلاث قومات وكذلك قال في الصلاة. وقام الرجل على المرأة مانها وإنه لقوام عليها مائن لها وفي التنزيل العزيز ﴿ ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ ﴾ وليس يراد ههنا والله أعلم القيام الذي هو المثول والتنصب وضد القعود إنما هو من قولهم قمت بأمرك، فالرجال متكفلون بأمور النساء معنيون بشؤونهن وكذلك قوله تعالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ ﴾ أي إذا هممتم بالصلاة وتوجهتم إليها بالعناية وكنتم غير متطهرين فافعلوا كذا. وأقام الصلاة إقامة وإقاما فإقامة على العوض وإقاما بغير عوض وفي التنزيل ﴿ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ ومن كلام العرب ما أدري أأذن أو أقام يعنون أنهم لم يعتدوا أذانه أذانا ولا إقامته إقامة لأنه لم يوف ذلك حقه فلما ونى فيه لم يثبت له شيئا منه إذ قالوها بأو ولو قالوها بأم لأثبتوا أحدهما لا محالة وقالوا قيم المسجد وقيم الحمام قال ثعلب قال ابن ماسويه ينبغي للرجل أن يكون في الشتاء كقيم الحمام وأما الصيف فهو حمام وجمع قيم عند كراع قامة قال ابن سيده وعندي أن قامة إنما هو جمع قائم على ما يكثر في هذا الضرب والملة القيمة المعتدلة والأمة القيمة كذلك وفي التنزيل ﴿ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ ﴾ أي الأمة القيمة وقال أبو العباس والمبرد ههنا مضمر أراد ذلك دين الملة القيمة فهو نعت مضمر محذوف وقال الفراء هذا مما أضيف إلى نفسه لاختلاف لفظيه قال الأزهري والقول ما قالا وقيل الهاء في القيمة للمبالغة ودين قيم كذلك وفي التنزيل

العزيز ﴿ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ ﴾ وقال اللحياني وقد قرىء دينا قيما أي مستقيما قال أبو إسحاق القيم هو المستقيم والقيم مصدر كالصغر والكبر إلا أنه لم يقل قوم مثل قوله ﴿ لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا ﴾ لأن قيما من قولك قام قيما وقام كان في الأصل قوم أو قوم فصار قام فاعتل قيم وأما حول فهو على أنه جار على غير فعل وقال الزجاج قيما مصدر كالصغر والكبر وكذلك دين قويم وقوام ويقال رمح قويم وقوام قويم أي مستقيم، قال إلا أن القيم مصدر بمعنى الاستقامة... وفي الحديث تسوية الصف من إقامة الصلاة أي من تمامها وكمالها قال فأما قوله قد قامت الصلاة فمعناه قام أهلها أو حان قيامهم وفي حديث عمر في العين القائمة ثلث الدية هي الباقية في موضعها صحيحة وإنما ذهب نظرها وإبصارها وفي حديث أبي الدرداء رب قائم مشكور له ونائم مغفور له أي رب متهجد يستغفر لأخيه النائم فيشكر له فعله ويغفر للنائم بدعائه وفلان أقوم كلاما من فلان أي أعدل كلاما والقوم الجماعة من الرجال والنساء جميعا وقيل هو للرجال خاصة دون النساء ويقوي ذلك قوله تعالى ﴿ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُوا۟ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ ﴾ أي رجال من رجال ولا نساء من نساء فلو كانت النساء من القوم لم يقل ولا نساء من نساء، وقوم كل رجل شيعته وعشيرته وروي عن أبي العباس النفر والقوم والرهط هؤلاء معناهم الجمع لا واحد لهم من لفظهم للرجال دون النساء وفي الحديث إن نساني الشيطان شيئا من صلاتي فليسبح القوم وليصفق النساء قال ابن الأثير القوم في الأصل مصدر قام ثم غلب على الرجال دون النساء ولذلك قابلهن به وسموا بذلك لأنهم قوامون على النساء بالأمور التي ليس للنساء أن يقمن بها الجوهري القوم الرجال دون النساء لا واحد له من لفظه قال وربما دخل النساء فيه على سبيل التبع لأن قوم كل نبي رجال ونساء والقوم يذكر ويؤنث لأن أسماء الجموع التي لا واحد لها من لفظها إذا كانت للآدميين تذكر وتؤنث مثل رهط ونفر وقوم قال تعالى ﴿ وَكَذَّبَ بِهِۦ قَوْمُكَ ﴾ فذكر وقال تعالى ﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٠٥﴾ ﴾ فأنث قال فإن صغرت لم تدخل فيها الهاء وقلت قويم ورهيط ونفير وإنما يلحق التأنيث فعله ويدخل الهاء فيما يكون لغير الآدميين مثل الإبل والغنم لأن التأنيث لازم له وأما جمع التكسير مثل جمال ومساجد وإن ذكر وأنث فإنما تريد الجمع إذا ذكرت

وتريد الجماعة إذا أنثت ابن سيده وقوله تعالى ﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ إنما أنث على معنى كذبت جماعة قوم نوح وقال المرسلين وإن كانوا كذبوا نوحا وحده لأن من كذب رسولا واحدا من رسل الله فقد كذب الجماعة وخالفها لأن كل رسول يأمر بتصديق جميع الرسل وجائز أن يكون كذبت جماعة الرسل وحكى ثعلب أن العرب تقول يا أيها القوم كفوا عنا وكف عنا على اللفظ وعلى المعنى وقال مرة المخاطب واحد والمعنى الجمع والجمع أقوام وأقاوم وأقايم كلاهما على الحذف قال أبو صخر الهذلي أنشده يعقوب:

فإن يعذر القلب العشية في الصبا فؤادك لا يعذرك فيه الأقاوم

ويروى الأقايم وعنى بالقلب العقل وأنشد ابن بري لخزر بن لوذان:

من مبلغ عمرو بن لأ ي حيث كان من الأقاوم

وقوله تعالى ﴿ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا بِهَا بِكَٰفِرِينَ ﴾ قال الزجاج قيل عنى بالقوم هنا الأنبياء عليهم السلام الذين جرى ذكرهم، آمنوا بما أتى به النبي ﷺ في وقت مبعثهم وقيل عنى به من آمن من أصحاب النبي وأتباعه وقيل يعنى به الملائكة فجعل القوم من الملائكة.

٤. تفسير البيضاوي (ج: ٢ ص: ١٨٤): الرجال قوامون على النساء يقومون عليهن قيام الولاة على الرعية وعلل ذلك بأمرين وهبي وكسبي فقال بما فضل الله بعضهم على بعض بسبب تفضيله تعالى الرجال على النساء بكمال العقل وحسن التدبير ومزيد القوة في الأعمال والطاعات ولذلك خصوا بالنبوة والإمامة والولاية وإقامة الشعائر والشهادة في مجامع القضايا ووجوب الجهاد والجمعة ونحوها والتعصيب وزيادة السهم في الميراث والاستبداد بالفراق وبما أنفقوا من أموالهم في نكاحهن كالمهر والنفقة.

إذن يفهم من معنى القوامة من كل ما سبق أنها تعني الاهتمام، العناية، الرعاية، توفير الأمن والسكن والطعام والملبس وكل شؤون الحياة، تقديم المشورة والنصح. وكل تلك المعاني تتطلب الخلق الحسن وحسن المعاملة والعشرة والإحسان والصبر على المرأة إن حصل منها تقصير في شؤون معينة بل وحتى في شؤون الطاعة لقوله تعالى: ﴿ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا ۖ لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكَ ۗ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ ﴾،

(طـه: ١٣٢). ويتبين من مراجعة المصادر أعلاه أن من ضمن أسباب التنزيل للآية أن رجلاً قد ضرب امرأته فجاءت تشتكي إلى النبي ﷺ لأنها تعرف أنه ﷺ سيأخذ لها الحق، وقد همّ بأخذ القصاص لها لولا أن جبريل عليه السلام جاء بالأمر الإلهي أن الرجال أحق بالقوامة. ولا يظن البعض هنا أن الرجال من حقهم ضرب المرأة لأي سبب، وإنما جاءت الآية لتعطي معنى أنه في حالة استخدام الضرب كحل أخير بعد انتهاء كل الأساليب الأخرى يكون تأديبياً وألا يكون مبرحاً ويتجنب الوجه كما جاء في الأحاديث، ولكي يعطي قناعة أنه في حالة الحصول لا يفترض القصاص المقابل من قبل المرأة للرجل بضربه لأنه لو شرع ذلك فلك أن تتخيل أن المرأة تضرب زوجها، فهل تبقى بعد ذلك قيمة للزوج كقيّم عليها واجب الإحترام. وبالمقابل على الزوج أن يتجنب الضرب والإهانة ويستخدم الحجة ويتحلى بالصبر.

القوامة التي عنتها الآية الكريمة لا تكون للرجل بوصفه ذكراً على المرأة بوصفها أنثى لقوة جسمه وتحمله المشاق حسب، ولكن يكون له بما يكتسبه من أخلاق، ويمارسه من أدوار على المرأة بما تكتسبه من أدوار وأخلاق، فقد خلق الله تعالى الذكر وفيه استعداد فطري لكي يكون رجلاً مسؤولاً وراعياً كما خلق المرأة ولها استعداد فطري لتكون حانية راعية مهتمة بشؤون أولادها وزوجها. واكتساب القوامة للرجل لغة بقيامه على شؤون الأسرة بكافة احتياجاتها كالأمن والعيش وغيره. وعلى هذا الأساس تفهم القوامة من فهم المسؤولية والرعاية والإدارة والإشراف التي أرشد لها الحديث (كلكم راع)، وليس التحكم والسيطرة. فالقوامة إمارة لا من باب الولاية السياسية والسلطة الاستبدادية، من باب (تفضل على من شئت تكن أميره)، دون منٍ أو تطاول[1].

الحقائق العلمية بنفي المساواة المطلقة:

ترى هل تم إثبات حقيقة وجود الفروق بين الجنسين، وهل أن قوامة الرجل حقيقة، وهل أن كذبة مساواة الجنسين حققت علمياً وتشخيصياً من قبل أهل الاختصاصات الطبية والنفسية والاجتماعية والقانونية؟!. إذا ما تم ذلك هل يبقى لدعاة كذبة المساواة ومؤتمراتهم العالمية والإقليمية والمحلية من معنى؟!... سوف نناقش

---

(١) مجلة الأسرة السعودية، العدد١٢٤، رجب ١٤٢٤هـ، ص (٢٢ – ٣٦)، بتصرف.

المسألة من الناحية العلمية المجردة دون عواطف وأحكام مسبقة، ونعود لجذورها لنحللها علمياً ونستبين الحقائق، كي يتبين الحق وأهله والباطل وأهله، وعندئذ كل نفس بما كسبت رهينة.. وسنرى:

بعد دعوى تحرر المرأة في بريطانيا وبقية أوربا في بدايات القرن الميلادي العشرين، شهد الغرب في الستينات الميلادية من القرن نفسه نمواً وفوراناً ملحوظاً لحركة الليبرالية والفوضوية والماركسية التي وصلت أفكارها إلى حد التناقض فيما يتعلق بالطروحات السياسية والاقتصادية، لكن القاسم المشترك بينها كان ما يسمى بالمساواة بين المرأة والرجل وتحرير المرأة من قيودها، حيث ظهرت الحركات النسوية المعروفة بالـ (فيمنزم) التي راحت تدفع بالمرأة في كل مجالات الحياة معتبرة ذلك إنجازاً وتقدماً يصب في كفة المرأة. ومن ضمن الأفكار التي رفعوا لواءها (نظرية النوع أو جندر)، ومفادها أن الرجل ليس رجلاً لأن الله خلقه كذلك، ولا المرأة امرأة لأن الله خلقها كذلك، وأن الحالة التي تبدو لنا طبيعية ليست كذلك وأن الصفات المميزة لكل نوع حتى النفسية منها ليست كذلك، وعليه فإن العلاقة القائمة بين الرجل والمرأة في الحياة الزوجية مرفوضة، لأنها تجعل من المرأة الجانب المظلوم.. وأن الأسرة كرسّت نظام الظلم على المرأة لأنها لا تملك حرية نفسها في اختيار من تريد لنفسها، فقد ظلمها الرجل -على حد تعبير الفلسفة الماركسية- بفرض رجل واحد في حياتها وهو الزوج بغرض معرفة نسب الولد. فلا بد إذن من الثورة على الأسرة كنمط اجتماعي كرّس لظلم المرأة ووأد دورها الاجتماعي والطبيعي لتخرج إلى نطاق الشواذ باسم الحرية والمساواة وضرورة إزالة الملكية الخاصة حتى لا يتحكم الرجل في المرأة بماله.. لذلك تطالب (النوعيات) بتطهير التلفاز من كل أنماط الصور المعهودة حتى ينمو الأطفال معتادين على الصور الجديدة غير المقيدة بإطار جنسي معين، وأنه لا بد من صياغة وتحديد العلاقات بتغيير كلمة (زوج) إلى كلمة (شريك). ولهذا ركزت الحركة النسوية في حديثها عن تلك الحقبة على موضوع المساواة ونسب الأولاد والوراثة كحقوق اغتصبها الرجل من المرأة واستقوى بها عليها.

وقد هيمنت (النوعيات) على برامج المرأة في أغلب الجامعات الأمريكية، ففي مادة بعنوان (إعادة صياغة صور النوع — الجندر-) تشرح المادة الموزعة على الطالبات والطلاب فكرة الأمومة المكتسبة وتحث على حق الإجهاض من منطلق أن زواج المرأة

بالرجل ظلم ونكاحه لها اغتصاب، كما تشرح المادة أن الذكورة والأنوثة لا تعني شيئاً فهي مجرد نمط اجتماعي يحدده الدور الاجتماعي، وتركز المادة على فكرة التخلص من النوع الذي يعتبره مفتاح التخلص من النظام الأبوي وظلم الرجل.

هذه الرؤية المتطرفة التي صيغت بهذا الشكل المضحك هزمت أمام سيل الأبحاث والدراسات العلمية في مجالات شتى، منها نفسي ومنها اجتماعي ومنها طبي، والتي أكدت حقيقة الاختلاف بين المرأة والرجل، ومن ثم ضرورة اختلاف الوظائف والأدوار الاجتماعية بينهما. سنستعرض لكم أدناه بعض هذه الأبحاث وما توصلت إليه من شهادات تنطق بالحق والدليل المادي الملموس والتي هي شهادات من أهلها:

١. يقول الدكتور إبراهيم الفقي – اختصاصي تنمية بشرية / النفس والذهن وصاحب الكتب والمؤلفات والبحوث المعروفة عالمياً – أن العلم الحديث والمراقبة الترددية للدماغ البشري أثبتا باليقين أن أسلوب تفكير الجنسين مختلف بشكل كبير بل وجذري، فالرجل يمتاز بأسلوب تسلسلي للتفكير (Seqancial Way)، أما أسلوب تفكير المرأة فهو أسلوب حلزوني (Spiral Way).

٢. بينت البحوث النفسية أن معدل الإصابة بمرض الكآبة عند النساء أكثر بثلاثة أضعاف ما هي عند الرجال.

٣. يقول الباحث الطبيعي الروسي (أنطون نميلاف) في كتابه الذي أثبت فيه عدم المساواة الفطرية بينهما بتجارب العلوم الطبيعية ومشاهدات توثيقية: (ينبغي أن لا نخدع أنفسنا بزعم أن إقامة المساواة بين الرجل والمرأة في الحياة العملية أمر هين ميسور، الحق أنه لم يجتهد أحد في الدنيا لتحقيق هذه المساواة بين الصنفين مثل ما اجتهدنا في روسيا السوفييتية، ولم يوضع في العالم من القوانين في هذا الباب مثل ما وضع عندنا، ولكن الحق أن منزلة المرأة قلّما تبدلت في الأسرة، لا في الأسرة حسب بل قلّما تبدلت في المجتمع أيضاً).. ويقول في مكان آخر: (لا يزال تصور عدم مساواة الرجل والمرأة ذلك التصور العميق راسخاً ليس في قلوب الطبقات ذات المستوى الذهني البسيط فحسب، وإنما في قلوب الطبقات السوفييتية العليا أيضاً).. ويقول عن الفوضى الجنسية التي أحدثتها محاولات تطبيق المساواة: (الحق أن جميع العمال قد بدت فيهم أعراض الفوضى الجنسية، وهذه حالة جد

خطرة تهدد النظام الاشتراكي بالدمار، فيجب أن نحاربها بكل ما أمكن من الطرق، لأن المحاربة في هذه الجبهة ذات مشاكل وصعوبات. ولي أن أدلكم على آلاف من الأحداث يعلم منها أن الإباحية الجنسية قد سرت عدواها ليس في الجهال الأغرار حسب، بل في الأفراد المثقفين من طبقة العمال).

٤. يقول الدكتور (أليكسس كاريل) الحائز على جائزة نوبل: (يجب أن يبذل المربون اهتماماً شديداً للخصائص العضوية والعقلية في الذكر والأنثى، كذا لوظائفها الطبيعية. هناك اختلافات لا تنقص بين الجنسين ولذلك فلا مناص من أن نحسب حساب هذه الاختلافات في إنشاء عالم متمدن.

٥. الدراسات والأبحاث التي أكدت وجود الفروق السلوكية والبيولوجية بين الرجال والنساء دفعت عدداً من التربويين إلى الاستفادة من هذه الحقيقة في مجال التعليم، ومن هنا ولدت فكرة مدارس الجنس الواحد في أمريكا وأوربا في سابقة يستغربها الكثيرون ويراها البعض طبيعية. فقد أعلنت إدارة الرئيس الأمريكي جورج بوش عن عزمها تشجيع مبدأ عدم الاختلاط بين البنين والبنات في المدارس العامة، وذلك في عودة لقانون كان سائداً قبل ٣٠ عاماً. وقد صدر إعلان عن هذا المشروع في السجل الفيدرالي وهو الصحيفة الرسمية الأمريكية بتاريخ ٢٠٠٢/٥/٨م، وجاء في بعض فقراته: (أن وزير التربية ينوي اقتراح تعديلات للتنظيمات المطبقة حالياً تهدف إلى توفير هامش مبادرة أوسع للمربين من أجل إقامة مدارس غير مختلطة، وإن الهدف من هذا الإجراء هو توفير وسائل جديدة لمساعدة التلاميذ على التركيز في الدراسة وتحقيق نتائج أفضل). وقد أثار القرار نقد البعض واستحسان الآخرين. على إثر ذلك أكد البروفيسور أميليوفيانو أن العديد من الدراسات التي أجريت على تلاميذ وتلميذات أظهرت أنه في بعض مراحل نموهم يرتفع مستوى التحصيل الدراسي لديهم في حالة الفصل بين الجنسين أثناء الدراسة. وأضاف (إن بعض الفتيات يشعرن بالميل إلى بعض الفتيان، الأمر الذي يحرمهن من تطوير حياتهن الاجتماعية والعلمية فضلاً عن التحصيل الدراسي، وكذلك الحال بالنسبة للتلاميذ الذين يفضلون الانفصال عن الفتيات حتى لا يتحتم عليهم الالتزام ببعض اللباقات والتصرفات التمثيلية التي تؤدى في حالة حضور الفتيات.

٦. أيدت الجمعية الوطنية لتشجيع التعليم غير المختلط هذه التوجهات وعرضت دراسة أجرتها جامعة ميتشيغان في بعض المدارس الكاثوليكية الخاصة المختلطة وغير المختلطة تفيد أن الطلاب في المدارس غير المختلطة كانوا أفضل في مستوى القراءة والكتابة والرياضيات.. كما صدرت شهادة أخرى بنفس الاتجاه عن الوكاة التربوية الوطنية الأمريكية أفادت نتائج بياناتها الاحصائية بأن الفتيات الأمريكيات في الفصول المختلطة أكثر عرضة للقلق والاكتئاب والانتحار.. وفي دراسة لمجلة نيوزويك الأمريكية ذكرت بالأرقام والإحصائيات أن الدارسات في الكليات النسائية غير المختلطة هن الأكثر تفوقاً ونجاحاً في حياتهن الدراسية والمهنية بعد التخرج.. كل تلك الإعلانات تأتي لتهدم الصرح الكبير الذي بني ليحتضن النظرية القائلة بوجوب المساواة والاختلاط والشذوذ.

٧. وفي بريطانيا أكدت بحوث نشرت في العديد من الدوريات أن المدارس التي حققت تفوقاً دراسياً في طلبتها هي تلك المدارس التي لا يوجد فيها اختلاط بين الجنسين، فقد حققت ١٥ مدرسة للذكور و١٤ خاصة بالإناث التفوق في شهادة (A-LEVEL).. هذه النتائج جعلت مجلس إدارة مدرسة (شين فيلد) الثانوية في منطقة برنت وود تقرر فصل الطلاب عن الطالبات، وقال المدير الدكتور أوزبورن (قد يبدو القرار عودة إلى الماضي، ولكنه اتخذ لمصلحة الطلبة ومستقبلهم من الجنسين، فقد اكتشفنا أن الطالبات في التعليم المختلط يضيعن جزءاً كبيراً من أوقاتهن في الاهتمام بالمظاهر والمكياج وأنهن مع وجود الطلاب الذكور يفقدن زمام السيطرة ولا يعرفن الهدف).. وتؤكد الإحصاءات أنه عندما يدرس الطلبة من كل جنس بعيداً عن الجنس الآخر فإن التفوق العلمي يتحقق، ففي وسط التعليم المختلط أخفقت البنات في تحقيق التفوق في مجال الرياضيات والعلوم والفيزياء والتكنلوجيا والكومبيوتر، وقد أيدت الإدارة التعليمية في منطقة نيوهام هذه الحقائق في دراسة تحليلية.

٨. أليزابيث فليجوري — رئيسة رابطة مدارس البنات الخاصة- لم تؤكد هذه الإحصاءات حسب، بل أكدت أيضاً أنه مع التوسع في استخدام التكنلوجيا في العملية التعليمية تزايد معدل التفوق لدى البنات في المدارس غير المختلطة، وأن

نسبة النجاح بينهن ارتفعت في الشهادات العامة إلى ٩٣٪ ونسبة التفوق بامتياز إلى ٥٠٪. وقالت فليجوري(في محيط نسائي خالص بعيد عن الضغوط النفسية والاجتماعية وتأثير الجنس الآخر، استطاعت البنات من أن يؤكدن تفوقهن وقدرتهن على استيعاب المعلومات واستخدامها وتحليلها واتخاذ القرارات فيها)... ولعل شهادة شيرلي وليامز الأستاذة في جامعة هارفرد والتي أمضت حياتها الدراسية في مدارس غير مختلطة حتى حصلت على شهادة (A-LEVEL) ثم التحقت بكلية سرفيل – غير المختلطة أيضاً – بجامعة أوكسفورد، توضح الكثير من تميز التعليم غير المختلط، فتقول (في هذا الجو الخالي من الضغوط التي يسببها وجود الرجال، يكون عطاء البنات عالياً وإيجابياً ومثيراً يؤكد قدرتهن على الإبداع والتفوق والعطاء، كما أن وجودهن لوحدهن دون الرجال يزرع في أنفسهن الثقة العالية والصداقة الحميمة البعيدة عن الأغراض والشبهات).

٩. أعد عالم الاجتماع الأمريكي روس ستولز نبيرج دراسة لجامعة شيكاغو تحت عنوان (لماذا تشكل الزوجة العاملة خطراً على زوجها؟)، قال فيه (إن السبب الرئيسي في ذلك هو أن الأزواج والزوجات ما زالوا يؤدون أدواراً مختلفة في الزواج، وليس هناك مساواة بينهما في هذا، وأن مهمة الحفاظ على سلامة العائلة وصحتها تبقى ضمن مسؤوليات الزوجة، فالنساء يتدربن منذ الطفولة على التعامل مع المشاكل الطبية ونشر الوعي الصحي بين أفراد الأسرة ويلممن بالأعراض المرضية. كما وأنهن المسؤولات عن الحياة الاجتماعية)... وحذر فلاسفة غربيون من مغبة المساواة المطلقة غير المنضبطة بين الرجال والنساء، فقد انتقد الدكتور اليكسس كاريل في كتابه (الإنسان ذلك المجهول) الحضارة المادية الغربية وما جنته من تحلل وانهيار للأسر والمجتمعات، وأعزى ذلك للمساواة بين الجنسين رغم وضوح الفروق العضوية والجسدية والفيزيائية والنفسية بينهما.

١٠. تشير عدة إحصائيات في دول متقدمة أن ٧٠٪ من النساء يفضلن البقاء في البيت وعدم العمل إذا ما توفرت لهن القدرة المالية للعيش بسبب الضغوط الشديدة التي تتعرض لها المرأة في العمل والذي لا يتناسب مع قابلية تحملها، مما يزيد في تعرضها لتدهور في الصحة أو الحالة النفسية. وقد كشفت نتائج في الولايات المتحدة

أن المرأة استطاعت أن تقلص الهوة بينها وبين الرجل في مجالات علمية مختلفة ولكنها تفوقت عليه في مجال الاكتئاب والتدخين والانتحار والمخدرات والكحول.

١١. يشير الدكتور محمد رشيد العويد رداً على الداعين للمساواة والمتقولين بأن الفروق إنما جاءت بسبب البيئة المحيطة والعادات التي نشآ وسطها والتربية التي تلقياها في الصغر بقوله (الدراسة والبحث والعلم أثبتت أن الفروق بين الجنسين فروق عضوية موروثة وليست مكتسبة ومن ثم فإن محاولة المساواة بينهما محاولة فاشلة مناقضة لطبيعة كل منهما. لقد قام فريق بحثي بتشكيل معسكر ضم عدداً من الأطفال من الجنسين أشرف على تربيتهم مربون يتبدلون كل فترة زمنية معينة، وقد حذفت كلمة رجل وإمرأة في المعسكر وتم تجنب كل إشارة أو عمل أو سلوك فيه تفربق بين الجنسين من الأطفال الذين ترعرعوا أحراراً من كل قيد أو صفة يطلقها عليهم المجتمع حتى أنهم تركوهم يمارسون جميع الأعمال دون الأخذ بنوع العمل إذا كان يخص الرجل أو المرأة.. وحين كبر سكان المعسكر وخرجوا للمجتمع آثرت المرأة القيام بدور الأم وربة البيت، وآثر الرجل القيام بدوره في تأمين دخل الأسرة والعمل الشاق ومارس الحياة بشكل عادي جداً دون تأثير محسوس لذلك المعسكر وما بذل فيه من جهود وأموال وأمور أخرى لمحو الفروق بين الجنسين، فثبت بذلك أن نمط الحياة التي يختارها كل من الجنسين لنفسه تخضع لتحكم طبيعة الجنس وتكوينه العضوي).

١٢. لقد بينت البحوث أن البنات يولدن بدهون أكثر وأنهن يسبقن الذكور في الحصيلة اللغوية. يستطيع الطفل بعد العام الأول من عمره تمييز جنس الأطفال — ذكر أو أنثى– بغض النظر عما يرتدونه، كما تتميز لعب كل جنس عن الآخر في هذه السن، وفي سن الروضة يصبح لديه فكرة واضحة عن الفارق بين الولد والبنت بل ويتصرف كل جنس بشكل يختلف عن الآخر. تقول الدكتورة ميريام ستوبارد الاستشارية النفسية (تفرض الضغوط الاجتماعية على الأطفال منذ ولادتهم اتباع النموذج الخاص بكل جنس، وتحدد الأسرة مميزات شخصية كل منهما، وتأتي المدرسة ودور الحضانة بمن فيها من مدرسين وأصدقاء لصياغة هوية كل من الجنسين أيضاً).

١٣. من الناحية الاجتماعية ومجال النمو الجسماني واكتساب المهارات: تقول الدكتورة ستوبارد (يتميز الأطفال بعضهم عن بعض سواء أكانوا أناثاً أم ذكوراً، ويؤثر الأهل في معدل سرعة التطور لاكتساب المهارات لدى الجنسين. فمن ناحية النمو الجسماني نرى الإناث أسرع في معدل نموهن فهن يسبقن الذكور في النضوج في مرحلة المراهقة، ويبدو نموهن أكثر انتظاماً وسرعة إلى أن يبلغ الصبي سن البلوغ فينضج ويصبح أكثر قوة وسرعة فتقوى لديه العضلات والعظام، ويصبح أقل سمنة وتنمو عضلة القلب والرئتين لتستوعب أكبر قدر ممكن من الأوكسجين الذي يحتاجه الدم لتغذية العضلات والعظام. وتكون الإناث في مرحلة ما قبل المدرسة أكثر رشاقة ومقدرة على القفز والوثب وفي الحركات الإيقاعية والتوازن، بينما يصبح الذكر في وقت لاحق أفضل في تلك النشاطات التي تحتاج إلى الركض والقفز... أما في النمو اللغوي نجد الإناث أسرع من الذكور في اكتساب المهارات الكلامية ويستطعن صياغة جمل أطول وتركيب أحاديث إنشائية وتلازم هذه الميزة الإناث في حياتهن المستقبلية، كما يبدو أنهن يستطعن الكتابة والقراءة أسرع وتبدو قواعدهن اللغوية ونطقهن أفضل). وتضيف ستوبارد: (ويظهر أن الإناث وحتى سن البلوغ أفضل بقليل من الذكور في الرياضيات ولكن الذكور يظهرون مهارات أفضل أثناء سن المراهقة ولا سيما في الهندسة الفراغية وهم يستوعبون العلاقات الرياضية والأبعاد الهندسية، وهذا التميز يبقى واضحاً ومستمراً في سن ما بعد المراهقة).. وتضيف الدكتورة ستوبارد (يكون الذكور عادة أكثر عدائية وسيطرة من الإناث، كما يظهر الذكر ميلاً إلى التنافس والطموح، ومما لا شك فيه أن الإناث أكثر اجتماعية ويقمن علاقات صداقة متينة وتغلب عليهن صفة المسايرة، ويكن لينات العريكة). وتنصح ستوبارد الوالدين بضرورة مراعاة الاختلافات الفطرية بين الجنسين لتقويم نقاط الضعف لدى كل منهما كتوفير الكتب والمستلزمات الأخرى التي تعين كل جنس على معالجة نقاط ضعفه عن الجنس الآخر، وعدم ذكر تلك العيوب أمامهما. وتذكر الأبحاث أن البنات أكثر اتساقاً ومرونة من الأولاد وأقل ميلاً للنوم وأكثر استعداداً لتهدئة النفس، بينما الأولاد أكثر حركة وميلاً للقوة.

١٤. من النواحي السلوكية والتطورات والتقلبات في العلاقات الاجتماعية: الدكتور حامد

زهران أستاذ الصحة النفسية بجامعة عين شمس فيتحدث عن الفروق بين الجنسين من ناحية النمو الاجتماعي قائلاً (يتعلم كل جنس المعايير والقيم والاتجاهات المرتبطة بجنسه مما يؤدي إلى اختلاف الذكور عن الإناث في بعض أنماط السلوك. ويرى بعض الآباء أن بعض سمات السلوك الاجتماعي تليق بالذكور كالشجاعة والقوة الجسمانية والتحكم في الرياضة البدنية والميل إلى التنافس والاستقلال. بينما هناك أنماطاً سلوكية تجتذب الإناث حصراً كالوقار الاجتماعي والنظام والدقة. وفي مرحلة الطفولة الوسطى، نجد أن الإناث يسبقن الذكور دراسياً ويتفوقن عليهم، ورجع ذلك إلى أن نموهن أسرع عن أقرانهن الذكور خلال تلك السنوات، ولأنهن يقضين أوقاتاً أطول في البيت مع الكبار. والذكور يتجهون ليصبحوا أكثر خشونة واستقلالاً ومنافسة من الإناث اللاتي يتجهن إلى أن يصبحن أكثر أدباً ورقة ورأفة وتعاوناً من الذكور. ويشير الدكتور زهران إلى التنميط الجنسي أي تبني الأدوار واكتساب صفات الذكورة بالنسبة للذكور والأنوثة بالنسبة للإناث، ويتضمن التنميط الجنسي اكتساب المعايير السلوكية والميول والاهتمامات ونوع الألعاب والنشاط العام. فنجد الذكور يهتمون بالنشاط التنافسي والألعاب الخشنة كالدراجات والمصارعة والفنون القتالية وكرة القدم وغيرها، بينما الإناث يهتمون بالنشاطات الرقيقة كالطبخ والحياكة والخياطة وأعمال المنزل. فالجنسين إذن يختلفون بحكم الوراثة والبيئة العضوية ووظائف الأعضاء، ومع النمو يتميز الجنسان اجتماعياً من حيث الملابس والمعايير السلوكية وخصائص الشخصية. وفي نهاية مرحلة الطفولة يبتعد كل جنس عن الآخر، ويظل هكذا حتى المراهقة، وتكون الاتصالات الاجتماعية بين الجنسين مشوبة بالفظاظة ونقص الاستجابة والمضايقات والخجل والانسحاب).. وهنا تجدر الإشارة للحكمة الإسلامية في تشريع هذه النقطة، فالمتأمل للتشريع الإسلامي المتعلق بحضانة الصغار يلمس إدراكاً عبقرياً للفروق بين الاحتياجات التربوية للذكر عن تلك التي للأنثى، في عالم الطفولة. وفي ذلك تقول الدكتورة كوثر محمد المنياوي (تنتهي حضانة النساء للصبي في الإسلام بانتهاء المدة التي يحتاج فيها للنساء، وذلك بأن يأكل ويشرب ويلبس وحده ثم يكون مع أبيه حتى يبلغ سن الرشد فيستقل حينئذ بنفسه. بينما

حضانة البنت تنتهي إذا بلغت البلوغ الطبيعي للنساء. وإذا كانت الأم مطلقة لا يحق لها الاحتفاظ بالولد بل يجب تسليمه للأب الذي يوفر له سبل الحياة والتعود على حياة الرجولة والتخلق بأخلاق الرجال واكتساب الخبرة والمعرفة وتحصيل الفضائل وغير ذلك، ولو ترك لأمه فلن تستطيع مواجهته أو منعه من فعل أمور قد توقعه في التهلكة بعد أن يكبر لا لعيب فيها بل لعدم قدرتها على منعه إذا تطلب الأمر استخدام الحزم، أما البنت فلا بأس في تركها للأم لأنها تستطيع تفهم مشاعرها وتقلبات السلوك الحاصل لها خلال نموها فيمكنها معالجة المسألة بحكمة).

١٥. من الناحية الطبية وعلم وظائف الأعضاء: لقد ثبت علمياً أن المرأة أقدر من الرجل بما لايقاس على الصمود في وجه الأمراض، والمؤكد علمياً أنها متفوقة تفوقاً عضوياً واضحاً على الرجل. هذا التفوق يسميه العلماء (الانتقاء الطبيعي)، أي أن الله تعالى كما زود الرجل بقوة جسمانية فيزيائية في عضلاته فإنه زود المرأة بجهاز خلقي وقابلية يضمن لها الصمود أمام الإرهاق المفرط ومقاومة وتحمل الأمراض المختلفة وآلامها أكثر من الرجل. يفسر الدكتور محمد رشيد العويد ذلك بأن الخالق العليم جل شأنه قد ميز الأنثى بهذه القدرة لأنه تعالى أسند إليها مهمات عضوية مرهقة لم يسند مثلها للذكور مثل الحمل والولادة وما يسبق ذلك وما يليه من حمل ونفاس ناهيك عن التغيرات الهرمونية والعضوية، هذا فضلاً عن الحيض وآلامه التي شرحناها في كتاب سابق. ويضيف البروفيسور الألماني المعروف في جامعة برلين رودولف باوماشن (إن المرأة قادرة على تحمل الإرهاق والصدمات النفسية أكثر من الرجل)، وأضاف استناداً لنتائج سلسلة من التجارب الطبية والعلمية أن جسم المرأة يتفاعل بسرعة عنيفة وسريعة مع حالات الإرهاق النفسي ويفرز كميات كبيرة من هرمونات الإرهاق كمادة الأدرينالين والنورادنالين وأسيدات دهنية متحركة، إلا أن هذه الهرمونات تتقلص بسرعة كبيرة لدى المرأة بعد الإرهاق والانفعال النفسي. واستخلص البروفيسور من هذه التجارب أن المرأة تنفعل بصورة أسرع من الرجل إلا أنها تهدأ بالسرعة نفسها. وخلافاً لذلك فإن جسم الرجل يفرز هذه الهرمونات الناتجة عن الإرهاق بشكل بطيء مما يجعلها تستقر لمدة أطول في الدورة الدموية،

فالإرهاق أثره أطول في الرجال مقارنة بالنساء. كذلك فإن للنساء عاطفة جياشة وحس مرهف ورقة في المشاعر بشكل أكبر من الرجل لأن تعاملها مع الأطفال بشكل مباشر يتطلب ذلك.

لأجل ذلك جهز الله تعالى النساء بكل تلك الإمكانات ولم يزودها للرجال لأن لكل واحد منهما مهام تختلف عن الآخر وأحدهما يكمل الآخر ولا يتضاد أو يتقاطع معه لبناء أسرة أساسها المودة والرحمة لبناء المجتمع الفاضل الراقي ﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ ﴾، (الروم: ٢١). ولأجل ذلك أيضاً نبه تعالى عن تلك الآلام التي تعانيها المرأة عند الحمل والوضع وغيره والتي أثبت علمياً أنها أقوى أنواع الآلام من بين كل أنواع آلام الأمراض الأخرى التي تحصل للبشر في كتابه الكريم وسماه (وهناً) بل وشدّد فقال (وهناً على وهن)، وفي الآية الأخرى بلفظ (كرهاً) وهذا كله تبياناً لشدة التعبير عن الألم ومعاناته، بقوله سبحانه وتعالى﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَـٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾ ﴾، (لقمان: ١٤).. ﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَـٰنًا ۖ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا ۖ وَحَمْلُهُۥ وَفِصَـٰلُهُۥ ثَلَـٰثُونَ شَهْرًا ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَـٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَصْلِحْ لِى فِى ذُرِّيَّتِىٓ ۖ إِنِّى تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٥﴾ ﴾، (الأحقاف: ١٥). فلم يبين القرآن الكريم في كل آياته تركيزاً على حالة ألم لمرض قدر تركيزه على ألم الوضع. بل أن المرأة التي تموت في الولادة تعتبر شهيدة، لذلك ذكرت أحاديث كثيرة للنبي ﷺ في الأم تبين لك منزلتها في الإسلام. ويا لها من منزلة جعلت الجنة تحت قدميها، وجعلت منزلة الأم مقدمة على منزلة الأب بثلاثة أضعاف. ففي صحيح مسلم (البر والصلة والآداب ٤٦٢٢) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَجُلٌ يَا رَسُولَ اللَّهِ مَنْ أَحَقُّ النَّاسِ بِحُسْنِ الصُّحْبَةِ، قَالَ ﷺ: **(أُمُّكَ ثُمَّ أُمُّكَ ثُمَّ أُمُّكَ ثُمَّ أَبُوكَ ثُمَّ أَدْنَاكَ أَدْنَاكَ)**.

١٦. أثبتت البحوث الطبية أن الجنسين يستمران بفروقهما بعد البلوغ والكبر، بل ويتطور الأمر إلى نشوء الخلاف الحقيقي بين الجنسين جسدياً وعضوياً ونفسياً. في

الذكور تبدأ الخصية بإفراز هرمونات جنسية ذكرية المعروفة بالـ أندروجين، أهم ما فيها التيستوستيرون (الذي ذكرنا السبق القرآني حول تأثيره في النظام الهرموني في سورة مريم في كتاب الطب من هذه السلسلة) الذي يسبب العديد من التأثيرات الجسدية المسؤولة عن كل الخصائص الذكورية للذكر، وهكذا تحصل مجموعة من الظواهر الجنسية الثانوية كنمو الذقن وشعر الصدر فضلاً عن عمق الصوت، كما يعزى للتيستوستيرون النمو السريع الذي يحصل في هذا السن. هذا النمو يحصل متأخر لدى الذكور لكنه يدوم فترة أطول مما لدى الإناث، ويتجسد ذلك بنمو أشد وضوحاً في تركيبة العضلات وقوة الأطراف السفلية التي يعتمد عليها نمو الشباب أطول من الفتيات. كما أن توزيع الدهون لدى الرجال يختلف بحيث يذهب السواد الأعظم منه للمعدة والجزء الأعلى من الجسم.. بينما الفتاة عند بلوغها تبدأ بإفراز هرمونات جنسية هي الإستروجين من مبيضها، والتي تأثيرها عن تأثير التيستوستيرون بحيث تنمي المبيض والرحم وتدفع الإباضة الأولى. ويعتبر الإستروجين المسؤول أيضاً عن الشكل الأنثوي الذي يتميز باتساع الحوض وضيق الكتفين. كما وتختلف المرأة في توزيع الدهون وكميتها، إذ يحتوي جسم المرأة على ضعف ما يحتويه الرجل من الدهون ويذهب أغلبه للفخذين والردفين. كما ويحوي جسم المرأة على صنف آخر من الهرمونات الجنسية هو البرجيستيرون الذي يكون فعالاً خلال المرحلة الثانية من دورة مبيضها أي بعد كل إباضة فيتولى نمو النهدين وبدء المحيض.

١٧. الناحية المرضية: أثناء حياتهما سيتعرض الرجل والمرأة للأمراض، ولكن لكل جنس مكامن ضعفه، فالرجل أكثر تعرضاً لأمراض القلب من المرأة بمعدل الضعف، ذلك ان التيستيرون يؤدي إلى تنمية ما يعرف بالكوليستيرول السيء تأثيره على جدران الأوعية الدموية، بينما يعمل الأستروجين لدى المرأة على تنمية ما يعرف بالكوليستيرول الجيد الذي يتولى تنظيف الأوعية الدموية. إلا أن المرأة تتوقف عن إنتاج الأستيروجين بعد سن اليأس مما يجعلها معرضة لأمراض القلب بمعدل النسبة ذاتها لدى الرجل.

١٨. الفروق السلوكية عند الكبر: لا يستطيع الرجال التعبير عن عواطفهم فيلقون ما

تحويه جعبتهم مرة واحدة، بينما النساء يستخدمن المحاورة والكلام غير المباشر مما يجعلها قادرة على التحكم في الحديث كما ترغب وهي عندما تتحدث تستخدم الابتسامة أو الحركات لتعبر عن التعجب أو الغضب. والمرأة تتحدث أكثر من الرجل وتقرأ أسرع منه. الرجال يلجأون إلى الدعابة أكثر من النساء للتأثير على الآخرين في حين تلجأ المرأة بالتعبير بالوجه والجسم للتأثير على الآخرين. يفضل الرجال النظر إلى الأشكال ذات الزوايا الحادة في حين تفضل النساء النظر إلى الأشكال الدائرية مثل شكل القلب.

١٩. فروق فسيولوجية وتركيبية: عند تناول الرجل وجبة من النشويات يشعر بالهدوء في حين تشعر المرأة بالنعاس، ويصاب ٤٪ من الرجال بعمى الألوان. الكرات الدموية البيضاء لدى النساء أكثر من الرجال وجهاز المناعة لديها أقوى. والمرأة أقل إصابة منه بأمراض القلب وقرحة المعدة، كما أن حجم معدتها أكبر من معدة الرجل، وهي تحرق الأوكسجين أسرع من الرجل حيث تزيد وتنقص نسبة كريات الدم الحمراء مما ينتج عنه سرعة إغمائها. ويدق قلب الرجل في المتوسط ٧٢ دقة لكل دقيقة بينما المرأة يدق قلبها أكثر من الرجل لكل دقيقة. جسم الرجل في المتوسط يحتوي على ٢٠ قدماً مربعاً من الجلد أما جسم المرأة فيحتوي على ١٧ قدماً مربعاً من الجلد.

٢٠. الفروق في الذكاء ووظائف الدماغ: رغم أن الدماغ مسؤول عن كل ما سبق من فعاليات جسمانية أو وظيفية، نقول أن المسألة فيها بحوث تفصيلية تبين الفارق بين دماغ الجنسين في سبل تنظيمهما وأساليب عملهما رغم تساوي نسب الذكاء بينهما وتشابه الشكل العام فيهما. فقد قام علماء من جامعة ولاية نيويورك في بافالو في الولايات المتحدة بإجراء تجارب على ١٧ ولداً و١٨ بنتاً تتراوح أعمارهم بين ٨–١١ عاماً، لدراسة كيف تتغير موجات الدماغ في جزأيه عند القيام بعملية التعرف على تعابير وجوه معينة عرضت عليهم، ووجد العلماء أن كل جنس استخدم جزءاً من الدماغ يختلف عن الجزء الذي استخدمه الجنس الآخر في معالجة المعلومات. ويعتقد العلماء أنه من المحتمل أن الأولاد تعرفوا على تعابير الوجوه بطريقة عامة، وهي مقدرة مرتبطة بالجزء الأيمن من الدماغ، بينما عالجت

الفتيات معلومات التعرف على تعابير الوجه بطريقة خاصة، وهي قدرة مرتبطة بالجزء الأيسر من الدماغ... أما مخ الرجل فيزيد وزنه عن مخ المرأة بمقدار ١٠٠ غرام ونسبة وزن مخ الرجل لجسمه تعدل ٤٠/١ بينما نفس النسبة عند المرأة تعدل ٤٤/١. ويقول الباحثون أنهم وجدوا تخزين المعلومات يختلف في الرجل عما هو في المرأة، وهو ما يفسر تفوق الرجل عن المرأة في عالم الاختراعات والابتكارات، بل أن جميع التخصصات في الفنون والأعمال الخاصة بالمرأة كالطبخ والأزياء زاحم الرجال بها النساء وتفوقوا عليهن. أما في حالة الدماغ لمراحل النشاط الذهني المتقد فقد تم الإثبات بالبحوث والتجارب والمراقبة أن حقل الذاكرة في دماغ الرجل أكبر حجماً منه في دماغ المرأة، وهنا يتجلى أمر الله تعالى بجعل الشهادة برجلين، فإن تعذر فرجل وامرأتان كي تذكر إحداهما الأخرى إن هي نسيت، يقول تعالى في البقرة (٢٨٢): ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَٱكْتُبُوهُ ۚ وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌۢ بِٱلْعَدْلِ ۚ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَن يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ ٱللَّهُ ۚ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْـًٔا ۚ فَإِن كَانَ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُۥ بِٱلْعَدْلِ ۚ وَٱسْتَشْهِدُواْ شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ ۖ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَٱمْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ أَن تَضِلَّ إِحْدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَىٰهُمَا ٱلْأُخْرَىٰ ۚ وَلَا يَأْبَ ٱلشُّهَدَآءُ إِذَا مَا دُعُواْ ۚ وَلَا تَسْـَٔمُوٓاْ أَن تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰٓ أَجَلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَٰدَةِ وَأَدْنَىٰٓ أَلَّا تَرْتَابُوٓاْ ۖ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا ۗ وَأَشْهِدُوٓاْ إِذَا تَبَايَعْتُمْ ۚ وَلَا يُضَآرَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ ۚ وَإِن تَفْعَلُواْ فَإِنَّهُۥ فُسُوقٌۢ بِكُمْ ۗ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٨٢﴾ ﴾... أما في حالة الكبر والشيخوخة فإن المرأة المسنة تبدي مطولة أكبر من الرجل المسن في نواحي وظيفية عديدة للدماغ، فقد أثبتت الدراسات أن النساء يمضين سنين أطول بعقل سليم وذكاء يحسدن عليه، وجاء في الدراسة التي أجريت لمصلحة جامعة ليدن في هولندا وشملت ٥٩٩ شخصاً تتجاوز أعمارهم الخامسة والثمانين، أن النساء المسنات أسرع استجابة وعقولهن أكثر

حدة. كذلك أظهرت الدراسة أن النساء المسنات يتفوقن على الرجال المسنين في القدرة على استعادة الماضي والتذكر. والعجيب كما ذكرت الدراسة أن ٧٠ ٪ من المستطلعات لم ينلن تعليماً عالياً وعلى الرغم من ذلك سجل نتائج عقلية أفضل من الرجال، وعزا الخبراء السبب في ذلك إلى أن دماغ المرأة مهيأ ليعمل لمدة أطول لأنها تعيش عمراً أطول. وأفادت نتائج بحث آخر لنفس الفئة العمرية روعي فيه أن النساء المبحوثات أقل تعليماً من الرجال أن قدرة النساء المسنات العقلية أفضل مما هي لدى الرجال المسنين، ويرجع ذلك إلى كونهن أقل عرضة للإصابة بالنوبات القلبية مما يجعل تدفق الدم إلى أدمغتهن أيسر. كما أجرى الخبراء في هذا البحث اختباراً لمعرفة سرعة التفكير والقدرة على التذكر لدى المبحوثين فحقق نسب أعلى في اختبارات سرعة الفهم والقدرة على الاحتفاظ بذاكرة قوية، وتبين أن سرعة الفهم كانت ٣٣٪ لدى النساء مقابل ٢٨٪ لدى الرجال، وقد عزي ذلك لأمور عضوية تتعلق بالغياب النسبي لأمراض الشرايين عند النساء[1].

وبعد، ورغم كل تلك النتائج الواضحة والصيحات المخلصة لا زالت دعوى الجندر تلقى رواجاً في مجتمعاتنا الإسلامية فارتفعت نبرة الحديث عن الاضطهاد للمرأة ووجوب حصولها على حقوقها كاملة، ولا ندري ما ذلك الكمال في الحقوق وإلى أي حد يصل؟!. كما وصلت الدعاوى إلى حد ضرورة إيجاد اتحاد عالمي يوجد هوية جديدة فوق القوميات والاختلافات كي تتحدث نساء العالم عن أنفسهن، وعملت الأفلام السينمائية والتمثيليات التلفازية والاجتماعات والمؤتمرات الدولية وصرفت الملايين من الدولارات على كل هذا دون الالتفات إلى حقيقة الداء والانصراف لعلاجه بهدوء ودون تعصب أو تزمت لا يؤدي إلا إلى تباعد الهوة بين المشكلة وعلاجها، وكأن المسألة حرب شعواء بين الجنسين، وليس تكامل وتعاضد وتعاون.

وهكذا وكخلاصة من هذا البحث فإننا نرى أن الإسلام أعطى للمرأة والأسرة قيمة عظيمة لم يعطها أي دين سابق ولا شريعة ولا قانون أرضي، فهي لها القيمة المادية

---

(١) هذه التفاصيل منقولة بتصرف عن ملف علمي متكامل أعدته مجلة الأسرة السعودية، العدد ١٢٤، رجب ١٤٢٤هـ، ص (٢٢ — ٣٦).

العظمى المتمثلة بالذهب كما لها القيمة الاعتبارية الجليلة إذ أنها تربي الأجيال وتحفظ النسل فهي تمثل العمود الفقري في الحياة ومثلها كمثل الدرة المحفوظة في لوح زجاجي يمنع لمسها إلا لصاحبها. وعلى هذا الأساس تآمر الغرب وعلى رأسهم اليهود على مكانة المرأة في أمتنا وأوهموا ضعيفات الإيمان بأن نزع الحجاب ولبس اللآلئ والتزين والسفور والإتيكيت والموضة ومعارضة الوالدين والاختلاط والمساواة مع الرجال كل ذلك من باب التحضر، كما أوهموهن بأن ضرورة إيجاد الـ "حبيب" لهن هو من دواعي الشخصية الحديثة المتطورة والاستقلال في التفكير، وان الخلق والحشمة والتصرف السليم المبني على الشريعة والدين في كل مجالات الحياة هو من دواعي الرجعية والتخلف، ألا ساء ما يحكمون.

قال مسؤول غربي "لا تستقيم حالة الشرق ما لم يرفع الحجاب عن وجه المرأة ويغطى به القرآن" أي لن يستطيع الغرب الحاقد السيطرة على الشرق المسلم حتى تزيح المرأة المسلمة الحجاب عن وجهها وتنبذ كتاب الله وراء ظهرها[1].. وهذا ما أرادوه لنسائنا ومجتمعاتنا واستجاب لهم الكثيرون مخدوعين تارة ومطيعين تارة ومقلدين تارة أخرى بينما رفض هذه (العولمة) القديمة النساء المؤمنات والعوائل المؤمنة، ولهؤلاء المساكين المقلدين نقول إنكم بهذا اشتركتم ليس فقط بجريمة إغضاب رب العالمين وترك الشرع الحنيف وإنما أصبحتم مشتركين في جريمة هدم ما بنته أجيال وأجيال من خلق عظيم وتعاليم سامية ودفعت بسببه دماء زكية طاهرة كثيرة على مدى أكثر من ١٣٠٠ عام.

لنرى الوجه الحقيقي للإسلام من خلال ما قالته نساء غربيات، ففي مقابلة أجرتها مجلة الوطن العربي (العدد ٣١٤) مع امرأة فرنسية متخصصة في الفن الإسلامي نادية أوبريي قالت: "وجدت المرأة المسلمة (العربية) محترمة ومقدرة داخل بيتها أكثر من الأوربية وأعتقد أن الزوجة والأم العربيتين تعيشان سعادة تفوق سعادتنا". ثم توجه النصح للمرأة المسلمة قائلة "لا تأخذي من العائلة الأوربية مثالاً لك لأن عائلاتنا هي

---

(١) مقتطفات من كتاب اللآلئ الحسان من روائع الكلم والبيان، محمد عبد العزيز المسند، الجزء الثالث.

أنموذج رديء لا يصلح مثالاً ليحتذى".

وفي مقابلة أخرى أجرتها مجلة صدى الأسبوع "مع براونين ميزاك ايفانز - إنجليزية أعلنت إسلامها في البحرين - كان من الأمور التي دفعتها إلى اعتناق الإسلام هو مكانة المرأة في الإسلام وكذلك تركيبة الأسرة المسلمة حيث قالت "المرأة المسلمة دائماً في حماية ورعاية، تجد من يعيلها أينما حلت، وهي جزء هام من المجتمع الإسلامي.. جو عائلي تفتقده الكثير من الأسر الغربية الأب والأم ثم الأولاد وبعدهم الأقارب.. العائلة المسلمة كأنها مملكة واسعة الأطراف، أما العائلة الغربية فإنها تقتصر على رجل وامرأة فقط، طرفين لا توابع تخلفهما، أما في الإسلام فلا يوجد وسيط بين الإنسان وربه"[1].. والقصص من هذا القبيل أكثر من أن تذكر في هذا الكتاب، ومنها قصة القسيس إسحاق المصري نائب البابا البروتستانتي الذي أسلم وسمى نفسه إبراهيم وفصلّ قصة إسلامه في محاضرة شيقة[2].

في محاضرته الرائعة ((قصة الإيدز الكاملة))، يقول الدكتور عمر عبد الستار عن موضوع الحجاب بعد أن يعرض صور عديدة تتعلق بالموضوع وتخص تشخيص المسألة الطبية لمرض الإيدز، وعندما يصل إلى الصورة أو السلايد الخاص بالبويضة يقول: انظروا روعة هذا الشكل وما حوله من غشاء، هذا الغشاء الرقيق الجميل هو حجاب للبيضة فكل شيء أنثوي خلقه الله تعالى جميلاً ورقيقاً محفوظاً عن الذكر بحجاب لا يسمح لأحد أن يخترقه إلا واحداً فقط، فهذه البويضة يلاحقها ملايين من الحيوانات المنوية ولا يخترق الغشاء أو الحجاب هذا ولا يسمح بذلك إلا لواحد فقط، ثم يغلق الحجاب نهائياً.. هذا الأمر مشمول به كل شيء أنثوي في الكون إلا نساء هذا العصر الذين ارتموا بوحل الحضارة الزائف.

ولنعد الآن إلى الآية المباركة ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ﴿١٤﴾ ﴾، (آل عمران: ١٤)، كيف أنها

---

(١) نفس المصدر السابق.

(٢) المحاضرة مسجلة في شريط كاسيت، نشر في بداية تسعينات القرن العشرين.

ربطت الشهوات بالتسلسل فإذا بالمرأة التي هي أقوى الشهوات للرجل تصبح بمساعدة القناطير المقنطرة من الذهب والفضة المطحنة والجاروشة التي تطحن الرجال والأمم، وهذا ما كان في تاريخ البشرية وفي حاضرها وفي مستقبلها إلا ما رحم ربي. ومن أراد التخلص من هذا الإعصار الجارف والتيار الهائل الذي لم يرحم ولن يرحم أحد فما عليه إلا التمسك بزورق النجاة الذي هو في حمى ملك الملوك ألا وهو الإسلام الحنيف الذي يعطي الجميع حقوقهم دون استثناء ولا يهمه في ذلك تعليقات الجهال والفسقة والسفهاء فهؤلاء هم المحرقة التي تتقد فيها نيران هذه الفتن[1].

منزلة الوالدين في الإسلام:

أما عن الوالدين واحترامهما فإنه لا يوجد تشريع أرضي أو سماوي أعطى لهما أهمية قدر اهتمام الإسلام بهما، فيكفي أن القرآن الكريم قد قرن في غير موضع الإشراك بالله بعقوقهما ﴿ ۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴿٢٤﴾ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِى نُفُوسِكُمْ ۚ إِن تَكُونُوا۟ صَٰلِحِينَ فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلْأَوَّٰبِينَ غَفُورًا ﴿٢٥﴾ ﴾، (الإسراء).. هذه الآية تحديداً عندما قرأها الأمير تشارلز الشخصية البريطانية المعروفة وأمير ويلز تغيرت نظرته تماماً عن الإسلام، فامتدحه بخطبة مشهورة أمام البرلمان البريطاني عام ١٩٩٦م.

وبعد خير الكلام كلام الله يأتي خير الهدي هدي رسولهﷺ في مسألة الوالدين، وقد جعل بر الوالدين مفضلاً على الجهاد في سبيل الله وهو ما قاله ﷺ للصحابي الذي أراد الجهاد ((**ألك والدان**))، قال نعم، قال ﷺ ((**ففيهما جاهد**))، وعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه أَنَّ رَجُلاً سَأَلَ النَّبِيَّ ﷺ أَيُّ الأَعْمَالِ أَفْضَلُ قَالَ ((**الصَّلاةُ لِوَقْتِهَا وَبِرُّ الْوَالِدَيْنِ ثُمَّ الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّه**))، وفي حديث قُلْتُ يَا نَبِيَّ اللَّهِ أَيُّ الأَعْمَالِ أَقْرَبُ إِلَى الْجَنَّةِ قَالَ ((**الصَّلاةُ عَلَى مَوَاقِيتِهَا قُلْتُ وَمَاذَا يَا نَبِيَّ اللَّهِ قَالَ بِرُّ الْوَالِدَيْنِ قُلْتُ وَمَاذَا يَا نَبِيَّ**

---

(١) المنظار الهندسي للقرآن الكريم، للمؤلف، ص (٥٧٢-٥٨٢)، بتصرف.

اللَّهِ قَالَ الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّه)).

وبعد فهذا غيض من فيض رحمة الإسلام الشاملة لكل خلق الله تعالى والتي لم تتميز بشموليتها وخصائصها أية حضارة أخرى باعتراف كبار منظري ومستشرقي الغرب وتلك مقارنة بسيطة لأجل وضع القارئ الكريم بالصورة المطلوبة للدخول في قوانين القرآن الكريم في الحضارات.

الفصل الرابع

بعض دلائل الرقي في السلوك الاجتماعي في الإسلام

يبني الإسلام مجتمعاً عاملاً غير خامل ولا كسول، متكلاً غير متواكل، خلوقاً غير منحرف، عادلاً غير متطرف. للرجل دوره، وللمرأة دورها، والكل راع ومسؤول عن رعيته. الفساد والانحراف بكل أشكاله وما يؤدي إليه مرفوض لأن الله تعالى لا يحب الفساد.

والإسلام يحث على العمل والنجاح والكد وعدم الركون للكسل والفشل والإحباط، وفي هذا تفصيل كبير، ولعلنا ذكرنا بعض الآيات والأحاديث الدالة على العمل خلال هذا الكتاب وغيره[1].. ولقد أثبت العلم الحديث أن النجاح في العمل هو من أحد أسرار إطالة الأجل، ولعل العمل الصالح على رأس هذه الأعمال لما يوفره من شحنة طاقة للخير تعم النفس فتجعل منها شعلة للخير والإنجاز.. وما الأحاديث الدالة على شروط حسن الخاتمة والتي تتعهد بتوفيرها لأهل العمل الصلح مثل الإخلاص وبر الوالدين وصلة الرحم وحسن الخلق والسريرة وغيرها لتدل على هذا المفهوم من بابه الواسع، وصدق الصادق الأمين الذي بين في الحديث الصحيح الذي يرويه أهل السير ومنهم البخارى ومسلم وأبي داود وغيرهم أن العمل الصالح وعلى رأسه صلة الرحم هو من شروط طيب الرزق وطول العمر وبقاء الأثر، فقد روى البخاري في البيوع (١٩٢٥) عن أنس بن مالك رضي الله عنه، سمعت رسول الله ﷺ يقول (**مَنْ سَرَّهُ أَنْ يُبْسَطَ لَهُ فِي رِزْقِهِ**

---

(١) يمكن للقارىء الرجوع لكتب مهمة في هذا مثل كتاب (صناعة الحياة) للأستاذ الجليل محمد احمد الراشد، وكتاب (الهمة طريق إلى القمة) للأستاذ محمد بن حسن بن عقيل بن موسى، أو يدرس سير الأماجد والعمالقة لهذه الأمة وغيرها، أو يتابع برنامج صناعة النجاح (للأستاذ الدكتور طارق السويدان)، أو صناع الحياة للأستاذ (عمرو خالد)، وغيرها من مشاريع إحياء فقه الدعوة والنهوض بالأمة.

أَوْ يُنْسَأَ لَهُ فِي أَثَرِهِ فَلْيَصِلْ رَحِمَهُ)..

ولقد بينت البحوث الحديثة صدق هذا السبق الإسلامي، في بحث أجري مؤخراً تبين أن نجاح المرء في عمله وحياته من أهم أسباب زيادة العمر وطيب الرزق.. يقول أحد المشتركين في البحث: (لماذا يعيش بعض الناس لفترة أطول من غيرهم؟ هذا السؤال شغل بال الكثيرين لعدة أجيال. وفي كثير من الأحوال تبدو الإجابة واضحة: اتباع نظام غذائي جيد ورعاية صحية جيدة وعدم الإصابة بالكثير من الأمراض. لكن بالنسبة لآخرين فإن السبب يشوبه الكثير من الغموض. فلماذا، مثلا، يعيش رجل ياباني أربع سنوات أكثر من البريطاني؟ ولماذا تتوفى سيدة تعيش في مانشستر قبل ثلاث سنوات من سيدة تعيش في ظروف مماثلة لكن في لندن؟. ولماذا يطول عمر رجل يعيش في غرب لندن ست سنوات عن رجل يعيش في شرق لندن).

وضع العلماء مجموعة من الأسباب على مدى السنوات تتراوح بين أسلوب الحياة والاختيارات التي يقوم بها الإنسان مثل التدخين، وبين الجينات. إلا أن كتابا لسير مايكل مارموت بروفيسور علم الأوبئة والصحة العامة في جامعة يونيفيرستي كوليج لندن، يوفر إجابات مختلفة لهذه الأسئلة. وقام مارموت بدراسة الاختلافات بين طول الأعمار لمدة ثلاثة عقود. وفي الستينات أجرى ما أصبح يعرف الآن باسم دراسة وايتهول، وهي دراسة على صحة الموظفين الحكوميين في لندن. وخلصت الدراسة إلى أن صحة موظفي الحكومة ترتبط بعلاقة وثيقة بدرجتهم الوظيفية في الحكومة. وأن الموظفين الذين يحتلون مناصب كبرى يتمتعون بصحة أفضل. وخلصت دراسات أخرى إلى نتائج مماثلة في جماعات اجتماعية مختلفة مثل الأكاديميين والحاصلين على جوائز أوسكار. فقد خلصت الدراسات إلى أن الحاصلين على درجة الدكتوراة يعيشون أطول من الحاصلين على درجة الماجيستر، والذين يعيشون بدورهم فترة أطول من الحاصلين على شهادة جامعية، والذين يعيشون أطول ممن لم يكملوا دراستهم الجامعية. وبالصورة نفسها، فإن الممثلين الحاصلين على جائزة أوسكار يعيشون متوسط ثلاث سنوات أطول من الذين رشحوا للحصول على الجائزة دون أن يحصلوا عليها بالفعل.

ويعتقد مارموت أن هذه النظرية يمكن تطبيقها على أي جماعة في المجتمع بدءا من السياسيين إلى الذين يعيشون تحت خط الفقر. ويصر على أن الصحة العامة وطول

العمر يتأثر بدرجة كبيرة بمكانة الإنسان في المجتمع. وأطلق مارموت على هذا اسم "عرض الوضع الاجتماعي" وهو نفس الاسم الذي أطلقه على كتابه. ويقول: "الدليل دامغ. ويشير ألى أن تبوأ منصب اجتماعي مرموق يؤدي إلى تحسن الصحة. والذين يحتلون قمة الهرم الاجتماعي يعيشون أطول." ويعتقد مارموت أن الوضع الاجتماعي ربما يكون أهم من النظام الغذائي المتبع والرعاية الصحية. ويقول: "يعتقد الناس أن طول العمر يتحدد إما بالرعاية الصحية والتدخين أو النظام الغذائي المتبع." .. هذه الأمور مهمة أيضا لكن الدليل يظهر أنها مجرد جزء من الصورة الكاملة." ويقول مارموت إن موقعنا في الهرم الوظيفي يتأثر بأمرين: الدرجة التي نسيطر بها على حياتنا والدور الذي نلعبه في المجتمع ويسأل: "هل يشعرون بأنهم يسيطرون على حياتهم ويتمتعون بفرص تمكنهم من التواصل الاجتماعي الكامل؟" .. ويبدو أن المال ليس له تأثير كبير، ويقول مارموت: "المزيد من المال لا يعني صحة أحسن. المال حد ذاته ليس مهمًّا. "وربما تفسر هذه النظرية السبب في أن الحياة في بعض الدول الفقيرة نسبيا مثل اليونان ومالطة أطول منها في المملكة المتحدة أو الولايات المتحدة.

ويعتقد مارموت أن منح الناس المزيد من السيطرة على حياتهم وضمان أن يلعبوا دورا كاملا في المجتمع سيعزز صحتهم ويزيد من أعمارهم ويوصي بأن تعمل الحكومة على ضمان أن يحصل جميع الأطفال على تعليم جيد، وأن يحصل العمال على المزيد من السيطرة على حياتهم وألا تعتبر المسنين مجرد "كومة من العظام". كما يوصي بضرورة أن يبذل المزيد من الجهود لضمان أن يشعر المواطنون بأنهم جزء من مجتمعاتهم.

الفساد كل اضطراب في النواميس الإلهية مادية كانت أم معنوية، في البر وفي البحر، للزرع والضرع، للحرث والنسل، للإنسان والحيوان، في الخلق والسلوك كما في المجتمعات والدول. للفساد هذا أشكال عدة فصلها القرآن الكريم بما يأتي:

١. ﴿ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٠٥﴾ ﴾ (البقرة: ٢٠٥).

٢. ﴿ فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُوا۟ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا

قَلِيلاً مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ ۗ وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَآ أُتْرِفُوا۟ فِيهِ وَكَانُوا۟ مُجْرِمِينَ ﴿١١٦﴾ ﴾ (هود: ١١٦).

٣. ﴿ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾ ﴾ (القصص: ٧٧).

٤. ﴿ ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾ ﴾ (الروم: ٤١).

٥. ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِىٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٦﴾ ﴾ (غافر: ٢٦).

من أهم ما حذر الإسلام منه هو الانكباب على الدنيا وملذاتها، وجعلها القيمة الأساسية لفلسفة الوجود، فهي رأس كل فتنة وفساد. على عكس الحضارة الغربية التي جعلت من الدنيا أساس كل شيء، ودونها يهون كل خلق وتموت كل فضيلة. فكان الفكر الغربي ربيب الفكر اليهودي يدعو دائماً إلى شيوع الغرائز كالجنس والتسلط والقتل والنفوذ والتعصب الأعمى، وأساس كل ذلك اللهث وراء المال، إله اليهود الذي أشرب في قلوبهم بعدما عبدوا العجل المصنوع من الحلي الذي سرقوه من المصريين القدماء، رغم كل المعجزات الإلهية التي أعطاها الله تعالى لنبيه موسى عليه السلام لعل هؤلاء القوم يفقهون حديثاً، إلا أن قلوبهم أصبحت أقسى من الحجارة، فماتت قلوبهم وضمائرهم فهم كالأنعام بل هم أضل.

ولأن هذا الفكر المسخ يعلم مدى تأثير النساء، شجع هؤلاء الحيوانات البشرية الجنس والتحلل والشذوذ الجنسي، وجعل المرأة جسد يباع ويشترى تحت تعريف واحد هو (الحب) بين الجنسين الذي يجب أن يقدس ولا يمس بأي سوء. وما هو في الواقع إلا الجنس بعينه وتحلل المجتمع وتدمير فكره وسلوكه كي يسهل السيطرة عليه كما جاء في بروتوكولات حكماء صهيون، ومع الأسف طبق في مجتمعاتنا الإسلامية:

١. " إذا أردت أن تدمر مجتمعاً فانشر فيه الفساد".

٢. "إذا أردت أن تدمر أمة فسلمها بيد جهالها"، ومعلوم أن الجهال أكثر

الناس استجابة للشهوات.

٣. "إذا أردت أن تدمر جيشاً فسلمه بيد المدنيين"، ومعلوم ما للجيش في الأمة والوطن من اهمية فتدميره داخلياً يكون من أناس لا يفهمون في الترتيبات العسكرية وهم المدنيون.

٤. " كأس وغانية تدمر أمة محمد".

ورغم أن الله تعالى قد حذرنا من هذه الأمور بقوله جل وعلا: ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ﴿١٤﴾ ﴾ (آل عمران: ١٤). إلا أننا ركضنا وراء دعاوي هذا الفكر واعتبرنا أن هذا كله من دواعي الحضارة والتطور، وما هو إلا الفساد بعينه الذي حذرنا الله تعالى منه.

حول هذا الموضوع (موضوع الحب والهوى) الذي تدور حوله كل ما يسمى بالأعمال الدرامية من تمثيليات وأفلام ومسلسلات وأغاني، حتى انهم إذا أرادوا أن يخرجوا فيلماً تاريخياً مثلاً حول شخصيةٍ معينة أقحموا فيها دورا فيه عشقاً وحباً. بل وأحيانا يزورون الأحداث بحجة الحبكة الدرامية ليضعوا فيها امرأة تعشق وتلبس الثياب (العارية) لتغري وتفتن من يراها كي يقال أن هذا الأمر أمراً مقدساً حتى في الأديان.

هذا ما عودوا عليه الأجيال منذ نشأة السينما ولحد الآن وضحكوا بها على الكثيرين. وهذا هو لعمري بالضبط ما تريده الصهيونية والماسونية ومأجوريهم من المستشرقين وأدعياء الحضارة (الجاهلية) الغربية وأصحاب القلوب والعقول الخالية من كل شيء إلا من الهوى والهوس بكل ما يدفع الإنسان إلى حيوانية مقيتة وقسوة أين منها قسوة الحجر والصوان وهي بالتأكيد خالية من محبة الله ورسوله ومن الغيرة المحمدية.. إذن الهدف واضح وهو أنهم أرادوا تدمير أجيال بكاملها وخلع محبة الله ورسوله من القلوب ووضع محلها محبة الهوى والنساء والنفس والنفوذ والجاه والمال وكل الشهوات الأخرى كي يسهل تحطيمها، وكان لهم ما أرادوا بفعل هؤلاء من يدعون أنهم فنانين، رغم أن الفن رسالة سامية تسمو بالفكر الإنساني وتقومه وترفع عنه كل معاني الرذيلة والانحطاط الخلقي.

لكنهم أرادوا به أمراً آخر، أي كلمة حق يراد بها باطل، فبدعوى الحب هذه يحققون ما يصبون إليه، فأنصت لهم دون تروي من كان بقلبه مرض، وهم أدعياء الفن هؤلاء المساكين الذين يتصورون انهم يحسنون صنيعا، والله تعالى يقول:

﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ﴿١٠٣﴾ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾ ﴾، (الكهف).

والمصيبة أنهم إذا ما حاولت نصحهم وإرشادهم إلى الحق اتهموك بالجهل والرجعية وعدم مواكبة العصر وما إلى ذلك من التهم، وقد تحقق فيهم قول الله تعالى:

﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴿٦﴾ وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلَّى مُسْتَكْبِرًا كَأَنْ لَمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْرًا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٧﴾ ﴾، (لقمان)، أي ومن الناس من يشري ما يلهي عن طاعة الله ويصد عن سبيله، مما لا خير ولا فائدة فيه، قال الزمخشري: واللهو كل باطل ألهى عن الخير، نحو السمر بالأساطير والتحدث بالخرافات المضحكة، وفضول الكلام وما لا ينبغي، وروى ابن جرير عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه انه سئل عن الآية فقال: والله الذي لا إله إلا هو -يكررها ثلاثا- إنما هو الغناء، وقال الحسن البصري نزلت هذه الآية في الغناء والمزامير[1]. وهذا أيضاً تفسير الكشاف والطبري وابن كثير.

والأدهى والأمر انهم ينسبون هذا إلى الله تعالى ويقولون أن نجاحنا وشهرتنا بفضل الله -حاشا لله- ﴿ وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾، (الأعراف: ٢٨)، فسبحان الله عما يصفون وتعالى الله علوا كبيرا فأولئك وأمثالهم قال الله عنهم ﴿ الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَنْ ذِكْرِي وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا ﴿١٠١﴾ ﴾، (الكهف: ١٠١). وقد سُئِلَ الدكتور عبد الملك السعدي حول الفتوى في هذا الأمر فرأيت أن انقله بالكامل لما فيه من الفائدة:

السؤال: ما هو حكم الشريعة في الغناء من الرجل والمرأة وما حكم الموسيقى المقترنة

---

(١) صفوة التفاسير، محمد علي الصابوني، ج/٢، ص٤٨٧-٤٨٨.

به أو منفردة عنه؟

الجواب: هذا السؤال ذو شقين الغناء والمغني.

أولا: الغناء

الغناء... كلام منظوم حسنه حسن وقبيحه قبيح.

فالحسن.. هو المدح المعتدل، والرثاء بدون مغالاة، والشعر الحماسي الباعث على البطولة كما سنذكر من غناء يوم بعاث[1]، وما فيه من حث على الخير والعمل الصالح، والشعر الوطني المحبب للوطن وللحفاظ عليه، ومدح الباري جل شأنه ودعاؤه، ومدح النبيﷺ وإخوانه وأصحابه الصالحين دون مبالغة فهذا مباح يجوز التغني به وسماعه.

القبيح.. ما فيه إثارة الفتنة أو إثارة الغريزة كالشعر الغزلي وما فيه وصف النساء أو فيه غرام وحب وهوى جنسي فهذا يحرّم التغني به وسماعه.. والأدلة على ذلك:

منها قوله تعالى ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡتَرِي لَهۡوَ ٱلۡحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ ۝٦ ﴾. والغناء الماجن من لهو الحديث لا من خيره وحسنه. ومنها قول رسول الله ﷺ ((**إن الغناء ينبت النفاق في القلب كما ينبت الماء البقل**)) رواه الترمذي والإمام احمد. وما ينبت النفاق يُحَرم قوله وسماعه.. ومن ذلك نهيه ﷺ عن بيع وشراء القينات، أي الجاريات المغنيات. حيث يقول ﷺ ((**لا تبيعوا القينات ولا تشتروهن ولا تعلموهن ولا خير في تجارة فيهن وثمنهن حرام**)) رواه الترمذي والإمام احمد وابن ماجة.. والنهي عن شرائهن وتحريم ثمنهن دليل على تحريم فعلهن وقولهن، قد ورد بروايات متعددة وبطرق مختلفة حتى بلغ درجة الحسن لغيره وان كان سند كل رواية فيها ضعف إلا أنها بمجموعها تبلغ درجة الحسن لغيره.

---

(١) يوم بعاث: يوم مشهور عند العرب حدث فيه قتال بين الأوس والخزرج دام مائة وعشرين عاما إلى ان من الله عليهم بالإسلام فانتهت. وبعاث موقع في بني قريظة وقعت فيه الواقعة / راجع العيني في شرح البخاري، ٢٦٩/٦.

ثانيا: المغني

وهو إما ذكر أو أنثى: فالذكر.. يجوز أن يغني للذكور إذ لا تحصل بصوته فتنة لهم إذا كان غناؤه من النوع الحسن.. وأما المرأة.. يجوز أن تغني للنساء لأنه لا يحصل بصوتها فتنة لهن ولاسيما إذا كانت جارية[1] صغيرة وكان الغناء من النوع الحسن.

فقد روى البخاري عن عائشة رضي الله عنها قالت: ((دخل عليّ أبو بكر ﷺ وعندي جاريتان تغنيان بغناء يوم بعاث فانتهرني وقال (مزمارة الشيطان عند النبي ﷺ) فأقبل عليه رسول الله ﷺ فقال (**دعهما**) فلما غفل غمزتهما فخرجتا)) رواه البخاري (باب الحراب والدرق يوم العيد).

أما غناء الجنس لغيره، كأن تغني المرأة للرجال أو للرجال والنساء أو الرجل للنساء كما في الوسائل الصوتية والمرئية الآن فعلى من يرى أن صوت المرأة عورة وهي رواية عن الإمام احمد والمرجوح عند الحنفية والمشهور لدى الإمامية فإنها آثمة إذا غنت وحرام الاستماع إليها.. وأما على من يرى أنه ليس عورة وهم الجمهور ففيه تفصيل:

إن غنت بصوت مرقق وخاضع وفيه تليّن وتميّع تستميل به الرجال ويحصل فتنة حُرّم عليها الغناء، وان أظهرته بشكل طبيعي وبصوت غليظ وكان من النوع الحسن فلا أرى مانعا من ذلك لأنه لا يثير الغرائز وكذا حكم الاستماع إليه إن استمع إليه ببراءة وعدم طمع فلا مانع. والدليل على ذلك قوله تعالى ﴿...فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ..﴾، (الأحزاب: من الآية٣٢)، ولم يقل ولا تقلن بل قال لا تخضعن بالقول، وبالنسبة للرجل جُعل المحذور الطمع الذي في قلبه ويعني به الافتتان والغريزة الجنسية.

هذا التفصيل إذا خلا من المعازف أما إذا اقترنت به المعازف (كالموسيقى) المهيجة فانه حرام لغيره استماعه لاقترانه بمحرم.. ومن أدلة تحريم المعازف.. ما روى البخاري -في باب ما جاء من يستحل الحِر- عن أبي مالك الأشعري انه سمع النبي ﷺ يقول: ((**ليكونن من أمتي أقوام يستحلون الحِر -بكسر الحاء وتخفيف الراء أي الفرج- والحرير والخمر والمعازف**))... ووجه الاستدلال به أن المعازف محرمة واستحلالها كفر

---

(١) الجارية: هي العبدة الصغيرة دون البلوغ وسميت بذلك لكثرة جريانها بالذهاب والإياب.

وقد قرنها ﷺ بالخمر والحرير والزنا. وكذا إذا ظهرت المغنية على الرائي (التلفزيون) وهي متبرجة ووضعها مثير فانه حرام لغيره مطلقا.

وقد أخطأ من أطلق العنان لبعض الفنانات بالإباحة مطلقا ولو من على شاشات التلفاز وبشكل مثير ومعه التبرج أو قال بإباحته مطلقا، وكذا من يفسر الحديث أعلاه بأن المراد أن يجتمع الكل في آن واحد أي تحرم المعازف إذا كانت مقترنة بالخمر والحرير والحِر فإنه لم يتذوق العربية ولم يعرف أن الواو لمطلق الجمع وليس (واو) حال أو (واو) معية فقط، وكذا من طعن بإسناد الحديث بأنه معلق ويرفض ما قام به ابن حجر العسقلاني في إثبات وصله وكل ذلك لأجل أن يرضي المجتمع على حساب غضب الله تعالى ورسوله. نعوذ بالله من علم يسخر لمجاراة الناس ومحاباتهم[1].

أما الدكتور عبد الكريم زيدان فيقول في مفصله حول هذا الموضوع وبعد أن يفصل كل ما يخصه، وتاريخ نشوء الغناء وتطوره، وأساليبه، وما ذهب إليه الأئمة والعلماء من مختلف المذاهب ما نتيجته:

وفي ضوء ما ذكرنا كله لا يبدو لنا سائغاً سماع الغناء في المذياع في الراديو أو التلفزيون لما فيه من الفتنة الظاهرة ولما يقترن به، مما يجعله محظوراً على النحو الذي بيناه، لاسيما أغاني التلفزيون حيث تجتمع الصورة وما فيها من فتنة وشبه عري مع حركات المغنية وما فيها من فتنة وإثارة، ومع الصوت المفتن، وبالإضافة إلى ذلك كله فإن الغناء قلما تخلو ألفاظه وعباراته من الخنا والفحش ووصف محاسن النساء وإثارة الشهوات، وكذلك الحال في أغاني الذكور من صبيان مرد، ومن شباب مخنثين، ومن رجال متصابين. وفي ضوء هذا الواقع يمكن القول أن غناء المغنيات والمغنين في الراديو والتلفزيون على النحو الذي وصفناه —وهو الواقع— لا يجوز، وإن الاستماع إليه لا يجوز لاسيما أغاني التلفزيون[2].

الحقيقة العلمية: يقول الدكتور فائق السامرائي: إن للموسيقى تأثيراً علاجياً كما

---

(١) جاءت هذه المقالة في مجلة التربية الإسلامية العدد السابع، السنة ٣٤ ذو الحجة ١٤١٩ هـ، ١٩٩٩م ص٣٩٥-٣٩٧.

(٢) المفصل في أحكام المرأة والبيت المسلم في الشريعة الإسلامية، د. عبد الكريم زيدان، ج/٤، ص٩١.

أثبتت البحوث الحديثة، فحالياً هناك الكثير من المعاهد العلاجية في دول عديدة تأخذ بنظرية الموسيقى والعلاج النفسي بواسطة الموسيقى.. يقسم شيكوفنسكي أستاذ الأمراض النفسية والعصبية في جامعة صوفيا طرائق هذه المعالجة الطبية الموسيقية إلى خمسة أنواع وكالآتي:

١- المحيط الخلفي العلاجي: وذلك بوساطة بث برامج موسيقية غير منتقاة تشيع جواً هادئاً أثناء العمل والطعام والمطالعة في المستشفى.

٢- العلاج التأملي الموسيقي: تجري على شكل جلسات فردية أو اجتماعية، وفيه تنتقى الموسيقى انتقاءاً يتلاءم مع شخص المريض وأسلوب علاجه، فالكآبة لها موسيقاها، وكذلك الجنون والحزن وغيرها. فآلات النفخ الهوائية تزيد من حالات التوتر والاضطراب وعدم الراحة، بينما الوترية والبيانو تضفي جواً رقيقاً هادئاً.

٣- العلاج الجماعي الموسيقي: ويعتمد على الحركات الراقصة المشابهة للتمارين الرياضية ويشترك فيه الإيقاع مع الموسيقى لإعطاء توافق بين الفعاليات الحسية والجسدية. ويتطلب هذا النوع تظافر جهود كل من مصمم الرقصات والمعالج الموسيقي والطبيب لوضع برنامج علاجي بكل مواصفاته. وهنالك أساليب أخرى لهذا النوع من العلاج يدخل فيه التنويم المتزامن مع الموسيقى، وطرق وتقنيات مختلفة أخرى لتنفيذ العلاج بحسب إمكانات المعهد ومقدرة معالجيه على الابتكار.

٤- العلاج الدوائي: يتم هذا العلاج أما بشكل فردي أو جماعي سواء كان عزفاً أو غناءً مع تفضيل الشكل الجماعي على الفردي. وهنالك توقيتات لجلسات هذا العلاج حسب ما يراه الطبيب، وتنتقى الموسيقى والكلمات حسب حالة المريض. وهو مطبق منذ قرن من الزمن في بريطانيا ثم كندا وبلغاريا وبقية دول العالم، كما أثبت أنه يفيد الأطفال خصوصاً لحالات العوق العقلي والانحراف السلوكي والأمراض العقلية والعصبية.

٥- العلاج الموسيقي الإبداعي: وقسمها شواب عام ١٩٧٤م إلى ثلاثة أنماط: لحني وإيقاعي وارتجالي، ويتم الأداء فيها من قبل المرضى.

ثم توصل الباحث في نهاية البحث إلى أن الموسيقى علاج مساعد وثانوي وليس أساسي، فهو لا يرقى إلى مستويات العلاجات الطبية التقليدية، ويمكن درجه ضمن قائمة المؤثرات الثقافية التي يمكن استخدامها ضمن وسائل العلاج الذي يهدف إلى إزالة

المتسلط النفسي للمريض بعد تشخيصه وتصميم الطرق العلاجية الكفيلة بتخفيفه والتخلص منه. كما أنها تساعد في تحرير المريض من المتسلط المرضي النفسي للانحرافات العاطفية والهواجس والأوهام والتخيلات والانحراف الغريزي[1].

لقد أوضحنا في كتابنا (**المنظار الهندسي للقرآن الكريم**)، الأشكال الذبذبية لأصوات الآلات الموسيقية المختلفة، وكيف أن هذه الأصوات درست علمياً بشكل مفصل بما يتعلق بعلم الصوت وهندسته وكيف أنها تحمل شدة ضوضاء عالية، وإذا ما ربطنا هذا مع ما توصل إليه الأطباء النفسانيون بتأثير الموسيقى كعلاج ووقاية –وليس تأثيرها على الأشخاص الأسوياء– فإن نتائجها ليست أساسية كما تم توضيح هذا في البحث السابق، بل إنها أحياناً تؤدي إلى عكس النتائج كالاضطراب النفسي والانحراف الغريزي والأوهام والتخيلات خصوصاً إذا ما صوحبت بصور مرئية مليئة بمحركات الشهوات والأمراض والعقد النفسية التي يتلقاها المتلقي بشكل يؤثر سلباً على نفسيته وبالتالي على تصرفاته.

ولعل العود الحميد إلى الله تعالى لكثير من أهل الوسط الفني في مصر، واعتزالهم العمل فيه بوضعه المزري الذي لا يبني عقلاً ولا خلقاً من جهة، وانتحار عدد من الفنانات والفنانين من مختلف الجنسيات أو إصابتهم بأمراض نفسية أو عقلية أو جسمانية من جهة أخرى، يوضح دون أدنى شك لكل مراقب مدى اضطراب الحالة النفسية لأهل هذا الوسط خصوصاً من لديه حس مرهف منهم وهم يرون أمام أعينهم مستنقع الانحطاط والسوقية والإسفاف الذي وقعوا فيه، فتراهم إما أن يعودوا ويتوبوا ويعتزلوا، أو يحصل لهم تطرف في السلوك كردة فعل على الرفض الداخلي لما هم فيه فينتحروا أو يصابوا بمرض معين، والعياذ بالله!... نسأل الله تعالى ان يكون هذا العود الحميد لكثير من هؤلاء الفنانين والفنانات إلى رشدهم، وارتداء الكثيرات منهن الحجاب واعتزالهم الرذيلة التي سموها فناً لهو الخير والأمل في أسلمة فننا وتطهيره من الدس اللعين للحاقدين من بعض أهل الغرب.

وإذا ما حولنا نظرنا صوب التأثير النفسي والروحي لكتاب الله فإننا نجده شفاءً

---

(١) العلاج بالموسيقى، الدكتور فائق السامرائي، مجلة علوم العراقية، العدد ٥٧، ص١٢-١٣.

للمرضى وراحة للمتعبين وهدوءاً وسكينة للأسوياء، فهذا ما أثبتته معاهد كبيرة في الولايات المتحدة الأمريكية ودول أخرى عديدة إسلامية وغير إسلامية، فمنذ عدة سنوات والبحوث مستمرة حول هذا الموضوع ووصلت إلى دراسة الموجات الصوتية للقرآن الكريم الذي أدخل بصوت الحاسوب وتأثيره على المرضى والأصحاء، وأثبتت فيه أن تأثيره مهماً جداً وأكثر أهمية من الموسيقى العلاجية.. على أن هذا الأمر يجب أن ينتبه إليه المسلمون بشكل حذر، فإذا كان على أساس علمي بحت فمرحباً به، أما إذا كان يهدف إلى تحويل أنظار العالم من المعاني الروحية العظيمة للقرآن الكريم والأمور التشريعية والعلمية الرائعة التي جاءت فيه صوب مقارنته بالموسيقى فإن هذا هو الكيد بعينه.

إن الإسلام لا يعارض أي غريزة أعطاها الله للإنسان، فغريزة التمتع بالأصوات الشجية هو شيء جميل وافقت الشريعة الغراء عليه، فوضعت له الأطر والقوانين المثلى التي تمنعه من الانحراف.. فالإسلام الذي شرعه خالق البشر قد اعطى الأمر بناءً على القمة العليا للعلم، إذ إن الموسيقى المبنية على الآلة وليس الصوت البشري أو الحيواني سيكون لها تأثيرات سلبية جانبية على السلوك البشري عموماً، فضلاً عن الأصوات البشرية التي تعمل على تخريب الأخلاق وإفساد الذمم بالكلام المعسول الذي لا ينفع، وهذا ما نلمسه اليوم في مجتمعاتنا التي اضحت مدمنة على سماع المسكرات الصوتية والمخدرات الموسيقية.

وحيث إن العلم البشري لم يصل بعد إلى نهايته فإن دراسة التأثيرات الموسيقية على السلوك لم تبلغ مواصفاتها النهائية بسبب عدم معرفة الإنسان وإحاطته بكافة جوانب عقله واستغلاله بشكل صحيح. وعلى هذا الأساس كان تعامل الإسلام مع سماع المعازف والأغاني –بالصورة التي بيناها آنفاً– والتي تؤدي إلى الانحراف السلوكي الذي نجده اليوم واضحاً أمامنا، فجاء هذا التعامل على أساس هذا الباب وليس غيره، فهو تعامل علمي قبل أكثر من ألف وأربعمائة عام بدأ علماء اليوم—وليس السفهاء– يتعاملون معه ويذهبون إلى صحة مذهبه.

لننظر الآن إلى المسألة من ناحية علمية بحثية بعيدا عن العواطف والاتجاهات الفكرية:

فقد قام باحثون من جامعات أمريكية متعددة بدراسة إحصائية دامت سنين عديدة

حول المتزوجين من علاقة تسبق الزواج من عشق وغيره ونشرت عام ١٩٩٧م، واتضح من هذه الدراسة أن اكثر نسب الطلاق، والانفصال وعدم التفاهم بعد الزواج، كانت من هؤلاء وهذه النسبة اكبر بكثير من الزواج المتأني والناضج والمعتمد على التعارف بعد الزواج عند العوائل المحافظة على تقاليدها، كما وأعطى البحث دراسة إحصائية حول موضوع الحالات النفسية للأزواج قبل وبعد الزواج وتبين أن اكثر المشمولين بالدراسة يكذبون على الطرف الآخر قبل الزواج ويبنون حياتهم على كذبة ثم يزول القناع بعد الزواج لتتبين الحقائق التي تصدم الطرف الآخر فيكون رد الفعل عنيفا ويحصل التباعد والتنافر والطلاق أحيانا كثيرة وكذلك الخيانات الزوجية وغير ذلك من الأمور التي أدت إلى تدمير الأسر وتفككها وبالتالي انحلال المجتمع وأثبت في نهاية البحث أن موضوع العشق والهوى هذا ما هو إلا كذبة كبيرة تخدع الكثيرين وأن الزواج الناضج المتأني هو الادوم والأكثر استقرارية واتزان، وقد شمل البحث أشخاصا مختلفي الأعمار والوظائف والأحوال الاجتماعية والاقتصادية[1]. ومن أراد التفصيل في هذا الأمر فبإمكانه الرجوع إلى أطباء نفسيين متخصصين في هذا المجال وعلماء اجتماع ليعلموا هذه الحقيقة علمياً وعملياً وواقعياً.

ولئن كان العلم قد توصل إلى أن القشرة الدماغية لدى البشر متطورة ومعقدة بشكل عظيم جداً، وأن الجهاز المسؤول عن الانفعالات ومنها الحب والعواطف الموجود في الفص الأيمن للدماغ يحفز الهرمونات الجنسية لأداء وظيفتها، فإن عملية الخفقان والاضطراب الذي يحصل للقلب والمرافقة لعملية النظر إلى الجنس الآخر لم يتوصل العلم لحد الآن لفهم مكنوناتها وأسرارها العجيبة فهي لا تزال قيد البحث والدراسة، وإن كل ما توصل إليه العلم في هذا المجال هو أن الاضطراب القلبي مصاحب لكل انفعال عاطفي حزناً كان أم فرحاً، غضباً أم خوفاً يأتي بسبب إفراز هرمونات ومواد معينة كمادة الأدرينالين مثلاً في حالة الخوف. وإن الاضطراب القلبي الناتج عن فعل المحرمات

---

(١) خبر سمعته من إذاعة بغداد ونشر في صحف محلية عديدة، وأكده الدكتور يوسف القرضاوي في برنامج الشريعة والحياة الذي تبثه قناة الجزيرة القطرية الفضائية وكانت الحلقة حول موضوع علاقة الجنسين قبل الزواج ١٩٩٩م.

كالسرقة والرشوة والزنا والنظر إلى الجنس الآخر يأتي من حيث شدته بالمرتبة الثانية بعد حالة الخوف المباشر. إلا أن الإسلام العظيم قد حسم الأمر بقوله تعالى:

﴿ قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ۖ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ۖ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَىٰ عَوْرَاتِ النِّسَاءِ ۖ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ ۚ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣١﴾ ﴾، (سورة النور)، فقد ربط بين النظر والشهوة الجنسية ربطاً سببياً واضحاً. وهنا دعوة إلى المتخصصين في مجال النفس والجملة العصبية والدماغ إلى سبر أغوار هذا اللغز وخصوصاً من لديهم حسٌ ديني وخلقي كي لا ندع الشيطان وحزبه يتمكنوا منا، وصدق الله العظيم إذ ينبئنا أن فعل الشيطان وجيشه في شياطين الإنس والجن سيتمكن ممن يتولونه ويتبعونه، فيقول الحق جلَ وعلا ﴿ وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعِدْهُمْ ۚ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا ﴿٦٤﴾ ﴾، (الإسراء: ٦٤).

إن التحليل المنطقي للحالة هو أن غريزة الجنس تتحرك داخل النفس البشرية عند رؤية الجنس الآخر إذ يقع منها موقعا يحرك النزوات الشهوانية وتعتمد هذه الحالة على التراكم النفسي للشخص والجو البيئي والتربوي له وتختلف درجتها من شخص إلى آخر، هذه النزوة تتحول إلى رغبة جامحة وخصوصاً عند اللذين لهم حالات عاطفية متهيجة كالمراهقين أو أصحاب التطرف الجنسي والأمراض النفسية المرتبطة بالجنس ولكن دور القلب هنا يشبه دور المعارضة في العمل السياسي إذ أن له صوت آخر يمتزج مع صوت النفس الراغبة والتي تشتهي دائما كالطفل المدلل الذي لا يمل من الطلبات، وصوت القلب هذا لا يعرف الكذب فهو كالجهاز المبرمج لأداء وظيفة ووظيفته هو إرشاد الإنسان إلى صحة العمل الذي يقوم به فإذا ارتكبت الحواس أي عمل لا يرضاه الله تعالى

فإن القلب يضطرب كما هو الحال عندما يقدم إنسان على سرقة أو رشوة أو قتل أو غش أو كذب أو نظرة إلى امرأة أو سماع لكلام يثير الشهوة وكذلك في حالة الخوف.. وهكذا هنا القلب يضطرب لأنه يرفض هذه الحالات لأن الله تعالى فطره على هذا العمل وإذا استمع الإنسان لهذا الصوت سلم أما إذا لم يفهمه أو لم يستمع إليه فإن الصدأ يصيب القلب شيئا فشيئا حتى يصبح الأمر طبيعياً لدى الشخص صاحب هذا القلب وهؤلاء هم أصحاب القلوب الميتة.

هذه الحقائق العلمية هي التي يعتمد عليها جهاز الكشف عن الكذب إذ يضطرب القلب عندما يكذب بذبذبات أسرع من الحالة الطبيعية بسبب إفراز مادة الأدرينالين، فيسجل الجهاز هذه الذبذبات ويتبين إن كان الرجل يكذب أم لا. وهكذا فإن القلب كأنما ينادي صاحبه، أن احذر يا حاملي فإنك تخالف أمر الله ولا يحق لك عمل ذلك، وهذا الأمر بالضبط هو مفتاح اللغز الذي لم يفهم عند الكثيرين فيفسرون خفقان القلب على انه صوت يدعوك لعمل الشيء الذي ترغب النفس له، ولكن الحقيقة هو أن الصوت هذا هو صوت معارض لرغبة النفس لذلك فمن يستمع إليه فإن هذا يقوده إلى تزكية نفسه وتعويدها على تحمل الضغط النفسي الناتج من الغرائز الزائدة عن الحاجة البشرية، ومن لا يستمع إليه فإنه سيتبع هواه وغرائزه وينحدر إلى الحيوانية حتى وإن كان مثقفاً أو متعلماً علماً مادياً إلا أن ميكانيكية سيطرته على هواه لا تزال جاهلة وأمية.

والدليل العلمي لهذا إضافة إلى ما سبق يكمن في حالتين:

الأولى هو أنه في الحيوانات عند رؤية الجنس الآخر لها لا يضطرب قلبها وهذا منطقي شرعا إذ أن الحيوانات فُطرت على الغريزة. وأما الحالة الثانية فتخص البشر إذ أن المتزوجين لا يتعرضون لاضطراب قلبي عند ممارسة الجماع مع أزواجهم أو عند رؤيتهم ما يثير الشهوة الجنسية فيهم بنفس الشدة التي تحصل عند ممارسة الزنا والعياذ بالله، وهذا دليل أن القلب هنا لا يعترض على هذا إذ أن الأمر لا خطأ فيه ولا جريرة ولكنه مع الأسف يفسر عند الكثيرون خطأ على أن الحب قد مات بين الزوجين بينما هو في الحقيقة الحالة الطبيعية لعمل القلب..

إذن نحن أمام حقيقة علمية وواقعية تقول إن هذا الأمر كله مبالغ فيه وإن التركيز يجب أن ينصب على كيفية إرشاد الناس إلى الزواج الصحيح وبناء الأسر بشكل عقلاني

وملتزم لا كما يطبل ويزمر له جنود إبليس وخدمة الماسونية والصهيونية من الفنانين والمطربين علموا أم لم يعلموا، فإن كنت لا تدري فتلك مصيبة وان كنت لا تدري فالمصيبة أعظم، وإن الحب الذي زوروه وحرفوه هو الحب الملائكي العظيم الذي ليس فيه استفادة مادية ولذة شهوانية بل هو حب روحي لمساته وجدانية صافية تسمو بالنفس وتجعلها في مرحلة ملائكية راقية سامية ألا وهو حب الله ورسوله ﷺ ودينه وقرآنه وحب الوالدين والأولاد والأسرة والوطن والأمة والإخوان والأصحاب مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾ ﴾، (آل عمران: ٣١)، بينما الحب غير السامي ربطه الله تعالى بالشهوة المحرمة والمقصود بها في غير أبواب الحلال في قوله تعالى:

﴿ ۞ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِى ٱلْمَدِينَةِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفْسِهِۦ ۖ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا ۖ إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ ﴾، (يوسف: ٣٠).

ومن يشأ التفصيل في موضوع الأثر الذي يتركه التلاعب بمشاعر الناس باستخدام موضوع الحب هذا عن طريق التمثيل والغناء، فهناك كتب صدرت عن الماسونية في الوطن العربي وسيجد فيها صور فوتوغرافية لممثلين وفنانين مصريين من الجيل القديم وهم يؤدون القسم الماسوني، هؤلاء الذين دفعوا المجتمع إلى الانحراف الخلقي والتفسخ والتهتك فعمت الفوضى، وانقلب الابن والبنت على والديهما تحت شعارات باطلة، وانتشر الزنا، وابتعدنا عن كل خلق وسمو ومعروف دافعت عنه أجيال وسالت بسببه دماء زكية واستشهد في سبيله مئات الألوف والملايين من أبناء هذه الأمة العظيمة، ونسينا قول الله ﷻ ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً ۖ وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾ ﴾، (الإسراء: ٣٢)

ولم يقل (ولا تزنوا) أي كل المقربات والمؤديات إلى الزنا يجب مقاطعتها، وكذلك قوله ﷺ: ((**كتب على ابن آدم نصيبه من الزنا ذلك لا محالة فالعينين زناهما النظر والأذنان زناهما الاستماع واللسان زناه الكلام واليد زناها البطش والرجل زناها الخطا والقلب يهوى ويتمنى ويصدق ذلك الفرج ويكذبه**))[1]، وقوله ﷺ ((**إذا زنى**

---

(١) أخرجه البخاري (الاستئذان ٦٢٤٣، والقدر ٦٦١٢)، مسلم (القدر ٢٦٥٧)، وأبو داود وأحمد.

العبد خرج منه الإيمان فكان على رأسه كالظلة فإن أقلع رجع إليه)) رواه أبو داود والحاكم والصحيح الجامع ٥٨٦، والحقيقة أن الإنسان يجب أن يقي نفسه وأولاده وأهله من الأسباب المؤدية إلى الزنا وأخطرها النظر إلى ما فشا من تبرج وسفور وخلاعة تصديقا لقول رسول الله ﷺ ((**إن من أشراط الساعة أن يرفع العلم ويثبت الجهل ويشرب الخمر ويظهر الزنا**))[1].. وليعلم أولياء الأمور انهم مسؤولون أمام الله عن هذا لقوله ﷺ ((**أن الله سائل كل راع عمّا استرعاه أحفظ أم ضيع، حتى يسأل الرجل عن أهل بيته**)) رواه النسائي في الكبرى ٩١٧٤، السلسلة الصحيحة ١٦٣٦، وقد ذكرنا الآثار الصحية السيئة للزنا في كتاب الطب من هذه السلسلة.

فصدر وصدق قول الله تعالى في حق أدعياء الفن هؤلاء:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُوا۟ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا۟ فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ ﴿١٠﴾ ﴾، (البروج: ١٠).

﴿ وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُوا۟ مَيْلًا عَظِيمًا ﴿٢٧﴾ ﴾، (النساء: ٢٧)... وصدق المثل الأجنبي الذي يقول: (إن الأغبياء فقط يقعون في الحب).

أسال الله أن يهدينا ويهديهم أجمعين ويعيدنا إلى ديننا الحق عودة حميدة، إلى دين العزة والرفعة والمجد والعلم العظيم والخلق الكريم، الدين الذي وصلت به هذه الأمة إلى منزلة لم تصلها أمة عبر التاريخ.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين وأفضل الصلاة وأتم التسليم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين. اللهم لك الحمد ملء السماوات وملء الأرض وملء ما شئت من شيء بعد.

إلى اللقاء مع الكتاب القادم والسلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته.

---

(١) أخرجه البخاري (العلم ٨٠)، ومسلم (العلم ٢٦٧١)، الترمذي (الفتن ٢٢٠٥)، وابن ماجه وأحمد.

الملحق

تاريخ التشريع الإسلامي

تاريخ التشريع الإسلامي[1]

التشريع الإسلامي: التشريع أو الفقه الإسلامي هو مجموعة الأحكام الشرعية التي أمر الله عباده بها، ومصادره أربعة وهي التالية:

١. القرآن الكريم.

٢. السُّنَّة النبوية.

٣. الإجماع.

٤. القياس.

سوف نتناول في بحثنا في هذا الملحق مواضيع تتعلق بالشريعة الإسلامية وتاريخها وكيفية تكاملها وكيفية وصولها إلينا، وسنفصِّل مصادر التشريع الإسلامي ونشرح كيفية تدوين القرآن والسنة مع ذِكر آراء ومذاهب الصحابة، ونركز على مسألة المذاهب ونشأتها ووجه الحاجة إلى أن يتبع المسلم مذهباً من هذه المذاهب، ذلك لأن الكثيرين لا يعلمون شيئاً عن كيفية نشأتها، ومن ثم فهم لا يعلمون لماذا ينبغي لهم أن يتبعوا واحداً منها. وهذا بحث ينبغي على كل مسلم أن يتعلمه لأنه يتعلق تعلقاً وثيقاً بأساس الدين.

وسنبدأ إن شاء الله تعالى بدراسة تاريخية للشريعة الإسلامية منذ فجر ظهورها تقريباً إلى يومنا هذا، سائلين المولى عز وجل أن يتقبل منا عملنا المتواضع جداً بقبول حسن، كما نرجو من الإخوة والأحبة أن لا يقصروا كما عودونا بأي نصيحة أو اقتراح، جزاكم الله تعالى عنا كل خير.

أدوار تاريخ التشريع الإسلامي

ينقسم تاريخ التشريع إلى ستة أدوار:

١. **الدور الأول:** التشريع في حياة رسول الله ﷺ.

٢. **الدور الثاني:** التشريع في عصر كبار الصحابة (من سنة ١١ إلى سنة أربعين هجرية).

٣. **الدور الثالث:** التشريع في عهد صغار الصحابة ومن تلقى عنهم من التابعين.

---

(١) الموسوعة الإسلامية المعاصرة، قرص مدمج/ تاريخ التشريع الإسلامي.

٤. **الدور الرابع**: تدوين السنة وأصول الفقه وظهور الفقهاء الأربعة الذين اعترف الجمهور لهم بالإمامة والاجتهاد المطلق، وأنه من اتبع واحداً منهم كان ناجياً عند الله تعالى إن شاء الله عز وجل.

٥. **الدور الخامس**: القيام على المذاهب وتأييدها وشيوع المناظرة والجدل من أوائل القرن الرابع إلى سقوط الدولة العباسية.

٦. **الدور السادس**: من سقوط بغداد على يد هولاكو إلى الآن وهو دور التقليد المحض... ولا يعني هذا بأي حال من الأحوال توقف الاجتهاد، فالمسائل المستحدثة والمستجدة التي تستوجب الفتوى فإن هناك من علماء الأمة من يتصدى لها مخلصاً النية لله تعال معتمداً على مصادر التشريع الرئيسية.

مصادر التشريع الإسلامي: مصادر التشريع الرئيسية في الإسلام أربعة، وهي:

١. **القرآن الكريم**: وهو كلام الله تعالى وهو المصدر والمرجع لأحكام الفقه الإسلامي، فإذا عرضت لنا مسألة رجعنا قبل كل شيء إلى كتاب الله عز وجل لنبحث عن حكمها فيه، فإن وجدنا فيه الحكم أخذنا به، ولم نرجع إلى غيره. ولكن القرآن لم يقصد بآياته كل جزئيات المسائل وتبيين أحكامها والنص عليها، وإنما نص القرآن الكريم على العقائد تفصيلاً، والعبادات والمعاملات إجمالاً ورسم الخطوط العامة لحياة المسلمين، وجعل تفصيل ذلك للسنة النبوية. فمثلاً: أمَرَ القرآن بالصلاة، ولم يبين كيفياتها، ولا عدد ركعاتها. لذلك كان القرآن مرتبطاً بالسنة النبوية لتبيين تلك الخطوط العامة وتفصيل ما فيه من المسائل المجملة.

٢. **السُنَّة النبوية**: وهي كل ما نقل عن النبي ﷺ من قول أو فعل أو تقرير. وتُعَدُّ في المنزلة الثانية بعد القرآن الكريم، شريطة أن تكون ثابتة عن الرسول ﷺ بسند صحيح، والعمل بها واجب، وهي ضرورية لفهم القرآن والعمل به.

٣. **الإجماع**: هو اتفاق جميع العلماء المجتهدين من أمة سيدنا محمد ﷺ في عصر من العصور على حكم شرعي، فإذا اتفق هؤلاء العلماء – سواء كانوا في عصر الصحابة أو بعدهم – على حكم من الأحكام الشرعية كان اتفاقهم هذا إجماعاً وكان العمل بما أجمعوا عليه واجباً. ودليل ذلك أن النبي ﷺ أخبر أن علماء المسلمين لا يجتمعون على

ضلالة، فما اتفقوا عليه كان حقاً، فقد روى أحمد في مسنده عن أبي بصرة الغفاري رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: "**سألتُ الله عز وجل أن لا يَجمَعَ أمَّتي على ضلالةٍ فأعطانيها**"... والإجماع يأتي في المرتبة الثالثة من حيث الرجوع إليه، فإذا لم نجد الحكم في القرآن، ولا في السنة، نظرنا هل أجمع علماء المسلمين عليه، فإن وجدنا ذلك أخذنا وعملنا به... مثاله، إجماع الصحابة رضي الله تعالى عنهم على أن الجد يأخذ سدس التركة مع الولد الذكر، عند عدم وجود الأب.

٤. **القياس**: وهو إلحاق أمر ليس فيه حكم شرعي بآخر منصوص على حكمه لاتحاد العلة بينهما. وهذا القياس نرجع إليه إذا لم نجد نصاً على حكم مسألة من المسائل في القرآن ولا في السنة ولا في الإجماع. فالقياس إذاً في المرتبة الرابعة من حيث الرجوع إليه... وأركان القياس أربعة: أصل مقيس عليه، وفرع مقيس، وحكم الأصل المنصوص عليه، وعلة تجمع بين الأصل والفرع... ودليله قوله عز وجل: ﴿ فَٱعۡتَبِرُواْ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ ۝٢ ﴾ [الحشر: ٢]، أي لا تجمدوا أمام مسألة ما، بل قيسوا وقائعكم الآتية على سنَّة الله الماضية. وروى مسلم وغيره عن رسول الله ﷺ: "**إذا اجتهد الحاكم فأصاب فله أجران، وإذا اجتهد الحاكم فأخطأ فله أجر**". وروى أبو داود والترمذي عن أبي هريرة أن معاذ بن جبل رضي الله تعالى عنه أرسله رسول الله ﷺ إلى اليمن ليُعَلِّمَ الناس دينهم، فقال ﷺ: (**يا معاذ بما تقضي؟**)، قال: بكتاب الله، قال ﷺ: (**فإن لم تجد في كتاب الله؟**)، قال: فبسنَّة رسول الله ﷺ، قال: (**فإن لم تجد؟**)، قال: أقيس الأمور بمشبهاتها (وهذا هو الاجتهاد)، فقال له رسول الله ﷺ وقد تهلل وجهه سروراً: (**الحمد لله الذي وفق رسولَ رسولِ الله لما يرضي رسول الله**)، وفي رواية أخرى قال ﷺ: (**فإن لم تجد في سنة رسول الله؟**)، قال: أجتهد رأيي ولا آلو (أي أجتهد ولا أترك)... مثاله: إن الله تعالى حرَّم الخمر بنص القرآن الكريم، والعلة في تحريمه: هي أنه مسكر يُذهِب العقل، فإذا وجدنا شراباً آخر له اسم غير الخمر، ووجدنا هذا الشراب مسكراً حَكَمنا بتحريمه قياساً على الخمر، لأن علة التحريم – وهي الإسكار – موجودة في هذا الشراب؛ فيكون حراماً قياساً على الخمر.

وسيأتي فيما يلي معالجة وتعريف وتبيان كل مصدر من هذه المصادر من خلال

الحديث عن الأدوار التي مر بها تاريخ التشريع الإسلامي.

ضرورة التزام الفقه الإسلامي، والتمسك بأحكامه: لقد أوجب الله تعالى على المسلمين التمسك بأحكام الفقه الإسلامي، وفرض عليهم التزامه في كل أوجه نشاط حياتهم وعلاقاتهم. وأحكام الفقه الإسلامي كلها تستند إلى نصوص القرآن الكريم والسُنَّة الشريفة. فإذا استباح المسلمون ترك أحكام الفقه الإسلامي، فقد استباحوا ترك القرآن والسُنَّة، وعطَّلوا بذلك مجموع الدين الإسلامي، ولم يعد ينفعهم أن يتسمَّوا بالمسلمين أو يدَّعوا الإيمان، لأن الإيمان في حقيقته هو التصديق بالله تعالى، وبما أنزل في كتابه، وفي سنَّة نبيِّهِ ﷺ... والإسلام الحقيقي يعني الطاعة والامتثال لكل ما جاء به الرسول ﷺ عن ربه عز وجل مع الإذعان والخضوع والرضا.

وأحكام الفقه الإسلامي **ثابتة** لا تتغير ولا تتبدل مهما تبدَّل الزمن وتغيَّر، ولا يباح تركها بحال من الأحوال. فشرع الله صالح لكل زمان ومكان، والأدلة من القرآن والسنَّة كثيرة وعديدة. أما في الكتاب، فقد قال الله تعالى:

﴿ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾ ﴾، [الأعراف: ٣]... ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾ ﴾، [النساء: ٦٥]... ﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ۚ ﴾، [الحشر: ٧]... ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ﴿٣٦﴾ ﴾، [الأحزاب: ٣٦]...

و أما في السنة فالأحاديث كثيرة أيضاً منها:

– ما رواه البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: "**من أطاعني فقد أطاع الله، ومن عصاني فقد عصى الله**".

– ما رواه أبو داود والترمذي قوله ﷺ: "**عليكم بسُنَّتي**".

وبناءً على هذه النصوص يُعَدُّ من يختار من الأحكام غير ما اختاره الله ورسوله، قد ضلَّ ضلالاً بعيداً، قال تعالى: ﴿ فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾ ﴾، [النور: ٦٣].

وسنتناول فيما يأتي من هذا الملحق إن شاء الله تعالى معالجة أهم النقاط المتعلقة بالأدوار الأربعة الأولى فقط والتي تهمنا.

١- الدور الأول: التشريع في حياة رسول الله ﷺ الكتاب والسنة:

من المعلوم أنَّ أهم مصدرين من مصادر الشريعة الإسلامية هما كتاب الله عز وجل وسنة رسول الله ﷺ، فهما المصدران الأساسيان للتشريع الإسلامي وسائر أحكام الإسلام. ولكن في الحقيقة هناك مصدر أساسي واحد لا ثاني له للشريعة الإسلامية ألا وهو القرآن الكريم، ولكن لما أمرنا الله عز وجل أن نتَّخذ من كلام رسول الله ﷺ شارحاً ومبيِّناً ومفصِّلاً لكتابه الكريم، كانت السنة النبوية بأمر القرآن المصدر الثاني للتشريع. لقد أمرنا الله تعالى أن نطيع الرسول عليه الصلاة والسلام في ما أخبر وأن نعتمد على شرحه في غوامض كتاب الله، فطاعتنا لرسول الله ﷺ إنما هي فرع من طاعة الله عز وجل. قال تعالى: ﴿ مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ ﴾، [النساء: ٨٠].. ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾، [النحل: ٤٤].. ﴿ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَٱحْذَرُواْ ﴾، [المائدة: ٩٢].. ﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُواْ ﴾، [الحشر: ٧].. ﴿ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى ٱخْتَلَفُواْ فِيهِ ﴾، [النحل: ٦٤]..

إذاً فالشريعة الإسلامية في عهد النبي عليه الصلاة والسلام، كانت تعتمد اعتماداً فعلياً على مصدرين فقط هما القرآن والسنة، أما الإجماع والقياس فلم يكن لهما وجود في ذاك العصر لأن القياس يُلجَأ إليه عند وجود مسألة لا نص فيها، وما دام رسول الله ﷺ حياً فالنص مستمر ولا إشكال وحتى لو أنَّ النبي عليه الصلاة والسلام قاس أو اجتهد فلا بد أن يتحول هذا الاجتهاد إلى نص. وتفصيل ذلك أنه إذا اجتهد رسول الله ﷺ في مسألة فإما أن يقره الله تعالى عليها فتصبح نصاً حينئذ أو أن يصوب الله تعالى له فيكون نصاً أيضاً.

١- القرآن الكريم:

أ - تعريفه: هو كلام الله تعالى القديم، المنزل على سيدنا محمد ﷺ، المُتَعَبَّد بتلاوته، المبتدأ بـ بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين والمختتم بسورة

الناس. والقرآن الكريم هو وحي من الله تعالى للنبي ﷺ باللفظ والمعنى.

ب- الفرق بينه وبين الحديث النبوي والحديث القدسي: لكي نعرف الفرق بين القرآن وبين الحديث القدسي والحديث النبوي، نعطي التعريفين الآتيين:

- **الحديث النبوي:** هو ما أُضيفَ إلى النبي ﷺ من قول أو فعل أو تقرير أو صفة خَلقيَّة أو خُلُقيَّة. مثال القول: قوله عليه الصلاة والسلام: "**إنما الأعمال بالنيات...**"، جزء من حديث رواه البخاري ومسلم.

مثال الفعل: قول عائشة رضي الله عنها في صفة صوم النبي ﷺ: "كان يصوم حتى نقول لا يفطر ويفطر حتى نقول لا يصوم". وكالذي ثبت من تعليمه لأصحابه كيفية الصلاة ثم قال: "**صلوا كما رأيتموني أصلي** " رواه البخاري.

مثال الإقرار: كأن يقر أمراً عَلِمَه عن أحد الصحابة من قول أو فعل، سواء أكان ذلك في حضرته ﷺ، أم في غيبته ثم بلغه، ومن أمثلته: "أكل الضب على مائدته ﷺ "، فأقرهم على أكله - وهذا دليل الشافعية على جواز أكل الضب -ولم ينكر عليهم ذلك إذ يستحيل أن يرى معصية ولا ينكرها أو يسكت عنها.

فائدة: إذا فعل إنسان طاعة وسكت عنها النبي ﷺ، دل ذلك على استحبابها فضلاً عن جوازها، لأنه لا يجوز لأحد أن يختلق طاعة ما ليتعبَّد الله بها، فليس للعبد أن يتعبَّد له بأمر لم يأمره به جل وعلا، من هنا كان عدم صحة وجواز النذر إلا فيما كان من جنسه طاعة أو واجب، فمن نذر أن يشرب كوب ماء مثلاً، لا يصح نذره وبالتالي لا يلزمه الوفاء به.

مثال الصفة: ما رُوِيَ: من أنه ﷺ، "كان دائم البِشر، سهل الخلق..."، رواه البخاري ومسلم.

- **الحديث القدسي:** هو ما يضيفه النبي ﷺ إلى الله تعالى: أي أنَّ النبي ﷺ يرويه على أنه من كلام الله، فالرسول عليه الصلاة والسلام راوٍ لكلام الله بلفظ من عنده. فالحديث القدسي معناه وحي من عند الله عز وجل ولفظه من عند النبي ﷺ.

مثال الحديث القدسي: قال رسول الله ﷺ فيما يرويه عن ربه عز وجل: "**إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرماً**".

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أنَّ رسول الله ﷺ قال: يقول الله تعالى: "**أنا عند ظن عبدي بي، وأنا معه إذا ذكرني، فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي...** "، أخرجه البخاري ومسلم.

إذاً فالحديث القدسي هو حديث تلقى الرسول ﷺ مضمونه من الوحي فبيَّنه للناس بكلامه ولفظه أي أوحى الله تعالى له بالمعنى والرسول ﷺ صاغ هذا المعنى بعبارته.

– **الفرق بين القرآن والحديث النبوي:** هناك فروق عدة أهمها:

١– أنَّ القرآن الكريم كلام الله أوحى به تبارك وتعالى إلى رسول الله ﷺ بلفظه ومعناه، وتحدى به العرب الفصحاء والجن والإنس ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا، فعجزوا عن أن يأتوا بمثله، أو بعشر سوَر مثله، أو بسورة من مثله، ولا يزال التحدي قائماً، فهو معجزة خالدة إلى يوم الدين. أما الحديث لم يقع به التحدي والإعجاز. إعجاز السُنَّة لا يضاهي إعجاز القرآن رغم أنَّ السنة تُعتَبر من أفصح كلام العرب حيث ورد في الحديث الشريف أنه ﷺ أوتي جوامع الكلم، إلا أنها تأتي بالمرتبة الثانية بعد القرآن.

٢– القرآن الكريم جميعه منقول بالتواتر، فهو قطعي الثبوت، والأحاديث أكثرها ظنية الثبوت أما الأحاديث المتواترة فهي قطعية الثبوت.

فائدة: كون الحديث قدسياً لا يعني أنه متواتر أو صحيح، إذ لا علاقة بين كونه قدسياً وبين درجته، فقد يكون الحديث القدسي صحيحاً، وقد يكون حسناً، وقد يكون ضعيفاً أو حتى موضوعاً، ذلك لأن الحكم على الحديث من حيث الصحة أو الضعف إنما يكون على السند الذي وصل به إلينا.

٣– القرآن من عند الله لفظاً ومعنى، فهو وحي باللفظ والمعنى، أما الحديث فمعناه من عند الله ولفظه من عند الرسول ﷺ، فهو وحي بالمعنى دون اللفظ.

٤– القرآن نتعبَّد الله بتلاوته، فهو الذي تتعين القراءة به في الصلاة، أما الحديث فلا تجزئ قراءته في الصلاة.

ج - نزول القرآن الكريم[١]:

الراجح أنَّ القرآن له تنزلان:

الأول: نزوله جملة واحدة في ليلة القدر من اللوح المحفوظ في السماء السابعة إلى بيت العزة في السماء الدنيا. يقول الله تعالى في كتابه العزيز مبيناً هذا المعنى:

﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ ﴾، [البقرة: ١٨٥]... وقال جل وعلا: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ۝٣ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ۝٤ ﴾، [الدخان: ٣-٤]، أي في ليلة القدر وليست ليلة النصف من شعبان كما يعتقد كثير من عامة الناس... وقال تبارك وتعالى: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ۝١ ﴾، [القدر: ١].

الثاني: نزوله من السماء الدنيا إلى الأرض مفرَّقاً منجماً في ثلاث وعشرين سنة.. يقول الله تعالى: ﴿ وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا ۝١٠٦ ﴾ [الإسراء: ١٠٦]... ﴿ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ۝٢ ﴾ [الجاثية: ٢].

هذه الآيات وكثير غيرها، تفيد أنَّ جبريل عليه السلام نزل به على قلب رسول الله ﷺ، وأنَّ هذا النزول غير النزول الأول إلى السماء الدنيا فالمراد به نزوله منجَّماً أي على دفعات، ويدل التعبير بلفظ التنزيل دون الإنزال على أنَّ المقصود النزول على سبيل التدرج، فالتنزيل لما نزل مفرقاً والإنزال أعم يفيد النزول دفعة واحدة كما كان حال التوراة والإنجيل، قال تعالى: ﴿ الٓمٓ ۝١ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ۝٢ نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ۝٣ مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ ٱلْفُرْقَانَ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ۝٤ ﴾، [آل عمران].

وقد نزل القرآن منجَّماً في ثلاث وعشرين سنة منها ثلاث عشرة سنة بمكة على الرأي الراجح، وعشر بالمدينة، وكان ينزل بحسب الوقائع والأحداث خمس آيات وعشر

---

(١) لتفاصيل في هذا العلم انظر كتبنا (القرآن منهل العلوم-طبع الجامعة الإسلامية ببغداد)، وكتاب (استنباط الحلول من أسباب النزول).

آيات وأكثر أو أقل.

الحكمة من نزوله منجَّماً:

١- تثبيت فؤاد النبي ﷺ وتكريمه بإنزال الوحي عليه مراراً وتكراراً. قال تعالى: ﴿ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا ﴿٣٢﴾ ﴾، [الفرقان: ٣٢].

قال السخاوي: "في نزوله إلى السماء جملة تكريم بني آدم وتعظيم شأنهم عند الملائكة وتعريفهم عناية الله بهم، ورحمته لهم، ولهذا المعنى أمر سبعين ألفاً من الملائكة أن تشيع سورة الأنعام، وزاد سبحانه في هذا المعنى بأن أمر جبريل بإملائه على السفرة الكرام، وإنساخهم إياه، وتلاوتهم له".

٢- التحدي والإعجاز.

٣- تيسير حفظه وفهمه وتدبر معانيه والوقوف عند أحكامه.

٤-مراعاة حال المخاطَبين بالوحي وعدم مفاجأتهم بما لا عهد لهم به ومسايرة الحوادث والتدرج في التشريع.. وأوضح مثال على ذلك، التدرج في تحريم الخمر: فقد نزل قوله تعالى: ﴿ وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا ۗ ﴾، [النحل: ٦٧] أشارت الآية إشارة خفية إلى أن الخمر ليس رزقاً أي لا ينتفع به. ثم نزل قوله تعالى: ﴿ ۞ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ۗ ﴾، [البقرة: ٢١٩]، ثم نزل قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقْرَبُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ ﴾، [النساء: ٤٣]، ثم قال تبارك وتعالى مُصَرِّحاً بالنهي والتحريم القاطع في سورة المائدة: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾ ﴾، [المائدة: ٩٠].

٥-الدلالة القاطعة على أنَّ القرآن الكريم تنزيل من حكيم حميد، إذ لو كان من كلام البشر لوقع فيه التفكك والانفصام واستعصى أن يكون بينه التوافق والإنسجام، يقول تعالى: ﴿ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾ ﴾، [النساء: ٨٢]. فأحاديث رسول الله ﷺ -وهي ذروة الفصاحة والبلاغة بعد القرآن الكريم- لا تنتظم حباتها في كتاب واحد سلس العبارة، دقيق السبك، مترابط المعاني،

رصين الأسلوب ومتناسق الآيات والسوَر.

د- نزول القرآن على سبعة أحرف:

لقد كان للعرب لهجات شتى، فكل قبيلة لها من اللحن في كثير من الكلمات ما ليس للآخرين، إلا أنَّ قريشاً من بين العرب قد تهيَّأت لها عوامل جعلت للغتها الصدارة بين فروع العربية الأخرى، فكان طبيعياً أن يتنزَّل القرآن بلغة قريش تأليفاً للعرب وتحقيقاً لإعجاز القرآن... فقد أخرج أبو داود من طريق كعب الأنصاري أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه كتب إلى ابن مسعود رضي الله عنه: "إنَّ القرآن نزل بلسان قريش، فأقرِىء الناس بلغة قريش...". ولقد كان واضحاً لكبار الصحابة رضوان الله عليهم أنَّ القرآن إنما نزل بلسان قريش قوم رسول الله ﷺ، وفي ذلك حكم جليلة أهمها:

١- أنَّ قريشاً هم قوم رسول الله ﷺ وقد جرت سُنَّة الله في رسله أن يبعثهم بألسنة أقوامهم، قال تعالى: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡ ... ﴾، [إبراهيم: ٤].

٢-أنه عليه الصلاة والسلام قد أُمِرَ بتبليغهم الرسالة أولاً، قال تعالى: ﴿ وَأَنذِرۡ عَشِيرَتَكَ ٱلۡأَقۡرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ ﴾، [الشعراء: ٢١٤]. فلا بد من مخاطبتهم بما يألفون ويعرفون لِيَستبين لهم أمر دينهم. فأنزل الله القرآن بلغتهم وأساليبهم التي يفضلونها في مستوى رفيع من البلاغة لا يجارى.

٣-إنَّ لغة قريش هي أفصح اللغات العربية وهي تشمل معظم هذه اللغات لاختلاط قريش بالقبائل ولاحتوائها الجيِّد الفصيح من لغاتها.

وإذا كان العرب تتفاوت لهجاتهم في المعنى الواحد بوجه من وجوه التفاوت، فكان لا بد للقرآن أن يكون مستجمعاً وشاملاً لهذه اللهجات مما ييسر على العرب القراءة والحفظ والفهم. ونصوص السنّة قد تواترت بأحاديث نزول القرآن على سبعة أحرف.

عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: "سمعتُ هشام بن حكيم يقرأ سورة الفرقان في حياة رسول الله ﷺ. فاستمعتُ لقراءته فإذا هو يقرأ على حروف كثيرة لم يُقرئنيها رسول الله ﷺ. فكدتُ أساوره في الصلاة. فتصبَّرتُ حتى سلَّم فلبَّبته بردائه فقلت من أقرأك هذه السورة التي سمعتك تقرأ، قال: أقرأنيها رسول الله ﷺ. فقلتُ له

كذبتَ، أقرأنيها على غير ما قرأتَ. فانطلقتُ به أقوده إلى رسول الله ﷺ. فقلتُ: إني سمعتُ هذا يقرأ سورة الفرقان على حروف لم تُقرئنيها. فقال ﷺ: **أرسِلهُ. اقرأ يا هشام**، فقرا القراءة التي سمعتُه... فقال رسول الله ﷺ: **كذلك أُنزِلَت**. ثم قال رسول الله ﷺ: **إقرأ يا عمر**، فقرأتُ التي أقرأني فقال ﷺ: **كذلك أُنزِلَت. إنَّ هذا القرآن أُنزِلَ على سبعة أحرف، فاقرأوا ما تيسَّر منه** "، رواه البخاري ومسلم وأبو داود والنسائي والترمذي وأحمد وابن جرير.

قوله: "فكدتُ أساوِرُهُ في الصلاة": أي أُواثِبُه وأقاتِلُهُ، وقال النووي: أي أُعاجِلُهُ وأُواثِبُهُ... وقوله: "فلبَّبتُهُ بردائه": أي جمعتُ عليه ثوبه عند لَبَّتِهِ وجررته به لئلا يتفلت مني. واللبة: الهُزمة التي فوق الصدر، وفيها تُنحَر الإبل... وقوله: "كذَبتَ": أي أخطأتَ، لأن أهل الحجاز يُطلقون الكذب في موضع الخطأ... وسبب تخطئة عمر كان بسبب رسوخ قدمه في الإسلام بخلاف هشام فإنه كان قريب العهد بالإسلام فخشي عمر من ذلك أن لا يكون أتقن القراءة، بخلاف نفسه فإنه أتقن ما سمع، وكان سبب اختلاف قراءتهما أن عمر حفظ هذه السورة من رسول الله ﷺ قديماً، ثم لم يسمع ما أُنزِلَ فيها بخلاف ما حفظه وشاهده ولأن النبي ﷺ أقرأ هشاماً على ما نزل أخيراً فنشأ اختلافهما من ذلك. ومبادرة عمر للإنكار محمولة على أنه لم يكن سمع حديث أُنزِلَ القرآن على سبعة أحرف إلا في هذه الحادثة.

يفيد هذا الحديث أنَّ النزاع بين الصحابيين الجليلين راجع إلى كيفية تلاوة القرآن، لا إلى تفسيره وبيان معانيه وهذا يبرهن على أنَّ القرآن يُقرأُ بأكثر من وجه. وهذه الأوجه التي أُنزِلَ عليها القرآن ليست من لغة واحدة بل هي من عدة لغات عربية كلها توقيفية أي أوحِيَ بها إلى النبي ﷺ.

وروى مسلم في صحيحه عن أُبي بن كعب قوله رضي الله عنه: "كنتُ في المسجد فدخل رجل يصلي فقرأ قراءة أنكرتها عليه. ثم دخل آخر فقرأ سوى قراءة صاحبه، فلما قضينا الصلاة دخلنا جميعاً على رسول الله ﷺ. فقلتُ: إن هذا قرأ قراءة أنكرتها عليه. ودخل آخر فقرأ سوى قراءة صاحبه. فأمرهما رسول الله ﷺ فقرآ. فحسَّنَ النبي ﷺ شأنهما. فسقط في نفسي من التكذيب ولا إذ كنتُ في الجاهلية. فلما رأى رسول الله ﷺ ما قد غشيني ضربَ في صدري ففضتُ عرقاً وكأني أنظر إلى الله عز وجل فرقاً، فقال لي

ﷺ: (يا أُبَي أُرسِلَ إليَّ أن أقرأ القرآن على حرف فرددتُ إليه أن هوِّن على أمَّتي فردَّ إليَّ الثانية اقرأه على حرفين. فرددتُ إليه أن هوِّن على أُمَّتي. فردَّ إليَّ الثالثة: اقرأه على سبعة أحرف، فلك بكل ردة رددتها مسألة تسألنيها فقلتُ: اللهم اغفر لأمَّتي. اللهم اغفر لأمَّتي، وأخَّرتُ الثالثة ليوم يرغب إليَّ الخلقُ كلهم حتى إبراهيم ﷺ).

يتبيَّن من ذلك أن كل حرف من الأحرف السبعة تنزيل من حكيم حميد. وقد يتساءل المرء عن كلام الله تعالى كيف يُقرأ على سبعة أوجه..؟ وقد تعتريه الدهشة ويختلجه الشك بإثارة الشيطان وساوسه في نفسه ليكدر صفو إيمانها، ويوهن من قوة يقينها بالله ورسوله وكتابه.

وفي هذا الحديث معالجة عملية لمثل هذه الحالة النفسية الدقيقة الحرجة. فالرسول صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله يباشر بنفسه القيام بهذه المداواة.

فلقد ضرب في صدر الصحابي الجليل ضربة نبويَّة قطع بها دابر الشك الوافد قبل استقراره وتمكنه، فأخذ على الشيطان سبيله إلى قلب أبيّ، ثم أتبع ذلك ببيان يُثلِج الصدر ببرد اليقين، ويفعم القلب بنور الأيمان، أعلا مراتب الأيمان " اعبد الله كأنك تراه " مما جعل أُبياً يرى نفسه كماثل أمام الحضرة الإلهية، فغشيه شعور عظيم بالمهابة والحياء من الله، ويروعه ما كاد ينزلق فيه بعد إذ هداه الله من ضلال أشد من ضلال الجاهلية، فانتابه إحساس قوي بالخجل والوجل فلاذ بالإذعان لمشيئة الله وحكمته البالغة التي قضت بإنزال القرآن على سبعة أحرف.

ما المراد بالأحرف السبعة؟: اختلف العلماء في المراد بالأحرف السبعة، وتشعبت أقوالهم، وتعددت، ولكننا سنورد أرجح الأقوال وهو قول محمد بن الجزري في بيان المراد بحديث أُنزِلَ القرآن على سبعة أحرف.

قال ابن الجزري: لا زلتُ أستشكل هذا الحديث وأفكر فيه وأمعن النظر من نيف وثلاثين سنة، حتى فتح الله عليّ بما يمكن أن يكون صواباً إن شاء الله.

ذلك أني تتبَّعتُ القراءات صحيحها وشاذها وضعيفها ومنكرها فإذا هو يرجع اختلافها إلى سبعة أوجه من الاختلاف لا يخرج عنها وذلك:

أولاً: الاختلاف في الحركات بلا تغير في المعنى والصورة:

نحو: (البخل) بأربعة أوجه و(يحسب) بوجهين.

ثانياً: الاختلاف في الحركات بتغير المعنى فقط:

نحو: ﴿ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ﴾، [البقرة: ٣٧]، وقُرِىء بنصب "آدم" ورفع "كلمات".

ثالثاً: الاختلاف في الحروف بتغير المعنى لا الصورة:

نحو: (تبلو) و(تتلو) و(ننجيك ببدنك) و(ينجيك ببدنك).

رابعاً: الاختلاف في الحروف بتغير الصورة لا المعنى:

نحو: (بصطة وبسطة) ونحو (الصراط والسراط).

خامساً: الاختلاف في الحروف بتغير الصورة والمعنى:

نحو: (فامضوا، فاسعوا).

سادساً: الاختلاف في التقديم والتأخير:

نحو: (فيَقتُلون ويُقتَلون)، قُرِىء (فيُقتَلون ويَقتُلون).

سابعاً: الاختلاف في الزيادة والنقصان:

نحو: (أوصى، ووصى).

قال ابن الجزري: فهذه سبعة لا يخرج الاختلاف عنها.

و هنا لا بد من التوضيح بأن كل كلام الله المنزل على سيدنا محمد ﷺ منسجم يؤكد بعضه بعضاً، ويفسر بعضه الآخر، لا تصادم بين نصوصه ولا تنافي بين مدلولاته.. قال تعالى: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾ ﴾، [النساء: ٨٢]. وهذه الحقيقة تنطبق على القرآن في قراءاته على حرف أو على السبعة بمجموعها. فإنها جميعاً لا تخرج في تفاوتها إلى تصادم النصوص أو تنافي المدلولات، بل التوسعة بالأحرف السبعة لا تُحلُّ حراماً ولا تُحرم حلالاً. قال ابن شهاب الزهري: "بلغني أن تلك السبعة الأحرف إنما هي في الأمر الذي يكون واحداً، لا يختلف في حلال ولا حرام".

وحكى ابن عطية انعقاد الإجماع على ذلك: "فالإجماع أن التوسعة لم تقع في تحريم حلال، ولا في تحليل حرام، ولا في تغيير شيء من المعاني المذكورة".

حكمة نزول القرآن على سبعة أحرف:

١-تيسير القراءة والحفظ والتخفيف على العباد والتسهيل عليهم ومراعاة حال العرب في اختلاف ألسنتهم.

٢- مزيد الإعجاز اللغوي في القرآن.

٣-الإعجاز في المعاني والأحكام ذلك أن حكماً فقهياً معيناً أو معنى جديداً يُفهم من قراءة أخرى كقوله تعالى: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ ۖ قُلْ هُوَ أَذًى فَٱعْتَزِلُوا۟ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ ۖ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ ۖ ﴾، [البقرة: ٢٢٢]، وفي قراءة ﴿ حَتَّىٰ يَطَّهَّرْنَ ۖ ﴾، فأفادت القراءة الثانية عدم جواز مجامعة الرجل زوجته إذا طهرت من حيضها حتى تغتسل.

٤- توحيد لغات العرب. فلقد نزل القرآن بلسان قريش أولاً، ثم أُنزلَت الحروف لِتُسَهِّلَ تلاوته للعرب قاطبة على اختلاف لغاتهم، لأن الحروف قد راعت تفاوت اللغات في الألفاظ التي يُحرج العرب النطق بها كونها قرشية.

٥- الأحرف السبعة خصيصة لأمة محمد ﷺ. قال الإمام ابن الجزري مفصلاً حكم إنزال القرآن على سبعة أحرف: "ومنها إعظام أجور هذه الأمة من حيث إنهم يفرغون جهدهم ليبلغوا قصدهم في تتبع معاني ذلك واستنباط الحكم والأحكام من دلالة كاللفظ... ومنها بيان فضل هذه الأمة وشرفها على سائر الأمم، من حيث تلقيهم كتاب ربهم هذا التلقي وإقبالهم عليه والبحث عنه لفظة لفظة والكشف عنه صيغة صيغة، فلم يهملوا تحريكاً ولا تسكيناً ولا تفخيماً ولا ترقيقاً ... مما لم يهتد إليه فكر أمة من الأمم.

الأحرف السبعة مزية للقرآن على الكتب السماوية: قال الطبري في شرح حديث الأحرف السبعة: "ومعنى ذلك كله، الخبر منه ﷺ عما خصه الله تعالى به وأمته من الفضيلة والكرامة التي لم يُؤتها أحداً في تنزيله. وذلك أن كل كتاب تقدم كتابَنا نزوله على نبي من أنبياء الله، صلوات الله عليهم، فإنما نزل بلسان واحد، متى حُول إلى غير اللسان الذي نزل به كان ذلك له ترجمة وتفسيراً لا تلاوة له على ما أنزله الله ... ومنها ظهور سر الله تعالى في توليه حفظ كتابه العزيز وصيانة كلامه المنزل بأوفى البيان والتمييز..".

ونشير هنا إلى أن الأحرف السبعة لا تعني القراءات السبعة بل تعني سبعة أوجه في الخلاف وقد وصل إلينا عشرة قراءات متواترة لكتاب الله تعالى. القراءات هي اختلاف ألفاظ الوحي في كتابة الحروف أو كيفيتها من تخفيف وتثقيل وغيرهما. وقد عرَّف ابن الجزري القراءات بقوله: "علم القراءات، علم بكيفية أداء كلمات القرآن واختلافها حسب ناقليها".

هـ- جمع القرآن وترتيبه:

كلمة جمع تأتي بمعنيين:

المعنى الأول: بمعنى حفظه ومنه يقال جُمَّاع القرآن أي حُفَّاظه، وهذا المعنى هو الذي ورد في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ ﴾، [القيامة: ١٧] ذلك أنه كان رسول الله ﷺ يجهد نفسه ويردد وراء جبريل حين كان ينزل عليه بالوحي خشية أن لا يحفظ ما أُنزِلَ عليه فأنزل الله تعالى هذه الآية تطميناً للنبي ﷺ وتثبيتاً لفؤاده حيث أوضحت الآية الكريمة أن الله سبحانه وتعالى قد تعهد بتحفيظه إياه وعدم نسيانه وتفهيمه معناه. المعنى الثاني، جمع القرآن بمعنى كتابته كله في صحيفة واحدة بين دفتي كتاب.

١- جمع القرآن بمعنى حِفظِه على عهد النبي ﷺ:

كان رسول الله ﷺ مولعاً بالوحي، يترقَّب نزوله بشوق، فما من آية تنزل إلا ويدعو ثلة من أصحابه، اختارهم لكتابة الوحي، فيأمرهم بكتابة ما نزل. وكان كلما نزلت آية حُفِظَت في الصدور ووعتها القلوب. وقد اتخذ النبي عليه الصلاة والسلام كتَّاباً للوحي منهم: الخلفاء الأربعة، وعبد الله بن مسعود ومعاذ بن جبل وزيد بن ثابت وأبي بن كعب وخالد بن الوليد وغيرهم رضي الله عنهم. وهكذا كان القرآن يُكتَب آية فآية ومَقْطَعاً فمقطعاً. ولم يكن ترتيبه حسب ترتيب النزول بل كان سيدنا جبريل يقول للمصطفى عليه الصلاة والسلام إنَّ الله يأمرك أن تضع هذه الآية على رأس كذا آية من سورة كذا، فيأمر رسول الله ﷺ كُتَّاب الوحي بوضع هذه الآية في ذلك المكان. وعندما نزلت آخر آية -على الرأي الذي رجَّحه كثير من علماء الحديث- وهي قول الله تعالى: ﴿ وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ ۖ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ

﴿ ﴾، [البقرة: ٢٨١]، قال جبريل لرسول الله ﷺ، ضع هذه الآية على رأس مئتين وواحد وثمانين آية من سورة البقرة بين آيتي الربا والدَّين. وهكذا تكامل نزول القرآن كله، وتوفي رسول الله ﷺ بعد ذلك بتسع ليال. وكان ﷺ يعرض على جبريل كل سنة ما كان يجتمع عنده من كتاب الله، وقد عرضه كله مرتين عليه في نفس السنة التي توفي فيها ﷺ.

إذاً القرآن كان يُكتَب من فم رسول الله ﷺ، وكان الصحابة يخطّونه على جريد النخل وصفائح الحجارة ورقاع الجلد... وهذا يدل على مدى المشقة التي كانوا يتحملوها في الكتابة حيث لم تتيسر لهم أدوات الكتابة إلا بهذه الوسائل. ولم تكن هذه الكتابة في عهد النبي ﷺ مجتمعة في مصحف عام، ولم يجمع الرسول ﷺ القرآن بين دفتي كتاب في حياته لأن إمكان نزول الوحي كان مستمراً كما أنَّ إمكان نسخ بعض الآيات كان مستمراً. وقُبِضَ النبي عليه الصلاة والسلام والقرآن محفوظ في الصدور ومكتوب على نحو ما سبق، بالأحرف السبعة التي أُنزِلَ عليها، وهذا ما يسمى بالجمع الأول (حفظاً وكتابةً).

٢- ترتيب الآيات والسور: إنَّ ترتيب الآيات والسور في القرآن الكريم توقيفي عن رسول الله ﷺ عن جبريل عليه السلام عن رب العزة سبحانه وتعالى وهذا بإجماع العلماء، فقد كان جبريل عليه السلام يتنزل بالآيات ويرشد إلى موضعها من السورة أو الآيات التي نزلت قبل، فيأمر الرسول ﷺ كتبة الوحي بكتابتها في موضعها. أخرج الحاكم في المستدرك بسند على شرط الشيخين عن زيد بن ثابت أنه قال: "كنا عند رسول الله ﷺ نؤلف القرآن من الرقاع"، (أي كنا نرتب الآيات والسور وفق إشارة رسول الله ﷺ).

٢- تاريخ الحديث النبوي:

كتابة الحديث في عهد النبي ﷺ: من المتفق عليه أنَّ النبي عليه الصلاة والسلام منع أصحابه من كتابة غير القرآن في أول عهد النبوة خلال ثلاث سنوات أو تزيد قليلاً، وقد صح عنه عليه الصلاة والسلام أنه قال لأصحابه: "**لا تكتبوا عني غير القرآن ومن كتب عني فليمحه**". ولكن الأمر اختلف فيما بعد حيث سمح لهم بعد ذلك بالكتابة. لكن تُرى ما الحكمة في ذلك؟.

السبب أنَّ النبي ﷺ خشي في أول الأمر أن يلتبس على الناس أسلوب القرآن بأسلوب الحديث فيختلط عليهم هذا بذاك فيكتبون حديثاً وهم يظنونه قرآناً أو يكتبون آية وهم يظنونها حديثاً وهذا احتمال وارد جداً، لأن الصحابة لم يتعرفوا بعد على القرآن تعرفاً تاماً ولم يتذوقوه تذوقاً يجعلهم يفرِّقون بينه وبين غيره من أحاديث النبي عليه الصلاة والسلام... فلما نزل قسط كبير من القرآن، وتعرفوا إلى أصوله وخصائصه، أذِنَ لهم رسول الله ﷺ أن يكتبوا الحديث. ولقد صح عن النبي عليه الصلاة والسلام أنَّ بعضاً من الصحابة نهى عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن يكتب عن رسول الله ﷺ الحديث وقال إنَّ رسول الله بشر وهو ينطق بالغضب والرضى فلا تكتب إلا القرآن، فذهب وسأل النبي ﷺ عن ذلك فقال له: "**اكتُب، فوالله لا يخرج منه –وأشار إلى فمه– إلا الحق**". كما ورد أيضاً عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال: "لم يكن أحد من الصحابة أكثر مني حديثاً عن رسول الله ﷺ إلا ما كان من شأن عبد الله بن عمر فإنه كان يكتب ولم أكن أكتب". إذاً قِسطٌ يسير من حياة النبي عليه الصلاة والسلام بعد البعثة، الحديث لم يكن يُكتَب فيه والقسط الأكبر كان يُكتب على قطع متفرقة من الصحف والأوراق ونحو ذلك ولم يُدَوَّن – أي لم يُجمع بين دفتي كتاب – لا في حياته ولا بعد وفاته عليه الصلاة والسلام إلا في ما بعد أواخر عصر التابعين – كما سوف نرى – على يد أبي بكر بن حزم رضي الله عنه ومن ثم باقي العلماء من بعده بأمر من عمر بن عبد العزيز ثم باقي العلماء من بعده كالإمام مالك وأحمد وغيرهم.

فائدة: الفرق بين الكتابة والتدوين: الكتابة هي أن يكتب الإنسان ما يريد كتابته في أوراق متفرقة دون ضمٍ بين دفتَيّ كتاب، وهذا ما يسمى بالكتابة المطلقة. أما التدوين فهو جمع ما يراد كتابته مرتباً بين غلافين في كتاب واحد... من هنا كان خلط المستشرقين بين الكتابة والتدوين، لجهلهم باللغة العربية – إن حسنَّا الظن بهم– فقالوا إنَّ الحديث لم يُكتَب إلا بعد وفاة النبي ﷺ وانقراض عصر الصحابة والحقيقة أنَّ الحديث كُتِبَ ولكنه لم يُدَوَّن أي لم يُجمَع بين دفتي كتاب. ولقد كان عند سيدنا علي رضي الله عنه صحيفة تسمى " الصحيفة الصادقة " ولكنها ليست صحيفة واحدة فقد كان مكتوب فيها مجموعة أحاديث متفرقة، وكثيرون آخرون من الصحابة كانوا يكتبون أيضاً.

٢- الدور الثاني: التشريع في عصر كبار الصحابة

الكتاب والسنة في الدور الثاني:

توفي رسول الله ﷺ، وقد تكامل القرآن نزولاً ولكنه لم يُجمَع في مصحف واحد بين دفتي كتاب، بل كان محفوظاً في صدور الحُفَّاظ وصحف كتَّاب الوحي، وكان عدد الحفاظ في العهد النبوي كثيراً جداً. وكان قد وعى كثير من الصحابة حديث رسول الله ﷺ، بعضهم في الصدور كأبي هريرة، وبعضهم في الكتابة في السطور لا تدويناً. وتولى أبو بكر رضي الله عنه الخلافة ولا يزال التشريع يعتمد على مصدرين أساسيين هما القرآن والسنة، وسنتكلم أولاً عن القرآن وما طرأ عليه من جديد.

أ-القرآن الكريم في عهد أبي بكر رضي الله عنه

حصل في أول عهد أبي بكر رضي الله عنه ما دفعه إلى وجوب جمع القرآن كله في مصحف ذلك أنه واجهته أحداث جسام في ارتداد جمهرة العرب، فجهز الجيوش لحروب المرتدين، وكانت غزوة أهل اليمامة سنة ١٢ للهجرة تضم عدداً كبيراً من الصحابة القرَّاء، فاستشهد في هذه الغزوة سبعون قارئاً (أي حافظاً) من الصحابة، فهال ذلك عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فدخل على أبي بكر وأشار عليه بجمع القرآن وكتابته بين دفتي كتاب خشية الضياع بسبب وفاة الحفاظ في المعارك. ولكن أبا بكر نفر من هذه الفكرة وكَبُر عليه أن يفعل ما لم يفعله رسول الله ﷺ، وظل عمر يراوده حتى شرح الله تعالى صدر أبي بكر لهذا الأمر، فأرسل إلى زيد بن ثابت لمكانته في القراءة والكتابة والفهم والعقل، ولأنه كان صاحب العرضة الأخيرة على رسول الله ﷺ أي كان آخر الصحابة الذين قرأوا على رسول الله ﷺ كاملاً وقال ﷺ: "خذوا عنه القرآن " أو بما معناه، وقصَّ عليه قول عمر رضي الله عنه. نفر زيد من ذلك كما نفر أبو بكر الذي ظل يراجعه حتى شرح الله تعالى صدره لذلك. ويروي زيد بن ثابت فيقول: "قال أبو بكر: إنك شاب عاقل لا نتهمك، وقد كنتَ تكتب الوحي لرسول الله ﷺ، فتتبَّع القرآن فاجمعه. يقول زيد: "فوالله لو كلفوني نقل جبل من الجبال ما كان أثقل مما أمرني به من جمع القرآن "، وقال لأبي بكر: كيف تفعلان شيئاً لم يفعله رسول الله ﷺ؟.

قال: هو والله خير، فلم يزل أبو بكر يراجعني حتى شرح الله صدري للذي شرح

الله له صدر أبي بكر وعمر، فتتبَّعتُ القرآن أجمعه من العسب واللخاف وصدور الرجال، ووجدتُ آخر سورة التوبة مع أبي خزيمة الأنصاري. لم أجدها مع غيره ﴿ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ ﴾ [التوبة: ١٢٨] حتى خاتمة براءة فكانت الصحف عند أبي بكر حتى توفاه الله، ثم عند عمر حياته، ثم عند حفصة بنت عمر".

وكان زيد بن ثابت لا يكتفي بالحفظ دون الكتابة، وقوله أنه لم يجد آخر سورة التوبة إلا عند أبي خزيمة الأنصاري لا يعني أنها ليست متواترة، وإنما المراد أنه لم يجدها مكتوبة عند غيره، وكان زيد يحفظها، وكان كثير من الصحابة يحفظونها كذلك، ولكنَّ زيداً كان يعتمد على الحفظ والكتابة معاً، فكان لا يكتب الآية حتى يأتيه اثنان من الصحابة حفظا هذه الآية من فم النبي ﷺ، واثنان آخران كتباها بين يدي النبي ﷺ ولا يكتفي بمن كتب ولكن ليس بين يدي المصطفى ﷺ، وهذا شرط لا بد منه حيث إن النبي ﷺ مع أنه كان أمِّياً وبقي أمِّياً حتى توفي ولكنه كان يصوِّب ويصحح لكتبة الوحي الذين يكتبون بين يديه إذا أخطأوا وهذا من معجزاته ﷺ. وهنا يظهر لنا شدة حرص زيد بن ثابت رضي الله عنه ومبالغته في الاحتياط. أخرج ابن أبي داود من طريق هشام ابن عروة عن أبيه أنَّ أبا بكر قال لعمر ولزيد: "اقعدا على باب المسجد فمن جاءكما بشاهدين على شيء من كتاب الله فاكتباه". وفسر الجمهور أنَّ المقصود شاهدين عدلين في الكتابة وشاهدين عدلين في الحفظ.

قال السخاوي: "المراد أنهما يشهدان على أنَّ ذلك المكتوب كُتِبَ بين يدي رسول الله ﷺ"... وقال أبو شامة: "وكان غرضهم أن لا يُكتَب إلا من عين ما كُتِبَ بين يدي رسول الله ﷺ، لا من مجرد الحفظ...". والذي يظهر أنَّ أبو خزيمة الأنصاري شهادته بشهادة رجلين ولذلك أخذ منه زيد بن ثابت. ولعله جاء بعد أبي خزيمة من عنده هذه الآية مكتوبة بين يدي النبي ﷺ ولكن زيداً كان قد اكتفى بأبي خزيمة لأن شهادته بشهادتين كما ذكرنا وذلك لأنه كان لأحد من اليهود دَيْنٌ على رسول الله ﷺ أدّاه له، فجاءه اليهودي يوماً وأخذ يوبخ رسول الله عليه الصلاة والسلام ويعَيِّره ويتهمه بأنه أخّر سداد دَينه، فأخبره عليه الصلاة والسلام أنه أدّى له الدَّين، ولكن اليهودي أنكر، فقال ﷺ (**من يشهد لي؟**)، فقام أبو خزيمة فشهد له. فقال له ﷺ: (**كيف تشهد لي على شيء لم تره؟**)، (أي إنك ما رأيتني حين سددت دَين ذلك اليهودي)، فقال أبو

خزيمة: يا رسول الله أصدقك بخبر السماء أفلا أشهد لك على هذا!.. فقال ﷺ: (**شهادة أبي خزيمة بشهادتين**)، فكان أحد من الصحابة إذا أراد نكاحاً أو معاملة أتى بأبي خزيمة الذي كان يكفي عن شاهدَين.

وقد تم جمع القرآن كله بين دفتي كتاب خلال سنة واحدة تقريباً أي بعد سنة من وفاة النبي ﷺ، فكان أبو بكر رضي الله عنه أول من جمعه بهذه الصفة في مصحف واحد مرتب الآيات والسور مشتملاً على الأحرف السبعة التي نزل بها، ويرى بعض العلماء أنَّ تسمية القرآن بالمصحف نشأت منذ ذلك الحين، وهذا الجمع هو المسمى "بالجمع الثاني". وقد ظفر مصحف أبي بكر بإجماع الأمة عليه وتواتر ما فيه. وبعد وفاة أبي بكر رضي الله عنه، انتقلت هذه الصحف أو الأوراق المُجمَّعة إلى بيت سيدنا عمر طوال فترة خلافته، ولما توفي أصبحت هذه الأوراق عند ابنته حفصة رضي الله عنها.

سؤال: لماذا كانت هذه الصحف عند حفصة بعد عمر لا عند عثمان بن عفان؟.

الجواب: حفصة هي زوجة رسول الله ﷺ وأم المؤمنين، وكانت حافظة للقرآن كله فضلاً عن كونها تجيد القراءة والكتابة، هذه المميزات جعلتها أهلاً لحفظ الصحف عندها، وكذلك لأن عمر رضي الله تعالى عنه توفي دون أن يُعَيِّن خليفة، بل جعل الأمر شورى بين ستة توفي النبي ﷺ وهو عنهم راضٍ، فبايع المسلمون عثمان، فكيف يوصي بالمصحف إلى عثمان وهو لم يعيِّنه خليفة من بعده؟، لذلك بقي المصحف عند ابنته حفصة رضي الله عنها.

ب- جمع القرآن في عهد عثمان بن عفان رضي الله عنه

روى البخاري عن أنس أنَّ حذيفة بن اليمان قدم على عثمان وكان يغازي أهل الشام في فتح أرمينية وأذربيجان مع أهل العراق فأفزع حذيفة اختلافهم في القراءة – ذلك لأنهم أعاجم يخطئون بقراءة القرآن – فقال لعثمان أدرِك الأمّة قبل أن يختلفوا اختلاف اليهود والنصارى، فأرسل عثمان إلى حفصة أن أرسلي إلينا الصحف ننسخها في المصاحف ثم نردها إليكِ، فأرسلت بها حفصة إلى عثمان فأمر زيد بن ثابت، وعبد الله بن الزبير وسعيد بن العاص، وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام فنسخوها في المصاحف، وقال عثمان للرهط القرشيين الثلاثة: إذا اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت في شيء من القرآن فاكتبوه بلسان قريش فإنه إنما نزل بلسانهم ففعلوا حتى إذا نسخوا الصحف

في المصاحف رد عثمان الصحف إلى حفصة وأرسل إلى كل أفق بمصحف مما نسخوا وأمر بما سواه من القرآن في كل صحيفة ومصحف أن يُحرَق.

وقد شرعت اللجنة الرباعية في تنفيذ قرار عثمان سنة خمس وعشرين أي بعد وفاة رسول الله ﷺ بحوالي أربعة عشر سنة. كُتِبَت هذه المصاحف على ما يحتمله رسمها من الأحرف السبعة التي نزل بها القرآن. لقد تعمد الصحابة كتابة هذه المصاحف بالخط الذي يكون أكثر احتمالاً للأحرف، وقد وُفِّقوا لذلك لعدم وجود النقط والشكل ... وهكذا فإن الأصل في عمل عثمان أن يكون مستجمعاً كافة الأحرف السبعة في مصاحفه وأن عثمان ومن معه لا يفرطون في شيء أوحى به الله إلى رسوله ﷺ.

روى ابن أبي داود أن سويد بن غفلة الجعفي قال: "سمعتُ علي بن أبي طالب ﷺيقول: يا أيها الناس لا تغلو في عثمان، ولا تقولوا له إلا خيراً (أو قولوا له خيراً) في المصاحف وإحراق المصاحف، فوالله ما فعل الذي فعل في المصاحف إلا عن ملأ منا جميعاً، فقال ما تقولون في هذه القراءة، فقد بلغني أن بعضهم يقول إن قراءتي خير من قراءتك وهذا يكاد يكون كفراً، قلنا فما ترى؟ قال نرى أن نجمع الناس على مصحف واحد، فلا تكون فرقة ولا يكون اختلاف، قلنا فنِعم ما رأيت". واستنسخت اللجنة سبعة مصاحف، فأرسل عثمان بستة منها إلى الآفاق واحتفظ لنفسه بواحد منها هو مصحفه الذي يسمى " **الإمام** "، ولقد تلقَّت الأمَّة ذلك بالطاعة وأجمعت الصحابة على هذه المصاحف. ولقد جرَّدت المصاحف العثمانية مما ليس من القرآن كالشروح والتفاسير، فمن الصحابة من كان يكتب في مصحفه ما سمع تفسيره وإيضاحه من النبي ﷺ مثال ذلك: قوله تعالى: ﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُواْ فَضْلاً مِّن رَّبِّكُمْ ... ﴾، (البقرة: من الآية١٩٨).. فقد قرأ ابن مسعود وأثبت في مصحفه: ﴿ ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلاً من ربكم في مواسم الحج ﴾، فهذه الزيادة للتفسير والإيضاح. وبهذا قطع عثمان رضي الله عنه دابر الفتنة وحصَّن القرآن من أن يتطرَّق إليه شيء من الزيادة والتحريف على مر العصور. وجمع عثمان للقرآن هو المسمى "بـ: "**الجمع الثالث**". واتَّبع زيد بن ثابت والثلاثة القرشيون معه طريقة خاصة في الكتابة ارتضاها لهم عثمان، وقد سمى العلماء هذه الطريقة بـ: "**الرسم العثماني للمصحف** " نسبة إليه، وهو رسم لا بد من كتابة القرآن به لأنه الرسم الاصطلاحي الذي توارثته الأمة منذ عهد عثمان رضي الله

عنه. ولهذا الرسم أحكام وقواعد حيث كُتِبَ على نحو يتوافق والقراءات العشر.

ولما أعيدَت صحف حفصة إليها ظلّت عندها حتى توفيت وقد حاول مروان بن الحكم أن يأخذها منها ليحرقها فرفضت، حتى إذا توفيت أخذ مروان الصحف وأحرقها وقال مدافعاً عن وجهة نظره: "إنما فعلتُ هذا لأنَّ ما فيها قد كُتِبَ وحُفِظَ بالمصحف الإمام، فخشيتُ إن طال بالناس زمان أن يرتاب في شأن هذه الصحف مرتاب". وقد وافقه علماء عصره على هذا وكان فعله صواباً وحكمته عظيمة.

ومن المعروف أنَّ ابن كثير وهو من علماء القرن الثامن هجري، قد رأى مصحف الشام أي المصحف الذي أرسله عثمان رضي الله تعالى عنه إلى الشام وقال في كتابه " فضائل القرآن: "أمّا المصاحف العثمانية الأئمة فأشهرها اليوم الذي في الشام بجامع دمشق عند الركن شرقي المقصورة المعمورة بذكر الله، وقد كان قديماً بمدينة طبرية ثم نُقِلَ منها إلى دمشق في حدود سنة ٥١٨ هـ. وقد رأيتُه كتاباً عزيزاً جليلاً عظيماً ضخماً بخط حَسَن مبين قوي، بحبر محكم، في رق أظنه من جلود الإبل".

رسم القرآن: مما لا شك فيه أنَّ الصحف التي كُتِبَت على عهد النبي ﷺ و المصاحف العثمانية التي وُزِّعَت على الأمصار، كانت خالية من الشكل والنقط أي من التشكيل بالفتحة والضمة والكسرة. ومما لا ريب فيه أيضاً أنَّ رسم المصاحف العثمانية التي نُسِخَت على هدي المصحف الأول، يقوم على إملاء خاص به في ذلك العصر وفيما بعده أيضاً وهو يتفق في جملته مع الرسم القرشي في ذلك الوقت، ومن هنا قال عثمان رضي الله عنه للكاتبين كما ورد في صحيح البخاري: "إذا اختلفتم أنتم وزيد في كلمة من كلمات القرآن (أي في كيفية كتابتها أي إملائها) فاكتبوها بلسان قريش فإنَّ القرآن أُنزِلَ بلسانهم". إذاً كان للقرآن إملاءً خاصاً من حيث كتابة الهمزة مثلاً أو الأحرف اليائية والواوية ومن حيث الزيادة والنقص وما شابه ذلك. أما ظاهرة كتابته وهجائه الخاص فلم يطرأ عليها تغيير أو تحوير يُذكر. فقد أخذ الناس يعتبرون الرسم القرآني رسماً معيَّناً خاصاً به ولم يجدوا ما يدعو إلى مدِّ يد التغيير إليه، بعد أن وصل إليهم بهذا الشكل صورة طبق الأصل للكتابة المعتمَدة الأولى. لقد رأى العلماء أنَّ الحيطة في حفظ القرآن تدعو إلى وجوب إبقائه على شكله الأول، وتحريم أو تكريه أي تطوير كتابي فيه تطبيقاً للقاعدة الشرعية الكبرى(سد الذرائع). فنهى مالك عن تغيير هذه الكتابة الخاصة

بالقرآن كما حرَّم أحمد بن حنبل ذلك أيضاً.

تحسين الرسم العثماني: كانت المصاحف العثمانية خالية من النقط والشكل لأنَّ العرب كانوا يعتمدون على السليقة العربية السليمة التي لا تحتاج إلى الشكل بالحركات. وظل الناس يقرؤون القرآن في تلك المصاحف بضعاً وأربعين سنة حتى خلافة عبد الملك، فلمَا تطرَّق إلى اللسان العربي الفساد بكثرة الاختلاط بالأعاجم وذلك بسبب الفتوحات الإسلامية الواسعة، أحسَّ أولو الأمر بضرورة تحسين كتابة المصحف بالشكل والنقط وغيرهما مما يساعد على القراءة الصحيحة. ويُرجَّح أنَّ أول من وضع ضوابط للعربية وتشكيل القرآن، هو أبو الأسوَد الدُّؤلي من التابعين، وذلك بأمر من علي ابن أبي طالب كرَّم الله وجهه وكان قد أمره بذلك زياد والي البصرة ولكنه تباطأ في بادئ الأمر إلى أن سمع قارئاً يقرأ قوله تعالى: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ بَرِيٓءٌ مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ وَرَسُولُهُۥ﴾، [التوبة: ٣]، فقرأها بجر اللام من كلمة "رسوله" فغير بذلك المعنى كله وأصبح معنى هذه القراءة الخاطئة أن الله تعالى بريء من كل المشركين ومن النبي ﷺ والعياذ بالله تعالى، بينما المعنى الصحيح للآية هو أن الله تعالى وكذلك رسوله ﷺ كلٌّ بريء من المشركين. أفزع هذا اللحن (الخطأ) أبا الأسوَد فذهب إلى الوالي زياد وقال له: "قد أجبتُكَ إلى ما سألتَ". وانتهى في اجتهاده أن جعل علامة الفتحة نقطة فوق الحرف وجعل علامة الكسرة نقطة أسفله وجعل علامة الضمة نقطة بين أجزاء الحرف وجعل علامة السكون نقطتين. وأعانه في ذلك عدد من العلماء وتبعه آخرون منهم: يحيى بن يعمر، ونصر بن عاصم الليثي وغيرهما... فلم ينفرد أبو الأسوَد الدؤلي وحده في تشكيل القرآن ولكنه كان أول من بدأ بذلك. وكلما امتد الزمان بالناس، ازدادت عنايتهم بتيسير الرسم العثماني، فكان الخليل بن أحمد الفراهيدي أول من صنَّف النقط ورسمه في كتاب وأول من وضع الهمزة والتشديد والرَّوم والإشمام. ومن المعلوم إنَّ علم النحو لم يُقَعَّد ويُدَوَّن إلا خدمة لضبط القرآن، حتى إنَّ معظم علوم العربية الأخرى إنما قامت لخدمة القرآن أو نبعت من مضمونه. ثم تدرج الناس بعد ذلك فقاموا بكتابة العناوين في رأس كل سورة ووضع رموز فاصلة عند رؤوس الآي وتقسيم القرآن إلى أجزاء وأحزاب وأرباع والإشارة إلى ذلك برسوم خاصة، وذِكر المكي والمدني من السوَر. حتى إذا كانت نهاية القرن الهجري الثالث، بلغ الرسم ذروته من الجودة والحُسن.

ضوابط القراءة الصحيحة: من شروط كون القراءة مقبولة وصحيحة:

١- أن تكون موافقة للرسم العثماني في أحد مصاحفه السبعة.

٢- أن تكون متواترة عن رسول الله ﷺ.

٣- أن تكون صحيحة في لغة العرب.

إن القراءة الصحيحة التي وصلت إلينا عشرة، ومن المعلوم أنه من فروض الكفاية أن يكون في كل بلدة (كبيروت مثلاً) حافظاً لكتاب الله تعالى على القراءات العشر بالسند المتصل إلى النبي ﷺ و مُجازاً بذلك.

عناية العلماء بالمكي والمدني: قام أعلام الهدى من الصحابة والتابعين بضبط منازل القرآن ضبطاً يحدد الزمان والمكان، فكانوا يؤرخون كل آية بوقت ومكان نزولها. روى البخاري عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه قال: "والله الذي لا إله غيره ما نزلت سورة من كتاب الله إلا وأنا أعلم أين نزلَت؟ ولا نزلت آية من كتاب الله إلا وأنا أعلم فيم نزلت؟ ولو أعلم أنَّ أحداً أعلم مني بكتاب الله تبلغه الإبل لركبتُ إليه". وقد عني العلماء بتحقيق المكي والمدني بدقة وعناية فائقة، فتتبعوا القرآن آية آية وسورة سورة، لترتيبها وفق نزولها، مراعين في ذلك الزمان والمكان والخطاب حتى اكتمل بذلك علم سمي " بـ: "**علم المكي والمدني**".

الفرق بين المكي والمدني: أصح الأقوال أن:

المكي: ما نزل قبل الهجرة وإن كان بغير مكة.

المدني: ما نزل بعد الهجرة وإن كان بغير المدينة، بأن نزلت آية ما في مكة بعد الهجرة مثلاً عندما فتح النبي ﷺ مكة، فتُسمّى مدنية ولا تُسمّى مكية.

أهمية معرفة المكي والمدني:

١- الاستعانة بها في تفسير القرآن: فإنَّ معرفة مواقع النزول تساعد على فهم الآية وتفسيرها تفسيراً دقيقاً.

مثال ذلك: من قرأ سورة " الكافرون " ولم يعلم زمن نزولها وهل هي مكية أم مدنية، فإنه يحار في معناها، وقد يستخرج منها أنَّ المسلمين غير مكلفين بالجهاد في أي الأحوال وإنما عليهم أن يقولوا للآخرين لكم دينكم ولي دين.

فإذا علم أنَّ هذه السورة إنما نزلت في مكة عندما قال بعض صناديد الشِّرك لرسول

الله ﷺ: "تعالَ يا محمد نعبد إلهك يوماً وتعبد إلهنا يوماً"، إذا علم هذا، أدرك أنَّ هذه السورة إنما هي علاج لتلك المرحلة ذاتها وليست دليلاً على عدم مشروعية الجهاد الذي نزلت فيه آيات كثيرة أخرى في المدينة.

٢- معرفة الناسخ والمنسوخ من الآيات:

سؤال: من المعلوم أن سورتي المعوذتين نزلتا على رسول الله ﷺ في المدينة المنورة بعد أن سحره ذلك اليهودي لبيد بن الأعصم، فلماذا يُكتب عنهما في المصاحف أنهما مكّيتان؟.

الجواب: قد تكون هاتين السورتين نزلتا على النبي ﷺ أكثر من مرة. فقد ورد أن سورة الفاتحة نزلت على قلب النبي ﷺ مرات عديدة تثبيتاً لفؤاده، فقد تكون هاتين السورتين نزلتا لما سحر لبيد بن الأعصم رسول الله ﷺ في المدينة بعد الهجرة، وأوحى الله تعالى إلى نبيه ﷺ مرة أخرى بهاتين السورتين تثبيتاً لفؤاده وتعليماً له ولأمته من بعده أن قراءتهما تُبطل سحر الساحر وهما رقية من سحر الساحر أو الحاسد.

٢- الحديث في عهد الصحابة رضي الله عنهم: بعد وفاة النبي عليه الصلاة والسلام، قام الصحابة من بعده بحمل لواء الإسلام وتبليغ ما علموه منه ﷺ. ولقد تميَّز الصحابة بخصائص ومميزات أهَّلتهم لحفظ الحديث في الصدور، وفيما يلي نورد أهم العوامل التي ساعدتهم لحفظ الحديث الشريف:

عوامل حفظ الصحابة للحديث:

١-صفاء أذهانهم وقوة قرائحهم وذلك أنَّ العرب أمة أمِّية لا تقرأ ولا تكتب، والأمّي يعتمد على ذاكرته فتنمو وتقوى لتسعفه حين الحاجة، كما أنَّ بساطة عيشهم بعيداً عن تعقيد الحضارة جعلتهم ذوي أذهان نقية، لذلك عُرفوا بالحفظ النادر والذكاء العجيب حيث اشتهروا بحفظ القصائد من المرة الأولى وحفظ الأنساب...

٢-قوة الدافع الديني لأنهم أيقنوا أن لا سعادة لهم في الدنيا ولا فوز في الآخرة إلا بهذا الإسلام، فتلقفوا الحديث النبوي بغاية الاهتمام ونهاية الحرص.

٣-تحريض النبي ﷺ على حفظ حديثه، قال زيد بن ثابت: "سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: (**نضَّر الله امرءاً سمع مقالتي فبلَّغها، فرُبَّ حامل فقه غير فقيه وربَّ حامل**

فقه إلى من هو أفقه منه) أخرجه أبو داود والترمذي وابن ماجة، وفي رواية: (**نضَّر الله امرءاً سمع منا شيئاً فبلَّغه كما سمعه، فربَّ مبَلِّغ أوعى من سامع**)، قال الترمذي حديث حسن صحيح. قال العلاَّمة القسطلاني: "المعنى أنَّ الله تعالى خصَّه (أي ناقل حديث النبي ﷺ) بالبهجة والسرور لأنه سعى في نضارة العلم وتجديد السنّة، فجازاه النبي ﷺ في دعائه له بما يناسب حاله من المعاملة". وبالفعل هذا ما نجده في وجوه المحدثين من نضارة ونور يعلو محياهم وحسن سمت يضفي عليهم هيبة ووقاراً.

٤-اتباع النبي ﷺ الوسائل التربوية في إلقاء الحديث على الصحابة وسلوكه سبيل الحكمة كي يجعلهم أهلاً لحمل الأمانة وتبليغ الرسالة من بعده، فكان من شمائله في توجيه الكلام:

أ- أنه لم يكن يسرد الحديث سرداً متتابعاً بل يتأنّى في إلقاء الكلام ليتمكّن من الذهن، قالت عائشة رضي الله عنها فيما أخرجه الترمذي: "ما كان رسول الله ﷺ يسرد كسردكم هذا ولكنه كان يتكلم بكلام بيِّن فصل يحفظه من جلس إليه".

ب- لم يكن يطيل الحديث بل كان كلامه قصداً، قالت عائشة فيما هو متفق عليه: "كان يحدِّث حديثاً لو عدَّه العادُّ لأحصاه".

جـ- أنه كثيراً ما يعيد الحديث لتعيه الصدور، روى البخاري وغيره عن أنس فقال: "كان رسول الله ﷺ يعيد الكلمة ثلاثاً لِتُعقَل عنه".

٥-مواظبة الصحابة على حضور مجالس رسول الله ﷺ التي كان يخصصها للتعليم واجتهادهم في التوفيق بين مطالب حياتهم اليومية وبين التفرغ للعلم، فها هو عمر بن الخطاب يتناوب الحضور مع جار له من الأنصار على تلك المجالس، فقال عمر: "كان ينزل صاحبي يوماً وأنزل يوماً فإذا نزلتُ جئتُه بخبر ذلك اليوم من الوحي وغيره وإذا نزل فعل مثل ذلك "، رواه البخاري.

٦-مذاكرة الصحابة فيما بينهم، قال أنس: "كنا نكون عند النبي ﷺ فنسمع منه الحديث فإذا قمنا تذاكرناه فيما بيننا حتى نحفظه".

٧-أسلوب الحديث النبوي، فقد أوتي النبي ﷺ بلاغة نادرة شغفت بها قلوب العرب وقوة بيان يندر مثلها في البَشَر ومن هنا سمى القرآن الكريم الحديث " **حكمة**".

٨-كتابة الحديث وهي من أهم وسائل حفظ المعلومات ونقلها للأجيال. ورد في

سنن أبي داود عن عبد الله بن عمرو أنه قال: "كنتُ أكتب كل شيء أسمعه من رسول الله ﷺ أريد حفظه...". وقد تناولت الكتابة في عهد النبي ﷺ قسماً كبيراً من أهم الأحاديث وأدقها لاشتمالها على أمهات الأمور وعلى أحكام دقيقة.

قوانين الرواية في عهد الصحابة: اعتمد أئمة المفتين في هذا الدور وجلّ الصحابة قوانين محددة فيما يتعلق برواية الحديث عن رسول الله ﷺ، وأهم هذه القوانين هي التالية:

● التقليل من الرواية: خشية أن ينتشر الكذب والخطأ على رسول الله ﷺ... روى الحافظ الذهبي في تذكرة الحفاظ عن سيدنا أبي بكر أنه جمع الناس بعد وفاة نبيهم عليه الصلاة والسلام فقال: "إنكم تحدِّثون عن رسول الله أحاديث تختلفون فيها والناس بعدكم أشد اختلافاً، فلا تحدِّثوا عن رسول الله شيئاً، فمن سألكم فقولوا بيننا وبينكم كتاب الله فاستحِلّوا حلاله وحَرِّموا حرامه".

● التَّثبت في الرواية: كان الصحابة يتثبَّتون فيما يُروى لهم، فلم يكن أبو بكر ولا عمر يقبلان من الأحاديث إلا ما شهد اثنان أنهما سمعاه من رسول الله ﷺ وذلك للأسباب التالية:

أ- قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا يَفْتَرِى ٱلْكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰذِبُونَ ﴿١٠٥﴾ ﴾، [النحل: ١٠٥].

ب- قوله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓا۟... ﴾، [الحجرات: ٦].

ج- لما سُئِلَ الزبير بن العوّام لماذا لا تُحَدِّث عن رسول الله ﷺ كما يحدِّث فلان وفلان؟ قال: "أما إني لم أفارق رسول الله ﷺ ولكني سمعته يقول: "من كذب عليَّ متعمداً فليتبوأ مقعده من النار".

د- ورد في الحديث الصحيح أنَّ رسول الله ﷺ قال: "من حدَّث عني بحديث يُرى أنه كذب فهو أحد الكاذِبَين".

إذاً فقد كان من طبع الصحابة الحرص الشديد والخوف من الكذب على رسول الله ﷺ كيف لا وقد مدحهم النبي ﷺ فيما يرويه البخاري: "**الله الله في أصحابي لا تسبوهم**

ولا تؤذوهم فمن آذاهم فقد آذاني ومن آذاني فقد آذى الله، والذي نفسي بيده لو أنَّ أحدكم أنفق مثل أُحُد ذهباً ما بلغ مدَّ أحدهم ولا نصيفه"... روى ابن شهاب عن قبيصة بن ذؤيب أنَّ جدةً جاءت إلى أبي بكر تلتمس أن تُوَرَّث فقال: "ما أجد لكِ في كتاب الله شيئاً وما علِمتُ أنَّ رسول الله ﷺ ذكر لكِ شيئاً "، ثم سأل الناس فقام المغيرة فقال: "سمعتُ رسول الله ﷺ يعطيها السدس" فقال: "هل معك أحد "؟، فشهد محمد ابن مسلمة بمثل ذلك، فأنفذه لها أبو بكر رضي الله عنه (أي أعطاها السدس)... وعن سعيد أنَّ أبا موسى رضي الله عنه سلَّم على عمر بن الخطاب رضي الله عنه من وراء الباب ثلاث مرات فلم يُؤذن له فرجع فأرسل عمر في أثره فقال: لم رجعت؟ قال: " سمعتُ رسول الله ﷺ يقول (**إذا سلَّم أحدكم ثلاثاً فلم يجب فليرجع**)، قال: "لتأتيني على ذلك ببيِّنة أو لأفعلنَّ بك "، فجاءنا أبو موسى منتقعاً لونه ونحن جلوس فقلنا: " ما شأنك "؟ فأخبرنا وقال: "فهل سمع أحد منكم "؟ فقلنا: "نعم كلنا سمعه "، فأرسلوا معه رجلاً منهم حتى أتى عمر فأخبره. وقد قال عمر لغير واحد من الصحابة: "أما إني لم أتهمك ولكنني أحببتُ أن أتثبَّت".

● نقد الروايات: وذلك بعرضها على نصوص وقواعد الدين، فإن وجد مخالفاً لشي منها ردوه وتركوا العمل به. هذا هو الخليفة عمر فيما أخرج مسلم عنه: أفتى عمر ابن الخطاب بأنَّ المبتوتة (التي طلقها زوجها ثلاثاً) لها النفقة ولها السكنى ولمَّا بلغه حديث فاطمة بنت قيس أنَّ زوجها طلقها ثلاثاً فلم يجعل رسول الله ﷺ لها سكنى ولا نفقة، قال: "لا نترك كتاب الله وسنّة نبينا لقول امرأة لعلها حفظت أو نسيَت، قال الله عز وجل: ﴿ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنۢ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ ﴾، [الطلاق: ١].

و لا بد من الإشارة إلى أنه لم يكن هناك حاجة إلى جرح وتعديل أي البحث والتدقيق عن عدالة وصدق الراوي لأنَّ الصحابة كلهم عدول وذلك بنص القرآن، قال تعالى: ﴿ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ﴾، [التوبة: ١٠٠]. أما المنافقون فكانوا كما قال عنهم العلماء أحقر من أن يحملوا عِلماً أو يؤخذ عنهم العلم!!!.

فقه الصحابة: كان علماء الصحابة إذا سُئلوا في مسألة ما، نظروا في كتاب الله تعالى فإن لم يجدوا نظروا في سنة النبي ﷺ، فإن لم يجدوا نصاً لا من الكتاب ولا من السنة، سألوا باقي الصحابة هل قضى أحد قبلنا في هذا الأمر بقضاء؟ فإن سمعوا أنَّ أحداً قضى بقضاء ونفذ ووجدوا أنَّ الأمر قريب قضوا. ولقد كان الصحابة يتحفظون تحفظاً شديداً في الاجتهاد، فكان الواحد منهم إذا اضطر إلى الاجتهاد في حال عدم وجود نص، جمع مجلس الشورى وطرح القضية التي هو بصددها واستشار الصحابة العلماء وتجاذب معهم أطراف البحث والنقاش ولم ينفرد في إعطاء حكم، فإن انتهى إلى شيء – سواء كان أبو بكر أو عمر أو عثمان أو أي ممن جاء بعدهم – كان يقول: "هذا رأيي فإن كان صواباً فمن الله تعالى وإن كان خطأً فمني وأستغفر الله تعالى"... وورد أنَّ رجلاً ممن أرسلهم سيدنا عمر والياً على جهة من الجهات قال للناس: هذا ما قضى به الله وقضى به عمر، فسمع عمر ذلك وأرسل إليه يقول: "بئس ما قلتَ، بل هذا ما قضاه عمر، لا تجعلوا الرأي سنّة الله في الناس فتحمِّلوها خطأ الناس".

و كان الصحابة يقولون إذا كان رسول الله ﷺ المُؤيَّد بالوحي، قال الله تعالى له: ﴿ وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ ﴾ [آل عمران: ١٥٩] فما بالك بمن جاء بعده! فإذا استشاروا وأجمعوا على رأي واحد، فذاك هو الإجماع، أما إذا اختلفوا فكل يقضي بما يرى. ومن مظاهر الشورى أنَّ سيدنا أبا بكر رضي الله عنه لمّا جهّز جيش أسامة بعد وفاة رسول الله ﷺ– وكان هذا أول ما قام به أبو بكر – قال لأسامة وقد رأى أنَّ عمراً رضي الله عنه قد انخرط بين أفراد الجيش: "إن رأيتَ أن تعطيني عمر وتبقيه عندي فعلتُ". انظروا كيف يقول خليفة المسلمين، –ذاك الشيخ الكبير لأسامة الذي لم يبلغ من العمر التاسعة عشر بعد، هذا الكلام بأدب متناهي! لماذا؟ لأنَّ أبا بكر كان يرى أنه قد تعرض له الفتوى والمشكلات وهو بحاجة إلى أمثال سيدنا عمر رضي الله عنه ليستشيره وليأخذ رأيه. وطبعاً أجابه أسامة لذلك وبقي عمر عند أبي بكر الذي لا يتأخر في استشارة من حوله من الصحابة كعثمان وعليّ وغيرهم رضي الله عنهم أجمعين. وما أكثر ما كان يقول عمر: "لولا علي لهلك عمر". وكذلك علي كان إذا عُرِضَ عليه رأي لم يبُتّ بهذا الرأي حتى يستشير كبار الصحابة وفي مقدمة هؤلاء أبو بكر وعمر.

فلنلاحظ صورة الأخوَّة الواقعية في حياة الصحابة وآل البيت ومحبتهم لبعضهم

البعض، لا شك أنَّ جيلاً ربّاه رسول الله ﷺ لا بد أن يكون هذا حاله. مستحيل أن يكون النبي عليه الصلاة والسلام أعظم مُرَبّي أوجده الله تعالى لينجد به الإنسانية ثم يخفق في تربية أصحابه. فإن تصوّرنا أنه بعد وفاته ﷺ كان أصحابه أعداء لآل البيت والعكس لكان ذلك علامة على أنه أخفق في تربية هذا الجيل وهذا يُعَدّ عيباً شديداً في رسول الله ﷺ -وحاشاه من ذلك- الذي لم يستطع أن يربي جيلاً واحداً فهو أعجز من أن يربّي أمّة!!! والرسول صلوات الله وسلامه عليه منزّه عن مثل هذا... وقد سُئِلَ عليّ لماذا كثُرَت الفتن في عصره ولم تكثر في عصر أبي بكر وعمر فقال رضي الله عنه: "لمّا كانوا هم الخلفاء كنتُ أنا الرعية فأطعنا ولمّا صرتُ أنا الخليفة كنتم أنتم الرعية فعصيتم".

إذاً كان الصحابة يتواصون بالتدقيق في مسألة الاجتهاد بعد الشروط التي ذكرناها كلها، كما كانوا يتواصون فيما بينهم بالتريّث والفهم الشديد وعدم العجلة في الإفتاء، فها هو عمر لمّا أرسل كتابه لأبي موسى قال له بعد أن أمره أن يتتبع نصوص القرآن والسنّة فإن لم يجد، قال له: "الفهم، الفهم فيما تلجلج في صدرك مما ليس في كتاب الله وسنّة رسول الله ﷺ"، أي لا تستعجل، تريَّث وفكّر وتأمَّل.

ولا بد من الإشارة إلى أنَّ سيدنا عمر رضي الله عنه هو أول من فصل سلطة القضاء عن رئاسة الدولة، ففي عهد رسول الله ﷺ وعهد أبي بكر كان كل منهما رئيس الدولة والقاضي في آن واحد. وفي عصر عمر، عندما اتسعت الفتوحات ولم يعد يجد الوقت كافياً لأن يجلس مجلس القضاء ومجلس إدارة أمور المسلمين، عندئذ فصل سلطة القضاء عن سلطة رئاسة الدولة وعيَّن أول قاضٍ أثناء خلافته وهو جريج رضي الله عنه... وكان الصحابة لا يجيبون على سؤال فرض لم يقع بعد، فإذا سألهم سائل عن مسألة ما، كان أحدهم يجيب: "هل وقعت هذه المشكلة التي تسأل عنها"؟ فإن قال لا ما وقعت بعد ولكننا نحب أن نعلم إن وقعت هذه المشكلة ماذا نصنع! كان الصحابي يجيب: "إذا وقعت فاسألوا عنها أمَّا الآن فقد كفانا الله مهمة البحث في أمر لم يقع". فهم لا يريدون توسيع نطاق الاجتهاد إلى أكثر من الحد الضروري، وهذه سياسة كانت متَّبعة من قِبَل جميع علماء ذاك العصر.

سـؤال: هل وقع الخلاف في الاجتهاد في أحكام الشريعة الإسلامية ومتى وقع ولماذا؟

الجواب: أمَّا في عصر رسول الله ﷺ فالخلاف لم يقع ولا سبيل أصلاً للخلاف ما دام رسول الله ﷺ حي يُمكِن الرجوع إليه في أي أمر. وبعد وفاته عليه الصلاة والسلام، بدأ الخلاف الاجتهادي يظهر في بعض المسائل الفرعية التي لا تتعارض مع أصول الدين للأسباب التالية:

أولاً: تفاوت الصحابة في رواية الحديث عن رسول الله ﷺ كلٌّ حسب وضعه ومقدار تفرغه وملازمته له. ونتيجة لذلك كان إذا وقعت مشكلة، تسائل الصحابة عن حكمها، والذي لم يسمع من رسول الله ﷺ في هذا الأمر شيئاً، يفتي بظاهر القرآن. أما الذي حفظ وروى عن رسول الله ﷺ قدراً أكبراً فهو يذكر أنَّ هذا الموضوع قد أوضح النبي عليه الصلاة والسلام حكمه، فهو يختلف في فتواه عن الأول الذي لم يسمع والقاعدة تقول: **من حفظ حجة على من لم يحفظ.** من هنا كان لا بد أن يقع الاختلاف في الفتاوى بين أصحاب رسول الله ﷺ. فكانت إذا عرضت على أبي بكر أو عمر حادثة جديدة ولم يُسمَع من رسول الله ﷺ فيها شيئاً، جمع الصحابة وقال: "أنشدكم الله رجلاً سمع من فم رسول الله ﷺ فتوى في هذه القضية". وكان من عادة عمر رضي الله عنه إذا سُئِلَ في موضوع أن يبحث عنه في كتاب الله ثم السنّة فإن لم يكن قد سمع في المسألة شيئاً نادى في الناس: "من سمع عن النبي ﷺ في هذه المسألة شيئاً "؟، فإن لم يجبه أحد قال: "هل قضى أبو بكر في هذا الموضوع من قبلي شيئاً "؟ فإن قال له قائل إنَّ أبا بكر قد سُئِلَ وقضى في هذا الأمر بكذا، قضى عمر بمثل ما قضى به أبو بكر رضي الله عنهما وإلا اجتهد عمر.

مثال: دية الأصابع، رجل قُطِعَت إصبعه، الخنصر أو البنصر أو السبابة أو الوسطى، ما هو القدر الذي ينبغي أن يؤخذ من الجاني كدية لهذا الإنسان؟ فكر عمر ابن الخطاب رضي الله عنه في الموضوع وهو لا يذكر في هذا حديثاً عن رسول الله ﷺ، فأراد أن يجتهد في الأمر، وأراد أن يجعل دية كل إصبع على حسب فائدة تلك الإصبع، ولكنه تريَّث وأخذ يسأل أصحاب رسول الله ﷺ، فجاء من أخبره أنَّ النبي عليه الصلاة والسلام قضى بأنَّ في كل إصبع عشراً من الإبل متساوية يعني في قطع

الأصابع العشرة دية كاملة. فرجع عمر رضي الله عنه وقال: "إن كدنا لنقضي في هذا برأينا".

مثال آخر دية الجنين: سُئِلَ سيدنا عمر رضي الله عنه عن دية الجنين، اعتدى إنسان على امرأة حامل فأسقطت جنيناً، ما الجزاء؟ وقف عمر يناشد المسلمين أن يكون فيهم رجلاً سمع عن رسول الله ﷺ أمراً في الدية. معلوم في القرآن أنَّ عقاب من اعتدى على إنسان ومات، هو القصاص فإن عفى وليُّه تصبح عقوبته دفع الدية، هذا هو الحكم العام والجنين يُعتبَر إنساناً ومات، وعلى هذا يأخذ الجاني الحكم نفسه، إما القصاص وإما الدية... ولكن عمر تريَّث، لعل في سنة رسول الله ﷺ شيئاً خاصاً. فقام أحد الصحابة وقال إنَّ جمل بن مالك جاء يشكو إلى رسول الله ﷺ أنه كانت له زوجتان فتخاصمتا فضربت إحداهما الأخرى فألقت جنيناً ميتاً، فقضى رسول الله ﷺ للجنين بغُرَّة يعني بنصف عشر الدية (خمسة من الإبل) فتهلل وجه عمر باسماً وقال: "إن كدنا أن نقضي في هذا برأينا".

ثانياً: عدم الاتفاق على صحة نسبة حديث ما إلى رسول الله ﷺ.

ثالثاً: عدم الاتفاق على معنى كلمة أو جملة في كتاب الله تعالى أو حديث المصطفى عليه الصلاة والسلام وذلك بسبب ورود لفظ يحتمل معنيين.

رابعاً: اختلاف الفتوى بسبب الرأي: كانت ترد على الصحابة أقضية لا يرُون فيها نصاً من كتاب أو سنّة وإذ ذاك كانوا يلجأون إلى القياس وكانوا يعبِّرون عنه بالرأي.

خامساً: قياس الفرع على الأصل: البعض يرى إنَّ هذا الفرع يشبه ما نص الله تعالى عليه في آية كذا.

نعرض لطائفة من أمثلة الخلاف بين الصحابة في بعض الفتاوى:

– عُرضت مشكلة على ابن مسعود رضي الله عنه: رجل عقد نكاحه على امرأة ولم ينص في هذا العقد على مهر ومات قبل الدخول بها، فما الذي تستحقه هذه المرأة؟ أفتى ابن مسعود بأنَّ لها كامل مهرها أي صداق مثلها من النساء. بينما سيدنا علي كرَّم الله وجهه عندما سمع بهذه القضية قال: "أنا أختلف معه في هذه المسألة، هذه المرأة إذا مات زوجها ليس لها إلا الميراث، تأخذه وليس لها ما وراء ذلك شيء وعليها العدة ولا

صداق لها". سبب هذا الخلاف أنَّ هذه المسألة ليس فيها نص واضح صريح من كتاب الله تعالى، كل ما في الأمر قوله تعالى: ﴿ لَّا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا۟ لَهُنَّ فَرِيضَةً ﴾، [البقرة: ٢٣٦].

يقول سيدنا علي رضي الله عنه: "أرأيت لو أنَّ زوجها لم يمت ولكن طلق، ليس لها شيء بنص كلام الله عز وجل". فسيدنا علي قاس وفاة الزوج على طلاقه لها. قال ابن مسعود: "الرجل الذي يطلق، يطلق بقصد الاختيار ويترتب على ذلك أشياء كثيرة، لكن مات الزوج وحبل الزوجية موجود، ولا يسبب الموت انقطاع الزوجية عند جمهور العلماء، فالموت لا يُقاس على الطلاق لأن الطلاق عمل اختياري والموت أمر قصري".

مسألة أخرى: المرأة التي توفي عنها زوجها وهي حامل، ما عدتها؟

سيدنا عمر رضي الله عنه قال: عدتها وضع حملها. وقال سيدنا علي وابن عباس رضي الله عنهم: عدتها بأبعد الأجلين، أي أيهما كان أبعد وضع حملها أم مضي أربعة أشهر وعشراً تأخذ به. قال جمهور الفقهاء أنَّ عدة المرأة تنتهي بوضع حملها والقول بأبعد الأجلين مرجوح، ودليل ذلك ما أخرجه البخاري ومسلم عن سبيعة بنت الحارث الأسلمية أنها كانت تحت سعد بن خولة وهو ممن شهد بدراً فتوفي عنها في حجة الوداع وهي حامل، فلم تلبث أن وضعت حملها بعد وفاة زوجها، فلما طهرت من دم النفاس تجمَّلت للخُطّاب، فدخل عليها أبو السنابل بن بعكك فقال لها: "ما لي أراكِ متجمِّلة، لعلك ترجين النكاح؟ والله ما أنتِ بناكح حتى يمر عليكِ أربعة أشهر وعشرا"! قالت سبيعة: "فلما قال لي ذلك جمعتُ عليَّ ثيابي حين أمسيتُ، فأتيتُ رسول الله ﷺ فسألته عن ذلك، فأفتاني بأني قد حللتُ حين وضعتُ حملي وأمرني بالتزوج إن بدا لي". وقد رُوِيَ أنَّ ابن عباس رجع إلى حديث سبيعة لما احتُجَّ به عليه.

أبرز من كانت إليهم الفتيا في عصر الصحابة: الخلفاء الراشدون وسيدنا عبد الله بن مسعود وزيد بن ثابت وعبد الله بن عباس وعبد الله بن عوف وعبد الله بن عمر وهؤلاء التسعة كانوا في ذلك العصر بمثابة الأئمة الأربعة في عصرنا.

أسئلة وأجوبة:

سؤال: لماذا انحصرت الفتيا ببعض الصحابة ولم يفتوا كلهم؟.

الجواب: لأن عامة الصحابة لا وقت ولا قدرة لهم على الاجتهاد، فمنهم من كان يشتغل بالزراعة ومنهم من كان يشتغل بالتجارة ومنهم من كان يشتغل بالجهاد وهكذا وحتى يصل الإنسان لرتبة يستطيع معها الاجتهاد لا بد له من علم غزير وذلك يحتاج عادة إلى وقت وتفرُّغ. فكان عامة الصحابة يأخذون بفتاوى واحد من هؤلاء التسعة غالباً كما نأخذ نحن اليوم بفتاوى واحد من الأئمة الأربعة.

سـؤال: لماذا لم يمد الله تعالى بحياة النبي ﷺ ليجيب على هذه الأسئلة التي حدثت واستجدت في عصر الصحابة؟.

الجواب: لكي يعلِّم الله سبحانه وتعالى هذه الأمة الاجتهاد وكيفية استنباط الأحكام من النصوص وحتى يخفف عنها لأن في اختلاف الفقهاء سعة.

سـؤال: الحكم في شرع الله تعالى أليس واحداً؟ فكيف لنا أن نأخذ بقول أكثر من إمام؟.

الجواب: إنَّ الله تعالى لا يكلف نفساً إلا وسعها، فإذا عمِّيَت علينا دلائل حكم شرعي وتشابهت الأدلة ولم نستطع أن نصل إلى الحكم بيقين، فإنَّ من رحمة الله تعالى بعباده أنه لا يطالبهم إلا ببذل الجهد في معرفة حكمه تعالى. مثال ذلك: الاجتهاد في القِبلة في الصلاة، هي حقيقة واحدة ولكن في حال لم تتبيَّن ولم يُتمكن لأربعة أشخاص من تحديدها جاز لكل واحد منهم أن يصلي إلى جهة ما، حسب اجتهاده الشخصي وصلاتهم صحيحة بالاتفاق حتى ولو صلى كل واحد منهم إلى جهة مختلفة عن جهة الآخر.

سؤال: يدَّعي أحمد أمين في كتابه فجر الإسلام: كان بعض من هؤلاء الصحابة عندهم روح واسعة لفهم النص وكانوا يتجاوزون النص إلى ما يسميه علماء القانون اليوم بروح النص. ويقول أحمد أمين إنَّ في مقدمة هؤلاء عمر بن الخطاب رضي الله عنه. فعمر كان عبقرياً وكان لا يقف عند حرفيّة النص بل كان يتجاوزه إلى المصالح وإلى العلل وإلى روح التشريع الإسلامي. ها هو في أكثر من حالة خالف النص وعمل بالمصلحة، مثال ذلك كما يدَّعي أحمد أمين:

١- قال الله تعالى: ﴿ ۞ إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا

وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَـٰرِمِينَ وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ۖ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦٠﴾ ﴾، (التوبة: ٦٠).. عطَّل عمر سهم المؤلفة قلوبهم لما في ذلك من فهم ومراعاة لواقع المسلمين ومصلحتهم.

٢- يقول الله تعالى: ﴿ وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓا۟ أَيْدِيَهُمَا ﴾، [المائدة: ٣٨]، سرق بعض الناس في عام المجاعة متاعاً فلم يقم عليهم عمر الحد.

٣- قضى عمر بأنَّ الرجل الذي قال لزوجته أنت طالق ثلاثاً بكلمة واحدة، تطلق ثلاثاً، وهذا مخالف لقوله تعالى: ﴿ ٱلطَّلَـٰقُ مَرَّتَانِ ۖ فَإِمْسَاكٌۢ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌۢ بِإِحْسَـٰنٍ ۗ... ﴾، (البقرة: من الآية٢٢٩)، ومخالف لحديث النبي ﷺ الصحيح الذي رواه مسلم عن ابن عباس رضي الله عنهما: "كان الطلاق على عهد النبي ﷺ، طلاق الثلاث واحداً، وكان ذلك في خلافة أبي بكر وصدراً من خلافة عمر، فقال عمر لقد استعجل الناس في أمر كانت لهم فيه أناة فمن استعجل أناة الله ألزمناه به. فطلاق الثلاثة بكلمة واحدة يُعتبر ثلاث طلقات. ويضيف أحمد أمين فيقول، إنَّ عمر في كل ذلك إنما كان عبقرياً وذكياً لأنه لم يتمسك بحرفية النص وإنما رأى المصلحة وجرى وراءها وإن خالفت النص وهذا هو المطلوب كما يزعم أحمد أمين. فهل كان من بين الصحابة من كان يتجاوز حرفيَّة النصوص ويأخذ بروح النص كما يقول بعض الناس اليوم، ويأخذ بالمصالح التي تعتمد عليها النصوص، بمعنى آخر هل كان الصحابة أصحاب نزعة تحررية؟.

الجواب: كلام أحمد أمين المضلل قد يدفعنا بناءً لما تقدم إلى القول بأنَّ الربا حلال والمتاجرة بالخمر والسِّلم مع اليهود كذلك!، وأما القول أن المصلحة قد تكون في مخالفة النص من كتاب الله تعالى، فهذا كفر والعياذ بالله تعالى، لأنه من أعلم بمصلحة الناس من رب الناس، من خالق الناس الذي يعلم سرهم ونجواهم ويعلم ما كان وما سيكون وما لم يكن ولو كان كيف يكون. والحقيقة أنه ما وُجِدَ قط إنسان أكثر حيطة في التمسك بالنص وحرفيته من عمر بن الخطاب رضي الله عنه. فقد مر معنا من خلال الأمثلة التي ذكرناها سابقاً في هذا البحث كيف كان ينادي بالناس هل منكم من سمع من رسول الله ﷺ شيئاً في هذا؟!!.. لكن من الذي يستطيع أن يطبق النص؟ إنَّ أقدر الناس على

تطبيق النص، أفهمهم للنص وأعرفهم وأعلمهم للقواعد العربية وأصول الدلالات في منطوق النص ومفهومه الموافق ومفهومه المخالف ودِلالة الخطاب وفحواه. وعمر كان من أعلم الناس بقواعد تفسير النصوص، وتعالوا ننظر معاً ماذا فعل عمر؟.

بالنسبة لقوله تعالى: ﴿ ۞ إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَٰرِمِينَ وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ۖ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦٠﴾ ﴾، (التوبة: ٦٠).. هناك في اللغة العربية اسم موصول للفقراء أي للذين يتصفون بالفقر، للمساكين أي للذين يتصفون بالمسكنة، للعاملين عليها أي للذين يقومون بجباية الزكاة، للمؤلفة قلوبهم أي للذين تشعرون بالحاجة إلى أن تؤلفوا قلوبهم... الفقراء، إن زال الفقر عنهم لن يعودوا أهلاً لأخذ الزكاة، ومناط وجوب إعطاء الزكاة للمؤلفة قلوبهم أن يشعر المسلمون أنهم بحاجة إلى تأليف قلوب من وفدوا إلى الإسلام من جديد. إذاً مناط الحكم أن ننظر إلى واقعنا، فإذا كان هذا الواقع عزيز قوي وكان من دخل في الإسلام، وحده يعزه ويغنيه ويحميه، إذا وجدنا أنَّ الأمر كذلك فإنَّ مناط دفع الزكاة إليهم ارتفع. أما إن كان الإسلام في ضعف فيكون حكم إعطاء الزكاة للمؤلفة قلوبهم عندئذ سارياً، وقد كان الإسلام في عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه عزيزاً لا بل في أعزِّ أحواله.

بالنسبة للمسألة الثانية، وهي أنَّ رجلاً سرق في عام المجاعة وكان أجيراً وعلم عمر أنَّهم كانوا يبخسون حقه فقال لهم: "والله لولا أني أعلم أنكم تظلمونه ولا تعطونه حقه لقطعتُ يده "، والآن عام مجاعة، فجمعاً بين النصوص التالية: قوله تعالى: ﴿ وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا... ﴾، (المائدة: من الآية ٣٨)، وقوله ﷺ: (**ادرؤوا الحدود بالشبهات ما استطعتم فإنَّ الحاكم لأن يخطىء في العفو خيراً من أن يخطىء في العقوبة**)، وهذا قانون عام في القضاء وبدلاً من العقوبة يعزِّر القاضي المذنب ويعاقبه ولكن لا يقطع يده. إذاً عمر عمل بالنص ولكنه علم بالحديث الذي خصص الآية وقضى بموجبه وليس كما زعم الجاهل بأنه ترك النص وتبع المصلحة التي رآها مناسبة وفي ذلك دليل على أنَّ الحديث يبين ويشرح كلام الله تعالى الذي قال في كتابه العزيز: ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ ﴾، [النحل: ٤٤]. هذا من جهة ومن

جهة أخرى، فإنَّ للسرقة نصاباً حتى تُقطع يد السارق فإن سرق شيئاً قيمته دون النصاب يُعَزَّر ولا تُقطَع يده. والمبلغ الذي سرقه الرجل ربما ليس بذاك المبلغ الكبير أو احتمال أن يكون سرقه ليسد ضرورة والضرورات تبيح المحظورات.

وينبغي قبل أن نطبق هذه القاعدة أن نعلم ما معنى الضرورة وما الفارق بين الضرورات والحاجيات والتحسينيات؟. وقد بيناها في بداية الفصل الأول من الكتاب.

وأما المسألة الثالثة، فقوله تعالى: ﴿ ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِ ۖ فَإِمۡسَاكُۢ بِمَعۡرُوفٍ أَوۡ تَسۡرِيحُۢ بِإِحۡسَٰنٍ ... ﴾، (البقرة: من الآية٢٢٩)، لا علاقة له بالموضوع الذي أفتى به عمر، وإنما هي بيان للطلاق وأنه ينبغي أن يفرق بين الطلقة والأخرى وإلا كان آثماً، أي من طلق زوجته ثلاثاً في مجلس واحد كان آثماً. أما من لم يتق الله تعالى وارتكب المحرَّم فقال لزوجته أنت طالق بالثلاث فهذا لن يجعل الله تعالى له مخرجاً لأن الله تعالى قال: ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ۝٢ ﴾، وهذا لم يتق الله تعالى، وارتكب الحرام وطلق زوجته ثلاثاً بمجلس واحد، لم يجعل الله له مخرجاً. فإذاً القرآن يقضي بأن من طلق زوجته ثلاثاً في مجلس واحد فهو ثلاث. وهناك أحاديث صحيحة كثيرة نصَّت على أنَّ الرجل إن طلق ثلاثاً في مجلس واحد فهو ثلاث ولكنه طلاق بدعي مكروه، ومن ذلك حديث رواه الشيخان عن عويمر العجلاني رضي الله عنه وقد اتهم زوجته بالزنا، وجاء إلى رسول الله ﷺ، فدله على الملاعنة التي أنزلها الله تعالى في محكم كتابه. ولكنه لم يكن يعرف أنَّ نتيجة الملاعنة التفريق الأبدي، وعندما علم ذلك جلس أمام ركبتي رسول الله ﷺو قال: "يا رسول الله كذبتُ عليها إن أمسكتها هي طالق ثلاثاً". فإذاً عويمر العجلاني طلق زوجته في مجلس رسول الله ﷺ ثلاثاً بكلمة واحدة، ولولا أنَّ هذا كان جارياً في عصر النبوة لما قال ذلك.

وحديث فاطمة التي قالت لسيدنا عمر طلقني زوجي البتة فلم يجعل لي رسول الله ﷺ نفقة ولا سكنى، كلمة البتة كناية عن ثلاث طلقات وفي ذلك دليل أنَّ النبي عليه الصلاة والسلام أفتى أنه طلقها ثلاثاً.

أيضاً ما رواه الشافعي والترمذي والنسائي وكثيرون عن ركانة رضي الله عنه أنه طلق زوجته قائلاً أنت طالق البتة، وجاء إلى رسول الله ﷺ نادماً فقال له رسول الله

ﷺ: "آلله (أي أقسم عليك بالله) **ما أَرَدتَ** (بكلمة البتة) **إلا واحدة؟**، فقال ركانة: "والله ما أردتُ بها إلا واحدة". فأعادها رسول الله ﷺ له، فلو لم تكن كلمة البتة تعني ثلاثاً لَما سأل النبي ﷺ ركانة ماذا أراد من قوله البتة، ولو لم يكن طلاق الثلاثة في المجلس الواحد يقع لما سأل رسول الله ﷺ ركانة عن قصده بكلمة البتة. أما حديث مسلم الذي يرويه عن طاووس وعن ابن عباس: "كان طلاق الثلاث على عهد رسول الله ﷺ واحدة في عهد رسول الله ﷺ وفي عهد أبي بكر وفي صدر من خلافة عمر ثم قال عمر إنَّ الناس قد استعجلوا في أمر كانت لهم فيه أناة، فمن استعجل أناة الله ألزمناه بها "، قال ابن جرير الطبري في شرح هذا الحديث وأبو وليد الباجي والنووي في شرحه على صحيح مسلم، معناه أي كان الرجل في صدر الإسلام إذا أراد أن يطلِّق زوجته ثلاث تطليقات لا يستعمل إلا نفس اللفظة أي لفظة البتة فيقول: "أنت طالق البتة "، وإذا أراد أن يطلق طلقة واحدة قال: "أنت طالق البتة". فالبتة كناية عن طلقة واحدة أو ثلاث حسب النية، وكان الشائع الأغلب في عهد النبي ﷺ وفي عهد أبي بكر وشطر من عهد عمر أنه يقصد بذلك طلقة واحدة. هذا هو الغالب والعام لأنه نادر جداً من الصحابة من طلق ثلاث مرات دفعة واحدة لأنَّ ذلك محرَّم. فكان الرجل إذا جاء إلى رسول الله ﷺ أو أبي بكر وقال له إني طلقتُ زوجتي البتة، صحيح أنَّ البتة كناية عن طلاق الثلاث ولكن الشائع الأغلب أنه يقصد بها واحدة، لذلك كان يُسأل عن نيته، فإذا قال واحدة حُكِمَ له بواحدة. ولّما كانت خلافة عمر تغيَّر حال الناس وأخذ كثير من الناس يطلق ثلاث طلقات بكلمة واحدة، وشاع بينهم استعمال لفظ البتة على الثلاث، لذلك حكم عمر على من قال له إني طلقتُ زوجتي البتة أنه طلقها ثلاثاً إلا أن يُقسِم أنه ما قصد إلا واحدة ذلك لأننا نحكم على الألفاظ حسب العرف فإذا كان عرف الناس أن يطلِّقوا طلاق البتة ويقصدون به ثلاثاً وقع ثلاثاً كما أصبح العرف في عصرنا لمن قال لزوجته أنت عليّ حرام وقع طلاقاً وهذا اللفظ في أصله كناية ولكن لما شاع استعمال الناس له على أنه طلاق أصبح يُفتى لمن قال هذا اللفظ لزوجته أنه طلقها. وهذا الذي قال به عمر من أن من طلق زوجته ثلاثاً في مجلس واحد وقعت ثلاث تطليقات وبانت منه بينونة كبرى وهو ما قاله جمهور علماء الحديث وأجمعت عليه الأمة. إذاً هذا الحديث في وادٍ وما استدلَّ عليه وفهمه أحمد أمين في واد آخر!

شبهة أخرى: عندما انتصر جيش عمر في القادسية بقيادة سعد بن أبي وقاص وفتح المسلمون العراق، غنم المسلمون غنائم كثيرة وأموال منقولة وغير منقولة. أمَّا الأموال غير المنقولة فقد اعتُبِرَت أنها سواد العراق وهي مثل غوطة دمشق أراضٍ واسعة شاسعة كلها مزروعة. سيدنا عمر قسم الأموال المنقولة على الجيش ولكنه لم يقسم السواد وذلك بعد أن شاور الصحابة مثل سيدنا معاذ وعلي وعثمان وجمهور الصحابة كانوا معه في ذلك... ويقول بعض المستشرقين: تعاطى عمر مع روح النص حين فعل ذلك لأنه خلاف الآية القائلة: ﴿ ۞ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ ﴾، [الأنفال: ٤١].

الجواب على هذه الشبهة ما يلي: قال عمر ووافقه على ذلك جمهور الصحابة، لو قسمنا هذه الأراضي الشاسعة سيمتلكها المسلمون في هذا العصر وتأتي الأجيال الأخرى وليس لهم شيء، فرأى أنه من الخير أن تكون هذه الأراضي ملكاً لبيت مال المسلمين حتى تستغني الأجيال به إلى ما شاء الله. ولكن يا ترى هل تجاوز عمر بذلك النص؟.. قال تعالى: ﴿ مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ ﴾، [الحشر: ٧]... ﴿ وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ ﴾، [الحشر: ١٠]. إذاً استناداً على قول الله تعالى هذا تُعطى هذه الأموال غير المنقولة لله أي للمصالح العامة وللرسول (ومن بعدِه لبني هاشم) ولذي القربى واليتامى والمساكين والفقراء والأجيال الآتية من بعدهم، لقوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ ...﴾. لذلك قال عمر إذا وزعتُ هذه الأراضي الآن وامتلك كل واحد منكم قسماً منها، كيف يمكن أن أنفذ أمر الله في أن أجعل في هذه الأراضي حصصاً للأجيال القادمة؟!!! أما ما جاء في سورة الأنفال، فالمقصود به الغنائم المنقولة. والآن بعد هذا التوضيح أليس هذا تمسُّكاً بالنص من سيدنا عمر؟ ولكن من يفقه؟ ومن يعلم كيف يستخرج الأحكام من النصوص؟ وهذا لا يعني أنَّ الإنسان لا يبحث عن المصلحة ولكن المصلحة تكون مع النص لأنَّ الله تعالى أعلم أين تكون مصلحة العباد. أمّا ما ليس فيه نص كالمصالح المرسلة، فها هو عمر الذي خطط لبناء الكوفة والبصرة حيث أرسل مهندسه وأمر أن تكون الشوارع الأساسية عرض ٣٠ ذراع والشوارع الفرعية عرض

٢٠ ذراعاً، والبيوت التي تُبنى على الشوارع الأساسية لا مانع من أن يكون ارتفاعها عالياً والبيوت التي من ورائها أخفض.

عندما فُتِحَت العراق والشام جمع عمر مجلس شوراه وقال لهم رأيتُ التجارة بأيدي الأقباط وإني آمركم أن تتجروا فقال له بعض الحاضرين يا أمير المؤمنين أمر كُفيناه أي الأقباط كفونا العمل، كأنه يقول أنَّ الله تعالى جعلهم خدّاماً لنا، فلماذا نتاجر؟ قال عمر: "لأن قلتم هذا والله ليكوننَّ رجالكم تَبَعاً لرجالهم وليكوننَّ نساؤكم تبعاً لنسائهم". فإذاً كان عمر كغيره من الصحابة الكرام يهتم بمصلحة المسلمين، وهذه الأمثلة التي ذكرناها من المصالح المرسلة. أما إذا كان هناك نص، فكان عمر وباقي الصحابة أكثر من يتمسك به لأنهم يعلمون حقاً أن المصلحة مع النص ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴾، [الملك: ١٤].

٣- الدور الثالث: التشريع في عهد صغار الصحابة والتابعين

يبتدئ هذا الدور من ولاية معاوية بن أبي سفيان رضي الله تعالى عنه، أي في بداية العهد الأموي سنة ٤١هجرية إلى أوائل القرن الثاني من الهجرة.

مميزات وخصائص هذا الدور:

١- تفرُّق المسلمين سياسياً واتساع نطاق الخلاف لظهور نزعتين سياسيتين بعد مقتل عثمان رضي الله تعالى عنه وهما: الخوارج وشيعة علي (وهي فئة سياسية، أي لها بعض الآراء السياسية المعينة لا أنها كانت تخالف المسلمين في بعض أمور الدِّين كحال الشيعة في عصرنا، أما الشيعة كمذهب ديني كما هو في عصرنا لم يكن له وجود في ذلك العصر ولم يظهر هذا المذهب إلا في القرن الثالث الهجري).

٢-انتشار الصحابة في البلاد بعد أن كانوا محصورين بين مكة والمدينة وذلك لاتساع رقعة الإسلام والاحتياج إلى فتاوى جديدة وبالتالي إلى سماع الأحاديث.

٣-ظهور الكذب في الحديث عن رسول الله ﷺ، وذلك للأسباب التالية:

أ - وجود الزنادقة وأعداء الدين من اليهود (كعبد الله بن سبأ) والروم والمزدكية وغيرهم الذين كانوا يكيدون للإسلام باطلاً، وهؤلاء لبسوا مسوح الإسلام وكانوا يُظهرون التَّدين ويجلسون مجلس الرواية عن رسول الله ﷺ ليستمعوا الأحاديث ثم يجلسون

مجالس أخرى يعلِّمون الناس فيها أحاديث مكذوبة. وقد تلبَّس كثير من هؤلاء المجرمين بالجرم المشهود فعوقبوا وأنزلت بهم الخلافة الإسلامية آنذاك أشد العقوبات فكان أحدهم يقول قبل أن يُقتَل لينفِّس عن غيظه: أين أنتم من الأحاديث التي وضعتُها فيكم أحرِّمُ الحلال وأحِلُّ الحرام.

ب- انتصار المتعصبين لمذاهبهم كدعاة المبتدعة: يروي عبد الله بن ذريعة يقول: قال لي شيخ من الخوارج تاب: "إنَّ هذا الحديث دين، فانظروا عمَّن تأخذون الحديث، فإنّا كنا إذا رأينا رأياً جعلناه حديثاً"... وكذا من فئة الشيعة، ورد أنَّ جابر الجم وهو ممن غالى من التشيع قال أنا عندي خمسون ألف حديث، يرويها ابتداعاً عن رسول الله ﷺ.

ج- العاطفة الإسلامية الفجة التي لا تضبطها قواعد العلم، كالتي نجدها عند جهلة المتعبدين الذين وضعوا الأحاديث في الفضائل وغيرها. أراد بعض الجهلة أن يُرَغِّبوا العامة في الجنة ويخوِّفوهم من النار، فأخذوا يضعون (أي يختلقون) الأحاديث وهم يقولون إذا وقعوا بيد العلماء: "نحن نكذب لرسول الله ﷺ ولا نكذب على رسول الله ﷺ"!.

د- رغبة بعض الفسقة من المحدثين في جمع عدد كبير من الناس حولهم في المساجد وتنافسهم فيما بينهم لجعل حلقة الواحد منهم أكبر من حلقة غيره، وهذه الظاهرة نجدها حتى في عصرنا اليوم فتجد واحداً ممن ادعى العلم يروي الأحاديث الموضوعة والمكذوبة في دروسه وعامة الناس لا يعرفون لا بل يظنونه من كبار العلماء! وكان العلماء يحذِّرون من مجالسة هؤلاء القصاصين.

فائدة: من علامات الحديث الموضوع ما يلي:

١- ذكر أعداد كثيرة (سبعون ألفاً مع كل ألف...).

٢-الأجر الكثير على العمل القليل.

٣-قصص عن سيدنا موسى وسيدنا داود عليهما السلام.

٤-الأحاديث المتعلقة بفضائل بعض السُّوَر المذكورة في بعض كتب التفاسير، أما الأحاديث الواردة في فضل سورة البقرة وآل عِمران والكهف ويس وتبارك والإخلاص وما شابه فيُحتج بها.

من هنا كان لا بد من صحوة المسلمين لمجابهة هذا الخطر، فمنعوا رواية الحديث وحصروها فيمن كانوا أهلاً لذلك. وبدأ تدوين السنّة بأمر من عمر بن عبد العزيز، ففي عام ٩٩ هجرية كان أبو بكر بن حزم أول من دوّن أحاديث النبي ﷺ وجمعها بين دفتي كتاب ومن ثم تبعه الكثيرون كسفيان بن عيينة وغيره. وباشر العلماء أيضاً بتدوين العلوم الكفيلة بحفظ الرواية كعلم الجرح والتعديل، ووضع شروط الرواية وشروط الحديث الصحيح والحسن والضعيف والمرسل والموقوف... وفي ما يلي نورد بعض التعاريف المهمة المتعلقة بعلم مصطلح الحديث:

نبذة عامة بمصطلح الحديث: لقد تواترت الأحاديث عن النبي ﷺ كما نعلم، في وجوب الأخذ بهديه في كل شيء من الأمور، ومن ذلك قوله ﷺ: "**عليكم بسنتي وسنة الخلفاء المهديين الراشدين، تمسكوا بها وعضوا عليها بالنواجذ، وإياكم ومُحدَثات الأمور فإن كل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة**"... والنبي ﷺ قد حض على اتباع سنته لما فيها من مضاعفة الأجر:

قال ﷺ: "**من أحيى سنة من سنتي قد أميتت بعدي كان له من الأجر مثل من عمل بها من غير أن ينقص من أجورهم شيئاً** "، أخرجه الترمذي. وعنه ﷺ قال: "**المتمسك بسنتي عند فساد أمتي له أجر مائة شهيد** "، أخرجه الطبراني في الأوسط والبيهقي في الزهد.

لذلك عنيت الأمة الإسلامية بالحديث النبوي، وبذلت من أجله أعظم الجهد. فقد نقل لنا الرواة أقوال الرسول عليه الصلاة والسلام في الشؤون كلها العظيمة واليسيرة، بل الجزئيات التي قد يتوهم أنها ليست موضع اهتمام، حتى يدرك من يتتبع كتب السنة أنها ما تركت شيئاً صدر عنه ﷺ إلا روته ونقلته. ولقد علم الصحابة بقيادة الخلفاء أنهم خرجوا هداة لا جباة، فأقام الكثير من الصحابة الفاتحين في أصقاع متفرقة ينشرون العلم ويبلّغون الحديث.

و نجد هذا الحرص، يسري من الصحابة إلى التابعين فمن بعدهم ... من هنا تقرر للناظر حقيقة لها أهميتها، وهي أن الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين يرجع إليهم الفضل في بدء علم الرواية للحديث، ذلك لأن الحديث النبوي في حياة المصطفى كان

عِلماً يُسمَع ويُتَلقَّف منه ﷺ – كما مر معنا – فلما لحق ﷺ بالرفيق الأعلى، حدَّث عنه الصحابة بما وعته صدورهم الحافظة ورووه للناس بغاية الحرص والعناية، فصار عِلماً يُروى ويُنقَل، ووجد بذلك علم الحديث رواية حيث وضع الصحابة له قوانين تحقق ضبط الحديث، وتميز المقبول من غير المقبول ومن هنا نشأ علم مصطلح الحديث.

تعريف الحديث: هو " ما أضيف إلى النبي ﷺ من قول أو فعل أو تقرير أو وصف خِلقي أو خُلقي"... ومعنى عِلم الحديث كتعبير لغوي إدراك الحديث، ولكنه استُعمِلَ عند العلماء كاصطلاح يطلقونه بإطلاقين:

أحدهما: علم الحديث رواية أو رواية الحديث.

والثاني: علم الحديث دراية أو علم دراية الحديث.

عِلم الحديث رواية: "هو عِلم يشتمل على أقوال النبي ﷺ وأفعاله وتقريراته وصفاته وروايتها وضبطها وتحرير ألفاظها". فهو عِلم موضوعه ما أضيف إلى النبي ﷺ، ويبحث عن روايتها وضبطها ودراسة أسانيدها ومعرفة حال كل حديث، من حيث القوة والضعف. كما يبحث في هذا العلم عن معنى الحديث وما يُستنبَط منه من الفوائد. باختصار، فعلم الحديث روايةً يحقق بذلك غاية عظيمة جداً تقوم على " الصون عن الخلل في نقل الحديث".

عِلم الحديث دراية: ويُطلَق عليه " مصطلح الحديث "، وهو: "علم بقوانين يُعرَف بها أحوال السند والمتن".

والسند هو حكاية رجال الحديث الذين رووه واحداً عن واحد إلى رسول الله ﷺ. وأحوال السند: هي ما يطرأ عليه من اتصال، أو انقطاع، أو تساهل بعض رجاله في السماع، أو سوء الحفظ، أو اتهامه بالفسق أو الكذب أو غير ذلك.

وأما المتن: فهو ما ينتهي إليه السند من الكلام. وأحوال المتن، هي ما يطرأ عليه من رفع، أو وقف، أو شذوذ أو علة، أو غير ذلك. فعلم المصطلح يضبط رواية الحديث ويحفظ الحديث النبوي من الخلط فيه أو الافتراء عليه، ولولا هذا العلم لاختلط الحديث الصحيح بالضعيف والموضوع ولاختلط كلام رسول الله ﷺ بكلام غيره!. ويُعتَبَر القرن الثالث الهجري عصر التدوين الذهبي للسنَّة، وفيه أصبح كل نوع من أنواع الحديث علماً خاصاً، فأفرد العلماء كل نوع منها بتأليف خاص. ولقد توالت سلسلة الجهود

العلمية متواترة متضافرة لحمل الحديث النبوي وتبليغه عِلماً وعملاً، فناً ودراسة وشرحاً، منذ عهد النبي ﷺ إلى عصرنا الحاضر، وإنها حقاً لمكرمة عظيمة أكرم الله بها هذه الأمة، بل هي معجزة تحقق صدق التنزيل: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿٩﴾ ﴾ [الحجر: ٩]. قال الحافظ أبو علي الجياني: "خص الله تعالى هذه الأمة بثلاثة أشياء لم يعطها من قبلها: الإسناد، والأنساب، والإعراب".

أهم مراتب الحديث من حيث القوة والضعف:

١- الحديث الصحيح: هو الحديث الذي اتصل سنده بنقل العدل الضابط عن العدل الضابط من أوله إلى منتهاه، دون شذوذ أو علة.

فالعدالة والضبط يحققان أداء الحديث كما سُمِعَ من قائله، واتصال السند على هذا الوصف من الرواة يمنع اختلال ذلك في أثناء السند، وعدم الشذوذ يحقق ويؤكد ضبط هذا الحديث الذي نبحثه وأنه لم يدخله وهم، وعدم الإعلال يدل على سلامته من القوادح الخفية، فكان الحديث بذلك صحيحاً لتوفر النقل الصحيح، فيُحكَم له بالصحة إجماعاً.

٢-الحديث الحسن: هو الحديث الذي اتصل إسناده بنقل عدل خفَّ ضبطه.فهو كالحديث الصحيح إلا أنَّه في إسناده من خفَّ ضبطه.

بالمقارنة بين هذا التعريف، وبين تعريف الحديث الصحيح، نجد أن راوي الحديث الصحيح تام الضبط، أما راوي الحديث الحسن فهو قد خف ضبطه.

فالمقصود أنه درجة أدنى من الصحيح، من غير اختلال في ضبطه وما كان كذلك يحسن الظن بسلامته فيكون مقبولاً.

٣-الحديث الضعيف: هو الحديث الذي فقد شرطاً من شروط الحديث المقبول من عدالة أو ضبط أو اتصال أو سلامة من الشذوذ والعلة.

٤-الحديث الموضوع: هو المُختَلَق المصنوع. أي الذي يُنسَب إلى رسول الله ﷺ كذباً، وليس له صلة حقيقية بالنبي ﷺ، وهو ليس بحديث.

٥-الحديث الموقوف: هو ما أُضيف إلى الصحابة رضوان الله تعالى عليهم. سُمِّيَ موقوفاً لأنه وقف به عند الصحابي، ولم يرفعه إلى النبي ﷺ. وبعض العلماء يطلقون على الموقوف اسم الأثر.

٦-الحديث المقطوع: هو ما أُضيف إلى التابعي.

٧-الحديث المُرسَل: هو ما أضافه التابعي إلى النبي ﷺ، بأن يقول: "قال رسول الله ﷺ" سواء كان التابعي كبيراً أو صغيراً.

علم الجرح والتعديل:

الجرح عند المحدثين هو الحكم على راوي الحديث بالضعف لثبوت ما يسلب أو يخل بعدالته أو ضبطه. والتعديل هو عكسه، وهو تزكية الراوي والحكم عليه بأنه عدل ضابط.

فعلم الجرح والتعديل هو ميزان رجال الرواية، به نعرف الراوي الذي يُقبَل حديثه ونميزه عمن لا يُقبَل حديثه. ومن هنا اعتنى به علماء الحديث كل العناية، وبذلوا فيه أقصى جهد، وتكبدوا المشاق، ثم قاموا في الناس بالتحذير من الكذابين والضعفاء المخلطين ولقد انعقد إجماع العلماء على مشروعيته، بل على وجوبه للحاجة الملجئة إليه.

ولقد اشتُرِطت شروط لا بد من أن تتوفر في الجارح والمعدل لكي تجعل حكمه منصفاً كاشفاً عن حال الراوي، كالعلم، والتقوى، والورع، والصدق، واليقظة التي تحمله على التحري والضبط وأن يكون عالِماً بأسباب الجرح والتعديل وبتصاريف كلام العرب فلا يضع اللفظ لغير معناه.

ولقد تعجب علماء الغرب وقالوا نحن لا نتصور أنَّ أي حضارة ينشأ فيها علم كهذا، لأنه علم يحتاج إلى جهد كبير وإنفاق الأموال والسفر... ولكن لو علموا كيف كان حب المسلمين لرسول الله ﷺ، وكيف كان الواحد منهم يفديه بروحه كما فعل ذاك الصحابي في معركة أُحُد وهو سيد الأنصار، حيث جعل من نفسه وصدره ووجهه درعاً لرسول الله ﷺ، وعندما انتهت المعركة أرسل النبي عليه الصلاة والسلام يتفقده، جاءه الصحابة فوجدوه ملقياً على الأرض على شفير الموت، سألوه عن حاله فقال لهم: "كيف رسول الله ﷺ؟ قالوا: بخير، قال: إذاً أنا بخير والحمد لله، بلِّغوا عني الأنصار، لأن متم جميعاً فداءً للنبي ﷺ خير لكم من أن يجرح رسول الله ﷺ بجرح".

لذلك شعر علماء المسلمين أنهم بعملهم هذا (وهو تدوين السنة) إنما يدافعون عن رسول الله ﷺ وعن حديثه، فكان الواحد منهم يشقي نفسه ويفني عمره بالسهر والتعب والسفر وإنفاق الأموال في سبيل المحافظة على سنّة الحبيب محمد ﷺ، جزاهم الله تعالى

عن أمة الإسلام كل خير.

أهم كتب الرواية في القرنين الثاني والثالث هجري:

١- موطأ مالك: ويعود تدوين هذا الكتاب إلى منتصف القرن الثاني هجري، وقد استغرق تصنيفه وجمعه وتحريره أربعين عاماً. أما عن تسميته، فقد رُوِيَ عن الإمام مالك أنه قال: "عرضتُ كتابي هذا على سبعين فقيهاً من فقهاء المدينة، كلهم وطَّأني عليه فسمَّيته الموطأ، (وطَّأ أي وافق)... وقد جمع في الموطأ ١٧٢٠ حديثاً مرفوعاً و٦٠٠ مرسلاً و٢٢٢ موقوفاً وأقوال التابعين وفتاويهم. والموطأ له مكانة عالية جداً وأغلب ما فيه صحيح. قال الشافعي: "ما على ظهر الأرض كتاب بعد كتاب الله أصح من موطأ مالك". ولم يكن كتاب البخاري قد ظهر بعد.

٢-مُسنَد الإمام أحمد: دوَّنه في أول القرن الثالث هجري ويُعتبَر من أشهر دواوين السُنة المشهورة وأجمعها للأحاديث، فقد وضع فيه الإمام أحمد قُرابة ثلاثين ألف حديث، انتقاها من نحو سبعمائة وخمسين ألف حديث. ولقد راعى فيه تسلسل نظام الطبقات بالنسبة للصحابة الذين أسند إليهم الحديث، حيث قدَّم أولاً أحاديث العشرة المُبَشَّرين بالجنة وأولهم الخلفاء الأربعة ثم بعدهم أحاديث أهل البيت وأقدم الصحابة إسلاماً... أكثر أحاديث المسند صحيحة بل وفيه من الأحاديث الصحيحة زيادة على ما في الصحيحين بل والسنن الأربعة، وفيه الحديث الحسن والضعيف، ويُقال إنَّ فيه بعض الأحاديث الموضوعة ولكن ما وُجِدَ فيه لا يزيد عن أربعة أحاديث وقد اعتُذِرَ عنها بأن تركها الإمام أحمد سهواً، وقد عاجلته منيَّته قبل إتمام تنقيح المسند منها، وقيل هي من زيادة ابنه عبد الله بن أحمد.

٣-صحيح البخاري: ويسمى الجامع الصحيح ويُعتَبَر صحيح البخاري عند أهل السُنة وجمهور الفقهاء والأصوليين أصح كتب السنة والأحاديث على الإطلاق، بل هو عندهم أصح كتاب بعد القرآن الكريم... ويُعتبَر صحيح البخاري أول كتاب دُوِّنَ في بداية النصف الثاني من القرن الثالث هجري، وقد بذل الإمام البخاري في تصنيف كتابه " الجامع الصحيح " جهداً كبيراً ووقتاً طويلاً بلغ ستة عشر عاماً حتى جمعه... وقد اختار أحاديثه من ستمائة ألف حديث، واقتصر على إخراج الصحيح منها ولم يستوعب كل الصحيح بل اختار منه ما وافق شرطه، وقد ترك من الصحيح أكثر مما أثبته لئلا يطول الكتاب. جمع الإمام البخاري في كتابه هذا نبذة من أحاديث الأحكام والفضائل

والأخبار والأمور الماضية والمستقبلية بالإضافة إلى الآداب والرقائق والدعوات والمغازي والسِّيَر لذلك سمي كتابه بالجامع الصحيح. وما كان من الأحاديث غير المسندة مما لم يتصل سنده من المعلقات، مما حُذِفَ من أول سنده راوٍ أو أكثر فهذا خارج عن نمط الكتاب ومنهجه وموضوعه ومقاصده، وإنما أورده البخاري للاستشهاد فقط في تراجم أبواب الكتاب ولا يوجد شيء منها في صلب الكتاب. ومما ينبغي أن يُعلَم أنَّ ما أورده البخاري منها بصيغة الجزم مثل " قال " و" ذكر " وروى " فهذا يفيد الصحة إلى من علَّق عنه، وأما ما علَّقه عن شيوخه بصيغة الجزم فليس من المعلَّق وإنما هو من المتصل وقد يعلِّق البخاري الحديث في بعض المواضع من الجامع الصحيح وهو بسند متصل في مكان آخر في نفس الصحيح وقد يكون الحديث معلقاً عنده في الصحيح وهو صحيح متصل عند مسلم أو عند غيره من أصحاب كتب السنة المشهورة. أما إذا كان المعلق بصيغة لا تدل على الجزم ويقال لها صيغة التمريض مثل " قيل "و " يُروى " و"يُذكر"، فهذا لا يستفاد منه الصحة ولا عدمها بل يحتمل.

أحاديث الجامع الصحيح على ما حققه ابن حجر بلغت ٢٦٠٢ حديثاً غير مكرراً، وإنَّ جملة ما فيه من الأحاديث المكررة سوى المعلقات والمتابعات ٧٣٩٨ حديثاً وجملة ما فيه من المعلقات ٣٤١ وجمع ما فيه بالمكرر ٩٠٨٢.

أجمع شروحه:

أ- فتح الباري شرح صحيح البخاري للحافظ ابن حجر العسقلاني الشافعي.

ب-عمدة القاري بشرح البخاري للعيني الحنفي.

٤-صحيح مسلم: يسمى الجامع الصحيح ويُعتبَر ثاني كتب الصحاح. استغرق جمعه ١٢ عاماً، وقد انتقاه من ثلاثمائة ألف حديث. جملة ما في صحيح مسلم دون المكرر أربعة آلاف حديث وهو بالمكرر يزيد على صحيح البخاري لكثرة طُرُقه. لم يستوعب البخاري ومسلم في صحيحيهما كل الأحاديث الصحيحة ولا التزما إخراج كل الصحيح وإنما أخرجا من الصحيح ما هو على شرطهما. فقد رُوِيَ عن البخاري أنه قال: "ما وضعتُ في كتابي الجامع إلا ما صح وتركتُ من الصحاح مخافة الطول". وقال مسلم: "ليس كل شيء عندي صحيح وضعتُه هنا وإنما وضعتُ ما أجمعوا عليه". إذاً فإنَّ كثيراً من الأحاديث الصحيحة توجد عند غيرهما من الكتب المعتمَدة، ممن التزم أصحابها إخراج الصحيح فيها كمستدرك الحاكم وصحيح ابن حِبَّان وصحيح ابن

خزيمة. والصحيح أن يُقال إنه لم يفُت الأمهات الست – الصحيحين والسنن الأربعة (سنن أبي داود وسنن الترمذي وسنن ابن ماجة وسنن النَّسائي) – إلا اليسير من الأحاديث الصحيحة وتوجد هذه الزوائد من الأحاديث الصحيحة في مسند أبي يعلى والبزَّار وبقية السنن الأخرى.

٥– سنن أبي داود: اعتنى أبو داود بأحاديث الأحكام خاصة وانتقى صحيحه من خمسمائة ألف حديث واشتمل على أربعة آلاف حديث من أحاديث الأحكام خاصة، لذلك فهو مرجع للفقهاء في أحاديث الأحكام. وهذا الكتاب هو أول السنن الأربعة وأقدمها منزلة بعد الصحيحين. قال أبو داود: "قد ذكرتُ فيه الصحيح وما يقاربه وما كان فيه وهن شديد بيَّنتُه وليس في كتابي هذا الذي صنَّفتُه عن رجل متروك الحديث شيء". ولكن مع هذا فهو لا ينص على صحة الحديث ولا ضعفه، فيسكت عنه. وما سكت عنه في منهجه صالح للاحتجاج به ولكن العلماء تتبعوا أحاديث السنن ودققوا فيها وحكموا عليها.

٦– جامع الترمذي: ويسمى سنن الترمذي، ويُعتبَر في المرتبة الثانية بعد سنن أبي داود. التزم فيه الترمذي بأن لا يُخَرِّج إلا حديثاً عَمِلَ به فقيه أو احتج به مجتهد. ولم يلتزم الترمذي بإخراج الصحيح فقط ولكنه أخرج الصحيح ونصَّ على صحته وأخرج الحسن وبيَّنه ونوَّه به وأكثر من ذِكره وهو الذي شهره، وأخرج الحسن الصحيح. يُعتبَر كتاب الترمذي من مظان الحديث الحسن. وأخرج أيضاً الضعيف ونصَّ على ضعفه وأبان علته وأخرج بعض الأحاديث المنكرة في باب الفضائل ونبَّه عليها غالباً. تميَّز كتابه بالاستدلالات الفقهية واستنباط الأحكام من الأحاديث وبيَّن من أخذ بها أو عمِلَ بها من الصحابة والتابعين والأئمة المجتهدين من فقهاء الأمصار. وقد تضمَّن كتابه أيضاً كتاباً آخر سماه " العلل "، كشف فيه علل بعض الأحاديث وبذلك يكون جامع الترمذي قد تضمَّن فوائد كثيرة.

٧– سنن النَّسائي: صنَّف النسائي "سننه الكبرى" التي تُعتبَر أقل الكتب – بعد الصحيحين – حديثاً ضعيفاً ورَجُلاً مجروحاً، ثم استخلص منه " السنن الصغرى " وتسمى " المجتبى " وهذا الكتاب هو أقل السنن حديثاً ضعيفاً وعدد أحاديثه ٥٧٦١ حديثاً.

٨– سنن ابن ماجة: يُعتبَر هذا الكتاب أدنى الكتب الستة في الرتبة. رتب ابن

ماجه الأحاديث فيه على أبواب الفقه شأنها شأن السنن الأخرى. جمع فيه ٤٣٤١ حديثاً منها ٣٠٠٢ حديثاً أخرجها أصحاب الكتب الخمسة و١٣٣٩ حديثاً زائداً عن الكتب الخمسة، منها ٤٢٨ حديثاً صحيح الإسناد و٦١٣ حديثاً ضعيفاً والباقي ٩٩ حديثاً ما بين واهٍ أو منكر أو موضوع.

خلاصة: إنَّ أصحاب السنن الأربعة لم يلتزموا إخراج الصحيح فقط كما فعل صاحبا الصحيحين البخاري ومسلم، بل أخرجوا الصحيح والحسن والضعيف، وتتفاوت كتبهم في المنزلة بحسب تفاوتهم في العلم والمعرفة، ولقد كان منهجهم في التأليف هو ترتيب الأحاديث على أبواب الفقه والاقتصار على أحاديث الأحكام. أما أصحاب الجوامع فقد تناولوا مع أحاديث الأحكام أحاديث العلم والوحي والتفسير والمغازي والسِّيَر والقصص والفتن وأشراط الساعة وغير ذلك من المواضيع العامة الجامعة لكثير من الأبواب... ونخلص إلى القول أن كل ما في صحيح البخاري ومسلم صحيح وأغلب ما في السنن الأربعة صحيح.

فوائد:

– إذا قيل رواه الشيخان أو مُتَّفق عليه أو أخرجه صاحبا الصحيحين، فمعناه أنه رواه البخاري ومسلم في صحيحيهما، وقد يرمز له بعض المحدِّثين ب" ق " أي متفق عليه.

– إذا قيل رواه الجماعة، يُقصَد به أصحاب الكتب السبعة: الصحيحان والسنن الأربعة ومسند أحمد.

– إذا قيل رواه الستة، فهم البخاري ومسلم وأبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجة ما عدا مسند الإمام أحمد.

– إذا قيل رواه أصحاب السنن أو الأربعة فيعني أصحاب السنن عدا البخاري ومسلم.

– إذا قيل رواه الخمسة فهم أصحاب السنن الأربعة وأحمد فقط.

– إذا قيل رواه الثلاثة فهم أصحاب السنن ماعدا ابن ماجة.

ملاحظة: للبخاري كتب أخرى غير الجامع الصحيح مثل الأدب المفرد وغيره ولم يلتزم البخاري بهذه الكتب الصحة كما التزمها في الجامع الصحيح.

٤- الدور الرابع من تاريخ التشريع الإسلامي: عصر الأئمة

ويمتد من أوائل القرن الثاني إلى منتصف القرن الرابع وهو دور تدوين السنة والفقه وظهور كبار الأئمة الذين اعترف لهم الجمهور بالزعامة وسيأتي فيما يلي ترجمة كل واحد منهم:

أولاً: ترجمة الإمام الأكبر أبي حنيفة النعمان رضي الله تعالى عنه وأرضاه:

بشارة النبي ﷺ به: قال النبي ﷺ مبشراً بأبي حنيفة: "لو كان الإيمان عند الثريا لذهب به رجل من فارس". وفي لفظ لمسلم: "لو كان الإيمان عند الثريا لذهب به رجل من أبناء فارس حتى يتناوله".

نزل ثابت والد الإمام الكوفة وكان من وجوه بلاد فارس، وعمل بالتجارة وكان ماهراً فيها وحافظ على نفس المستوى الاجتماعي الذي عاشته الأسرة من قبل، في رخاء وبحبوحة. التقى ثابت الإمام عليّ كرَّم الله وجهه الذي دعا له بالبركة فيه وفي ذريته.

والإمام أبو حنيفة هو النعمان بن ثابت بن زوطي، ولِدَ سنة ٨٠ من الهجرة بالكوفة. بدأ أبو حنيفة ومنذ نعومة أظافره يذهب مع أبيه إلى متجره حيث كان يلازمه ويتعلم منه أصول وأسس التعامل مع البائعين والمشترين، وتابع خطى أبيه وعاش في رخاء ويُسر وكان بزّازاً أي تاجر أقمشة وثياب وكان له شريك في متجره يساعده.

حرصه على الكسب الحلال: كان يقول: "أفضل المال الكسب من الحلال وأطيب ما يأكله المرء من عمل يده".

جاءته امرأة بثوب من الحرير تبيعه له فقال كم ثمنه، قالت مئة، فقال هو خير من مئة، فقالت مئتين، فقال هو خير من ذلك، حتى وصلت إلى أربع مئة فقال هو خير من ذلك، قالت أتهزأ بي؟ فجاء برجل فاشتراه بخمسمائة.

وذات يوم أعطى شريكه متاعاً وأعلمه أنَّ في ثوب منه عيب وأوجب عليه أن يبين العيب عند بيعه. باع شريكه المتاع ونسي أن يبين ولم يعلم من الذي اشتراه، فلما علم أبو حنيفة تصدَّق بثمن المتاع كله.

وكان أبو حنيفة يجمع الأرباح عنده من سنة إلى سنة فيشتري بها حوائج الأشياخ والمحدثين وأقواتهم وكسوتهم وجميع لوازمهم ثم يدفع باقي الدنانير من الأرباح إليهم ويقول: أنفقوا في حوائجكم ولا تحمدوا إلا الله فإني ما أعطيتكم من مالي شيئاً ولكن من

فضل الله عليّ فيكم.

كان الخليفة أبو منصور يرفع من شأن أبي حنيفة ويكرمه ويرسل له العطايا والأموال ولكن أبا حنيفة كان لا يقبل عطاءً. ولقد عاتبه المنصور على ذلك قائلاً: لم لا تقبل صلتي؟. فقال أبو حنيفة: ما وصلني أمير المؤمنين من ماله بشيء فرددته ولو وصلني بذلك لقبلتُه إنما وصلني من بيت مال المسلمين ولا حق لي به.

وقع يوماً بين الخليفة المنصور وزوجته شقاق وخلاف بسبب ميله عنها، فطلبت منه العدل فقال لها من ترضين في الحكومة بيني وبينك؟ قالت أبا حنيفة، فرضي هو به فجاءه فقال له: يا أبا حنيفة زوجتي تخاصمني فانصفني منها، فقال له أبو حنيفة: لِيتكلَّم أمير المؤمنين. فقال المنصور: كم يحلُّ للرجال أن يتزوج من النساء؟ قال: أربع. قال المنصور لزوجته: أسمعتِ. فقال أبو حنيفة: يا أمير المؤمنين إنما أحلَّ الله هذا لأهل العدل فمن لم يعدل أو خاف أن لا يعدل فواحدة لقوله تعالى: ﴿ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً ﴾، [النساء: ٣]، فينبغي لنا أن نتأدَّب مع الله ونتَّعظ بمواعظه. فسكت المنصور وطال سكوته، فقام أبو حنيفة وخرج فلما بلغ منزله أرسلت إليه زوجة المنصور خادماً ومعه مال وثياب، فردها وقال: أقرئها السلام وقل لها إنما ناضلتُ عن ديني وقمتُ بذلك المقام لله ولم أرد بذلك تقرباً إلى أحد ولا التمستُ به دنيا.

حرصه على مظهره: كان حريصاً على أن يكون مظهره حسناً تماماً لذا كان كثير العناية بثيابه.

رأى مرة على بعض جلسائه ثياباً رثة فأمره أن ينتظر حتى تفرَّق المجلس وبقي وحده فقال له: ارفع المصلى وخذ ما تحته، فرفع الرجل المصلى وكان تحته ألف درهم، وقال له خذ هذه الدراهم وغيِّر بها حالك، فقال له الرجل إني موسر وأنا في نعمة ولستُ أحتاج إليه، فقال له أبو حنيفة: أما بلغك الحديث: "إنَّ الله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده "؟.

طلبه للعلم: لزم أبو حنيفة عالِم عصره حمّاد بن أبي سليمان وتخرَّج عليه في الفقه واستمر معه إلى أن مات. بدأ بالتعلم عنه وهو ابن ٢٢ سنة ولازمه ١٨ سنة من غير انقطاع ولا نزاع. يقول أبو حنيفة: "بعد أن صحبتُ حمّاداً عشر سنين نازعتني نفسي لطلب الرياسة، فأردتُ أن أعتزله وأجلس في حلقة لنفسي. فخرجتُ يوماً بالعشيّ

وعزمي أن أفعل، فلمّا دخلتُ المسجد رأيتُه ولم تطب نفسي أن أعتزله فجئتُ فجلستُ معه، فجاء في تلك الليلة نعي قرابة له قد مات بالبصرة، وترك مالاً وليس له وارث غيره، فأمرني أن أجلس مكانه. فما هو إلا أن خرج حتى وردت عليَّ مسائل لم أسمعها منه، فكنتُ أجيب وأكتب جوابي. ثم قَدِمَ، فعرضتُ عليه المسائل وكانت نحواً من ستين مسألة، فوافقني بأربعين وخالفني في عشرين، فآليتُ على نفسي ألا أفارقه حتى يموت وهكذا كان".

وكان أبو حنيفة شديد الأدب مع شيوخه حتى أنه كان لا يتخلى باتِّجاه بيت شيخه حمّاد كان إذا نام يحرص أن لا تتوجه قدماه باتجاه بيت شيخه حمّاد. وقيل إن أبا حنيفة لم يكثر من الشيوخ مخافة أن تكثر حقوقهم عليه فلا يستطيع أداءها، فتأملوا في أدبه الرائع!.

ولعه بالفقه الفَرَضي: أولع أبو حنيفة بالفقه الفرضي بخلاف معظم علماء عصره الذين كانوا يقولون نحن مضطرون أن نُعَلِّم حكم الله في أمر حصل أمّا إذا لم يقع لا نحمِّل أنفسنا هذه المؤونة. ومعظم شيوخ أبي حنيفة كانوا على هذا المنوال وإن وُجِدَ فيهم من استجاز لنفسه أن يتوسع قليلاً فإلى حد محدود جداً. وأبو حنيفة كان على النقيض إذ كان يفرض الوقائع وإن لم تقع وكان يتأمل في حكمها ويعطي كلاً منها فتوى. هذا الأمر أعطى فقهه غزارة وغنى ومدعاة لأن يتبع الناس الفقه الأوسع والأكثر استجابة لواقع الحال، فما لم يقع اليوم سيقع غداً لاسيما عندما يكون هذا الإمام عالماً بعلم الاجتماع وخبيراً بالمشكلات التي ستنجم، مثال ذلك: لقي أبو حنيفة قتادة رضي الله عنه وهو عالِم من أجلِّ علماء الحديث فسأله ما تقول في رجل غاب عن أهله أمداً طويلاً ولم يُعرَف مصيره، فتزوجت امرأته من زوج آخر وبعد حين جاء زوجها، ما تقول في هذا؟ قال قتادة: أوقعت هذه المسألة؟ قال لا، فقال له وقد ظهر الغضب على وجهه: فلماذا تسألني عنها؟ قال له هذا الكلام المهم: "إننا نستعد للبلاء قبل نزوله فإذا ما وقع عرفنا الدخول فيه والخروج منه".

فتنته مع أبي هبيرة: كان أبو هبيرة والياً بالكوفة في زمان بني أميّة، فظهرت الفتن بالعراق، فجمع فقهاءها ببابه وفيهم ابن أبي ليلى وابن شبرمة وداود بن أبي هند، فولّى كل واحد منهم صدراً من عمله، وأرسل إلى أبي حنيفة فأراد أن يجعل الخاتم في يده ولا يُنفذ كتاب إلا من تحت يده ولا يخرج من بيت المال شيء إلا من

تحت يد أبي حنيفة. وكان المقصود حمل أبي حنيفة على الولاء له قسراً وقهراً أو إغراءً بالإكثار من المسؤوليات والمهمات، فامتنع أبو حنيفة وقال لو أرادني أن أعد له أبواب مساجد واسط لما فعلتُ!.. وقد سُجِنَ أبو حنيفة وضُرِبَ ضرباً مبرحاً مؤلماً أياماً متتالية حتى سقط فاقد الوعي.

منهج أبي حنيفة العلمي:

كان يقول: آخذ ما في كتاب الله وبما صحَّ عن رسول الله ﷺ وربما اشترط زيادة عن الصحة الشهرة فيما تقتضيه الشهرة في الأحكام والمسائل، فإن لم أجد آخذ بقول الصحابة، آخذ بقول من شئتُ منهم وأدع قول من شئتُ منهم عندما يختلفون ولكني ألزم نفسي بالأخذ من الصحابة وإذا لم أجد وآل الأمر إلى إبراهيم النخعي وإلى التابعين كالأوزاعي، فإني أجتهد كما اجتهدوا ولا ألزم نفسي باتِّباع رأي واحد منهم ما دام الأمر اجتهادياً. وكان يأخذ بحديث الآحاد ويعمل بها ما أمكن.

مثال: قوله تعالى: ﴿ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ ﴾، [المزمل: ٢٠] وحديث النبي عليه الصلاة والسلام يقول: "**لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب**"، متفق عليه، فحكم أنَّ أصل قراءة القرآن في الصلاة ركن، أمّا تقسيم القراءة للقرآن الكريم إلى الفاتحة وبعض ما تيسر من القرآن فواجب وبذلك عمل بالقرآن والسنة معاً.

وكذلك الطمأنينة في الركوع ليست فرضاً عند أبي حنيفة لإطلاق قوله تعالى: ﴿اركعوا﴾،أمّا الطمأنينة فثابتة بخبر الآحاد لذلك هي عنده واجبة.

ومن منهجه أنه يقدِّم السنّة القولية على الفعلية لجواز أن يكون الفعل خصوصية للنبي ﷺ.

ويقدِّم السنّة المتواترة على خبر الآحاد عند التعارض وعدم إمكان الجمع بينهما، كالجمع في السفر حيث قال أنه جمع صوري وهكذا كان يفعل عبد الله بن عمر. أبو حنيفة لا يجيز للمسافر أن يجمع بين الصلوات ولكن القصر عنده واجب.

ويقدِّم السنّة ولو حديثاً مرسلاً أو ضعيفاً على القياس، لذلك قال بنقض الوضوء من الدم السائل معتمداً على حديث مرسل، وكذلك نقض وضوء وبطلان الصلاة بالقهقهة أيضاً بحديث مرسل.

ومن منهجه أيضاً الاستحسان: والاستحسان لغةً هو وجود الشيء حسناً ومعناه

طلب الأحسن للإتباع الذي هو مأمورٌ به كما قال تعالى: ﴿...فَبَشِّرْ عِبَادِ ۝١٧ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥ﴾، [الزمر: ١٧-١٨]. وهو عند الفقهاء نوعان:

١- العمل بالاجتهاد وغالب الرأي في تقدير ما جعله الشرع مدلولاً إلى آرائنا نحو قوله تعالى: ﴿مَتَٰعًۢا بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ ۝٢٣٦﴾، [البقرة: ٢٣٦]، أوجب ذلك بحسب اليسار والعسرة وشرط أن يكون بالمعروف، فعرفنا أنَّ المراد ما يُعرَف استحسانه بغالب الرأي ولا خلاف في هذا النوع.

٢- هو الدليل الذي يكون معارضاً للقياس الظاهر الذي تسبق إليه الأوهام قبل إمعان التأمّل فيه، وبعد إمعان التأمل في حكم الحادثة وأشباهها من الأصول يظهر أنَّ الذي عارضه فوقه في القوة، فإنّ العمل به هو الواجب، فسمّوه بذلك استحساناً للتمييز بين هذا النوع من الدليل وبين الظاهر الذي تسبق إليه الأوهام. مثاله: لو قال لامرأته: إذا حضتِ فأنت طالق، فقالت: قد حضتُ، فكذَّبها الزوج، فإنها لا تُصَدَّق في القياس باعتبار الظاهر وهو أنَّ الحيض شرط للطلاق كدخولها الدار وكلامها زيداً. وفي الاستحسان تُطَلَّق لأن الحيض شيء في باطنها لا يقف عليه غيرها، فلا بدمن قبول قولها فيه.

العرف والعادة: هو ما استقر في النفوس من جهة العقول وتلقته الطباع السليمة بالقبول. وإنما يكون العرف دليلاً حيث لا دليل شرعي من كتاب وسنة. قال ابن مسعود: ما رآه المسلمون حسناً فهو عند الله حسن... وألَّف ابن عابدين رسالة "العرف" تضمنت مسألة تضمين الخياط والكواء (ومثالهما إذا أحرقا القماش أو أضاعاه).

وأبو حنيفة هو أساس من جمع بين مذهبي أهل الحجاز أهل الحديث وأهل العراق أهل الرأي. كان أبو حنيفة من علماء الرأي ولكنه ذهب إلى الحجاز وأقام في مكة ست سنوات يأخذ العلم من علماء الحجاز أمثال عبد الله بن عمر... يذكر أن أبا حنيفة دخل يوماً على المنصور فقال له أحد الجالسين: هذا عالِم الدنيا اليوم... فقال له المنصور: يا نعمان من أين أخذتَ علمك؟ قال: من أصحاب عبد الله بن عمر عن عبد الله بن عمر (أهل الحديث) ومن أصحاب عبد الله بن عباس عن عبد الله بن عباس ومن أصحاب عبد الله بن مسعود عن عبد الله بن مسعود (أهل الرأي)... إذاً لأول مرة خرق أبو حنيفة الحدود الفاصلة بين المذهبين. عندما ذهب إلى أهل الحجاز تعلم منهم

الحديث وتعلموا منه كيفية استخراج الأحكام فاستفاد وأفاد. وانعكس هذا الأمر على تلامذته مثل أبو يوسف ومحمد بن الحسن الشيباني وغيرهم... وكان لإخلاصه في طلب العلم يرجع عن رأيه إذا اطلع على حديث أو فتوى صحابي.

تأديبه لتلميذه أبي يوسف: لمّا مرض أبو يوسف قال أبو حنيفة: لئن مات هذا الغلام لم يخلفه أحد على وجه الأرض. فلمّا عوفي أُعجِبَ بنفسه وعقد له مجلساً في الفقه فانصرفت وجوه الناس إليه، فلمّا بلغ ذلك أبا حنيفة قال لبعض من عنده: اذهب إلى مجلس يعقوب (يعني أبو يوسف) وقل له: ما تقول في قصّار دفع إليه رجل ثوباً ليقصّره بدرهمين ثم طلب ثوبه فأنكره القصّار ثم عاد له وطلبه فدفعه له مقصوراً، له أجرة؟ فإن قال نعم قل له أخطأت وإن قال لا قل أخطأت. فسار إليه الرجل فسأله فقال نعم له أجرة فقال له أخطأت، فنظر ساعة فقال لا، فقال أخطأت، فقام من ساعته لأبي حنيفة فلما رآه قال: ما جاء بك إلا مسألة القصّار. قال: أجل. قال: سبحان الله من قعد يفتي الناس وعقد لنفسه مجلساً يتكلم في دين الله تعالى وهذا قدره لا يحسن أن يجيب في مسألة من الإجارات، فقال: علِّمني، قال: إن كان قصَّره بعد ما غصبه فلا أجرة له لأنه قصَّره لنفسه، فإن قصَّره قبل غصبه فله الأجرة لأنه قصَّره لصاحبه، فعاد أبو يوسف ولم يترك بعدها مجلس أبي حنيفة قط.

موقفه من آل بيت النبي ﷺ: موقفه من آل بيت النبي ﷺ في عصره كموقف الأئمة الأربعة وموقفنا جميعاً وهو حب آل البيت والانتصار لهم كما قال الإمام الشافعي عندما اتُّهِمَ بالتشيع: إن كان رَفضُنا حب آل محمد فليشهد الثقلان أني رافض.

ومن المعلوم أنَّ أبا حنيفة كان متشيِّعاً إن صح التعبير لآل البيت (أي كان يحبهم ويقف معهم إذا تعارضوا مع الخليفة في عصره)، لكنه كان دائماً يعلن أنَّ أبا بكر أفضل من عمر وعمر أفضل من عثمان ويرى أنَّ كلاً من عثمان وعلي بمستوى واحد. ومعنى ذلك أنَّ حبه لآل البيت كان حباً شعورياً تفرَّع عن حبه للمصطفى ﷺ ولم يكن حباً مذهبياً ينحاز عن أهل السنّة والجماعة. وذكر أبو حنيفة أنه التقى بالإمام محمد الباقر وهو من أئمة الإمامية وهو والد جعفر الصادق، فسأله أبو حنيفة: ما تقول أصلحك الله في أبي بكر وعمر؟ فأثنى محمد الباقر عليهما خيراً وقال يرحمهما الله تعالى وأخذ يفيض بالحديث عن آثارهما فقال له بعضاً من أهل العراق يقولون إنك تتبرأ منهما، قال معاذ الله، كذبوا ورب الكعبة! أتعلم من هو عمر لا أباً لك؟ إنه ذاك الذي زوجه عليّ من

ابنته أم كلثوم، وهل تدري من هي أم كلثوم لا أباً لك؟ إنَّ جدها رسول الله وإن جدتها السيدة خديجة سيدة نساء الجنة وإنَّ أمها فاطمة الزهراء وإنَّ أباها عليّ فلو لم يكن عمر أهلاً لها لما أعطاه عليّ ابنته!.

وقد اشتُهِرَت كلمة لأبي حنيفة جاء فيها: "ما قاتل عليّ أحداً إلا وعليّ أولى بالحق منه أي في عصره بعد أبي بكر وعمر". لم يكن حبه لآل البيت يدفعه إلى الانتقاص من صحابة رسول الله ﷺ بل على العكس، لأن أصحاب النبي ﷺ كلهم يحبون ويوقرون آل بيته ﷺ وآل البيت كلهم يحبون ويُجِلّون ويوقرون كل صحابة النبي ﷺ. هذا الخط يجسِّد الصراط العريض الذي أشار إليه رسول الله ﷺ في أحاديث بلغت في مجموعها مبلغ التواتر المعنوي مثاله: " **عليكم بالجماعة** "، " **عليكم بالسواد الأعظم ومن شذَّ شذَّ في النار**"، " **إنَّ الشيطان مع الواحد وهو من الاثنين أبعد** "، " **سألتُ ربي أن لا تجتمع أمتي على ضلالة** "، " **من أراد أن يلزم بحبوحة الجنة فليلزم الجماعة**"...

وكان أبو حنيفة على علاقة طيبة مع المنصور ولكن لما قتل أبو جعفر المنصور محمد بن عبد الله بن حسن الملقَّب بالنفس الزكية من الطالبيين بدأ أبو حنيفة يغير موقفه من الخليفة وأخذ ينتقد مواقفه وأخطاءه عندما تطرح عليه الأسئلة وكان ذلك يغيظ الخليفة كثيراً. انتفض أهل الموصل على المنصور وكان المنصور قد اشترط عليهم أنهم إن انتفضوا حلَّت دماؤهم، فجمع المنصور العلماء والفقهاء والقضاة وكان بينهم أبا حنيفة وقال لهم: أليس صح أنَّ رسول الله قال المؤمنون عند شروطهم يلتزمون بها وأهل الموصل قد اشترطوا ألا يخرجوا عليّ وها هم قد خرجوا وانتفضوا ولقد حلَّت دماؤهم فماذا ترون؟ قال أحد الحاضرين: يا أمير المؤمنين، يدك مبسوطة عليهم وقولك مقبول فيهم فإن عفوتَ فأنت أهل العفو وإن عاقبتَ فبما يستحقون. التفت المنصور إلى أبي حنيفة يسأله ويستنطقه ليوقع به فقال أبو حنيفة: إنهم شرطوا لك ما لا يملكونه وشرطتَ عليهم ما ليس لك لأنَّ دم المسلم لا يحِلُّ إلا بإحدى ثلاث فإن أخذتهم أخذتَ بما لا يحلُّ وشرط الله أحق أن يوفى به. عندئذ أمر المنصور الجميع أن ينصرفوا ما عدا أبي حنيفة وقال له: إنَّ الحق ما قلتَ، انصرف إلى بلادك... ويُروى أنه كان لأبي حنيفة جار رافضي كان عنده بغلان سمى واحداً أبا بكر والآخر عمر، وفي أحد الأيام رفسته بغلة فوقع ميتاً، فقال أبو حنيفة: انظروا البغلة التي رفسته هي التي سماها عمر، وهكذا كان!.

أما سبب انتشار مذهب أبي حنيفة واتِّباع الناس له بخلاف مذهب معاصريه أمثال الأوزاعي وعطاء بن أبي رباح وإبراهيم النخعي وهم شيوخ أبي حنيفة وذلك لعدة عوامل نذكر منها ما يلي:

١- أخذ أبو حنيفة عن أربعة آلاف شيخ من التابعين وأفتى في زمن التابعين.

٢- قيَّض الله تعالى لأبي حنيفة تلاميذ كانوا في الوقت نفسه فطاحل من العلماء وقد دوَّنوا آراءه وفتاويه واجتهاداته بخلاف باقي الأئمة في عصره. فأبو يوسف دوَّن فقه أبي حنيفة في الكتب وكذا فعل محمد بن الحسن الذي دوَّن كل فقهه والاجتهادات الأخرى حتى التي تراجع عنها، وهناك كتب تُسمّى كتب " ظاهر الرواية " كلها للإمام محمد. وقام كلٌّ من أبي يوسف ومحمد بجمع الأحاديث التي يرويها الإمام في فتاويه كمستندات لفقهه مثل كتاب الآثار وكتب أخرى وأحاديث كثيرة موزَّعة في هذه المدونات. ولقد كانت طريقة أبي حنيفة بالتعليم مبنيةً على السؤال والإقناع برأي ثم قوله ولكني أرى غير هذا ويعلم أصحابه الفتوى وطريقة التفكير.

وأبو حنيفة هو أول من من رتب مسائل الفقه حسب أبوابها من طهارة وصلاة... دوَّنها الإمام أبو يوسف -في غالب الأحيان- في سجلات حتى بلغت مسائله المدونة خمسمائة ألف مسالة. انتقل تلامذته الفحول البالغون ٧٣٠ شيخاً إلى بلادهم خاصة بلاد الأفغان وبخارى والهند... فشرَّق فقه الإمام أبي حنيفة وغرَّب وشمأل وجنَّب حتى ليعد علي بن سلطان القاري المتوفى سنة ١٠١٤ هجري ثلثي المسلمين في العالم على مذهب الإمام أبي حنيفة.

٣- إنَّ الله تعالى شاء أن يكون أبو يوسف قاضياً وأن يتولى القضاء لثلاث من الخلفاء المهدي والهادي وهارون الرشيد وسُمِّيَ بعد ذلك قاضي القضاة وكان وهو حنفي يقضي بمذهب أبي حنيفة وكذلك كان أغلب القضاة الذين كان ينصِّبهم والمدونات التي كانت تُدَوَّن في دار الخلافة كانت تدوَّن على مذهب أبي حنيفة، كل هذا وغيره جعل فقه الإمام أبي حنيفة ينتشر أكثر من فقه من سبقه أمثال الأوزاعي وجعفر الصادق وغيرهم ....

أهم مؤلفاته: تميَّز عصر أبي حنيفة بوجود الفرق المبتدعة المختلفة مثل: الشيعة والمعتزلة والمرجئة والقدرية والجهمية أو المعطلة... هذه الفِرَق كلها كانت أشبه ما تكون بالحاشية على الجسم الكبير كحاشية في أطراف جسم المجتمع الإسلامي، فكانت هذه

الفرق مع قلة أتباعها يبثّون الشُّبَه وتسمَّت كل فرقة بإسمٍ، فقام علماء المسلمين يردون على هؤلاء المبتدعة. وكان لا بد من أن يسمّوا أنفسهم بإسم حتى يتبين قول هؤلاء المبتدعة من قول عامة المسلمين، فسمّوا عامة المسلمين أهل السُنَّة والجماعة وهي ما كان عليه ﷺ والصحابة والتابعين وهم السواد الأعظم من الأمَّة. وبظهور الأئمة الأربعة، اشرأبَّت أعناق الناس إليهم يأخذون من فقههم وينهلون من علومهم وكانت لهم عبقرية نادرة في الاستنباط مما دعا الناس إلى الإقبال عليهم والأخذ منهم، فجمع هؤلاء الأئمة الناس على منهج أهل السنّة والجماعة فيما يتعلق بالعقيدة وحذَّروا الناس من البدع ودافعوا عن الإسلام دفاعاً قوياً. وألَّف أبو حنيفة كتاب " الفقه الأكبر " بيَّن فيه عقيدة المسلمين ورد فيه على المبتدعة... ونُقِلَ أنَّ له مسنداً ولكن المحقق أنَّ هذا المسند من جمع أبي يوسف عن أبي حنيفة سماه: "**الآثار**"..

أقوال معاصريه فيه:

– الفضيل بن عياض قال فيه: كان أبو حنيفة رجلاً فقيهاً معروفاً بالفقه، واسع المال معروفاً بالأفضال على كل من يطوف به، صبوراً على تعلُّم العلم بالليل والنهار، حَسَنَ الليل، يقوم الليل (و هذا شيء معروف عنه)، كثير الصمت، قليل الكلام حتى يرد مسألة في حلال أو حرام.

– عبد الله بن المبارك العالِم الكبير والتابعي الجليل يقول: كان أبو حنيفة مخ علم أو مخ العِلم أي كنت تأخذ منه لباب العلم.

– مالك بن أنس قال عنه: لو جاء إلى أساطينكم فقايسكم على أنها خشب لظننتم إنها خشب.

– الإمام زُفَر قال: جالستُ أبا حنيفة أكثر من عشرين سنة فلم أر أحداً أنصح للناس منه ولا أشفق عليهم منه، كان بذل نفسه لله تعالى، أمّا عامة النهار فهو مشتغل في العلم وفي المسائل وتعليمها وفيما يُسأل من النوازل وجواباتها وإذا قام من المجلس عاد مريضاً (أي زار) أو شيَّع جنازة أو واسى فقيراً أو وصل أخاً أو سعى في حاجة، فإذا كان الليل خلى للعبادة والصلاة وقراءة القرآن، فكان هذا سبيله حتى توفي رضي الله تعالى عنه.

– أجمع علماء عصره على أنه لم يجتمع لأحد غيره في ذلك العصر ذكاء وقوة بادرة وعلم وقوة استنتاج.

– كان أبو حنيفة في زيارة شيخه الأعمش يوماً (والأعمش من كبار المحدثين)، فجاء إلى الأعمش رجل يسأله عن مسألة في العلم فقال لأبي حنيفة: أجبه. فأجابه، فقال له: ومن أين لك هذا؟ قال: من حديث حدثتنيه هو كذا وكذا. فقال الأعمش: حسبك ما حدَّثتُكَ به في سنة تحدِّث به في ساعة، أنتم الأطباء ونحن الصيادلة.

سؤال: لماذا نتبع أبا حنيفة ولا نتبع رسول الله ﷺ؟

الجواب: بعد أن أوضحنا الأدوار الثلاثة وبدأنا الكلام عن الدور الرابع لم يبقَ لهذا السؤال أي معنى فأبو حنيفة لم يخترع شيئاً بل اتِّباعُنا له هو عين اتِّباع لرسول الله ﷺ لأن الذي فعله أبو حنيفة هو أن شرح لنا آيات كتاب الله عز وجل وأحاديث النبي ﷺ واستخرج منها الأحكام وبوَّبها على أبواب الفقه. فمن المعلوم أن للقرآن الكريم تفاسير عديدة، كل تفسير عُنِيَ بناحية من النواحي، فتفسير يُعنى بالعقيدة كتفسير الرازي وتفسير يعنى بالمأثور كتفسير ابن كثير وتفسير يعنى باللغة كتفسير الآلوسي وابن عاشور وغيرهم، كذلك هؤلاء الأئمة الأربعة، كل ما فعلوه أنهم عمدوا إلى الكتاب والسُّنة وأقوال الصحابة فجمعوها واستنبطوا منها الأحكام وبوَّبوها بأبوابها: باب الطهارة باب الصلاة...إلخ ودوَّنوها لنا، فإذا أخذنا عنهم نكون حقيقة قد أخذنا عن الله عز وجل وعن رسوله ﷺ، ذلك لأن عامة الناس لا يفقهون آيات كتاب الله تعالى ولا أحاديث النبي عليه الصلاة والسلام ولا يعلمون الناسخ والمنسوخ والعام والخاص وما إلى ذلك...

سؤال: إنَّ أبا حنيفة بشر غير معصوم يصيب ويخطىء فكيف نتبعه؟

الجواب: كونه بشر لا ينقص من مكانته ولا يمنع من جوازه، لا بل ضرورة اتباعه أو أحد الأئمة الأربعة لكل من لم يبلغ درجة الاجتهاد ثم من الذي يستطيع أصلاً أن يكشف خطأ الإمام في الاجتهاد خاصة إذا كان من العوام؟ وإن كان مجتهداً وصل إلى درجة الإجتهاد المطلق فهذا المجتهد نفسه غير معصوم أيضاً، فمن نتبع إذاً!!!؟ إنَّ الله تعالى أمرنا باتباع العلماء والمجتهدين المخلصين في قوله تعالى: ﴿ فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾، ﴿ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِى ٱلْأَمْرِ ﴾، وأهل الذكر هم أمثال أبي حنيفة ومالك... ومن المعلوم أنه ليس من الضرورة أن يكون قول الإمام هو القول المفتى به في المذهب، فالإمام لم يكن لوحده يمثِّل مذهبه، هناك فقهاء كثيرون محققون ينتسبون للمذهب نفسه يصوِّبون الإمام إن أخطأ. والذي يريد أن يحقق في مسألة مس المرأة الأجنبية عند الحنفية والشافعية ليُرَجِّح قول أحدهما، إن كان هذا

الإنسان وصل بدرجة اجتهاده إلى مرتبة هؤلاء الأئمة فلا بأس وعلى كل الأحوال هو بعد بحثه سيخرج بقول ما، وقوله أيضاً سيكون اجتهادياً وهو غير معصوم فماذا فعل إذاً؟ وإذا أراد أحد العلماء في درس عام مثلاً أن يرجِّح قولاً على قول فإنما يكون الهدف من ورائه أن يقول الناس إنَّ فلاناً عالِماً جليلاً بلغ من العِلم درجة يستطيع أن يحكم فيها على الأئمة ولن يفيد الناس شيئاً إلا حملهم من تقليد أبي حنيفة أو الشافعي وغيرهما من الذين اتفقت الأمّة على وجوب تقليد واحد منهم، إلى تقليده هو في هذه القضية، فبماذا يكون قد نفع المسلمين؟!!!. يقول المثل: من جهل شيئاً عاداه. وبالفعل فالرجل الذي يسمع بإنسان عالِم ويسمع آراءه واجتهاداته لكن ما جالسه وما سمع منه حججه، لن يستطيع أن يحكم عليه. عندما لمع اسم أبي حنيفة وانتشر صيته في العراق وقبل أن يراه علماء الحجاز أو علماء الشام ربما كان هنالك كثير من علماء الحجاز من يضيق ذرعاً باجتهاداته وربما نعتوه بأنه مبتدع ولكن بعد أن رأوه وجاء هو إلى الحجاز وجالسوه وسمعوا منه وسمعوا حججه اختلف الأمر تماماً! مثال ذلك: يقول عبد الله بن المبارك إنَّ الإمام الأوزاعي سأله من هو هذا المبتدع الذي ظهر في العراق (ويقصد أبا حنيفة)، فقال ابن المبارك: لم أجب، ثم أخذتُ أعرض له مسائل عويصة في الفقه وأحدثه عن فتاوى يمكن أن تكون جواباً، فقال لي: والله إنَّ هذه الأجوبة لأجوبة سديدة، من هو صاحبها؟ قلتُ له: فقيه في العراق. قال: من هو؟ قلتُ: هو أبو حنيفة. قال: إنَّ هذا الإنسان نبيل وذو علم غزير فالزمه. ثم إنَّ الأوزاعي التقى بعد ذلك بأبي حنيفة وتناقشا في كثير من المسائل العلمية فتحولت نظرة الأوزاعي وأخذ يوصي الناس بمجالس أبي حنيفة والاستكثار من علمه وفضله.

كثيرون اليوم هم الذين ينتقصون من مكانة أبي حنيفة وينتقدون فتاويه واجتهاداته وهذا سهل لأنهم يزنون تلك الاجتهادات بميزانهم هم، فتبين من خلال ميزانهم هذا أنَّ أبا حنيفة جاهل مع العلم أنهم لن يكونوا أعلم من الأوزاعي أو عبد الله بن المبارك. ومما يُذكر أيضاً أنَّ الشافعي عندما رحل إلى بغداد، التقى بمحمد بن الحسن ليتتلمذ على يده ولو وسعه أن يتتلمذ على أبي حنيفة لفعل ولكنه لم يستطع بسبب وفاة أبي حنيفة في العام الذي وُلِدَ فيه الشافعي وكان يقول: أخذتُ من محمد وقر بعير من علم. وكثيرة هي المسائل التي أخذ فيها الشافعي برأي محمد وكثيرة هي المسائل التي اخذ فيها محمد برأي الشافعي وتراجع عن رأيه. فهناك مثلاًمن يتهم أبا حنيفة بأنه لم يكن يحفظ إلا

بضعة عشر حديثاً ولم تكن له بضاعة في رواية الأحاديث... إذا رجعتَ إلى ترجمة الإمام لوجدتَ الإجماع على أنَّ هذا كذب، فقد صح عنه أنه:

- تفرَّد برواية وتخريج أكثر من مئتي حديث فضلاً عن الأحاديث التي اشترك مع المحدثين الآخرين في روايتها.

- لو أردتَ أن تجمع الأحاديث من مصنفات محمد بن الحسن وأبي يوسف وغيرهما من مرويّات أبي حنيفة فلسوف تجد الشيء الكثير.

- لو وقفتَ على مناقشة بسيطة في مسألة من مسائل الفقه بينه وبين أحد الأئمة لرأيته يروي عدداً كبيراً من الأحاديث.

مروياته في باب الصلاة تزيد عن مائة حديث.

ورعه وتقواه وعبادته لله تعالى: قال ابن المبارك: قلتُ لسفيان الثوري: ما أبعد أبا حنيفة عن الغيبة، ما سمعتُه يغتاب عدواً له. قال: والله هو أعقل من أن يسلِّط على حسناته ما يذهب بها... كان أبو حنيفة يختم القرآن في كل يوم ثم حين اشتغل بالأصول والاستنباط واجتمع حوله الأصحاب أخذ يختمه في ثلاث في الوتر... صلى أبو حنيفة ثلاثين سنة صلاة الفجر بوضوء العتمة وحج خمساً وخمسين حجة.

قال مِسْعَر بن كِدَام: رأيتُ الإمام يصلي الغداة ثم يجلس للعلم إلى أن يصلي الظهر ثم يجلس إلى العصر ثم إلى قريب المغرب ثم إلى العشاء، فقلتُ في نفسي متى يتفرغ للعبادة؟ فلما هدأ الناس خرج إلى المسجد وكان بيته بجوار المسجد الذي يؤم فيه حسبة لله تعالى. فانتصب للصلاة إلى الفجر ثم دخل فلبس ثيابه. وكانت له ثياب خاصة يلبسها لقيام الليل وخرج إلى صلاة الصبح ففعل كما فعل، ثم تعاهدته على هذه الحالة فما رأيته مفطراً ولا بالليل نائماً. وكان يغفو قبل الظهر إغفاءة خفيفة، وقرأ ليلة حتى وصل إلى قوله تعالى: ﴿ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾ ﴾، [الطور: ٢٧] فما زال يرددها حتى أذِّن الفجر. وردد قوله تعالى: ﴿ بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ ﴿٤٦﴾ ﴾، [القمر: ٤٦]، ليلة كاملة في الصلاة. وقالت أم ولده: ما توسَّد فراشاً بليل منذ عرفتُه وإنما كان نومه بين الظهر والعصر في الصيف وأول الليل بمسجده في الشتاء.

عرض القضاء عليه ووفاته: عرض عليه الخليفة القضاء مراراً وضُرِبَ عليه وقال إني لا أصلُح، قال الخليفة بل أنت تكذب أنت تصلُح، فقال: أرأيت، أنت تقول عني كذاب، فإني لا أصلح للقضاء. وكان أبو حنيفة ينقد قضاء القضاة بشدة ويبين أخطاءهم، فاتخذ المنصور هذا الموقف ذريعة للتخلص منه فعرض عليه من جديد تولي منصب القضاء فأبى ورفض فحبسه وجرى بينهما حوار قال فيه: اتقِ الله ولا ترع أمانتك إلا من يخاف الله والله ما أنا بمأمون الرضى فكيف أكون مأمون الغضب، لك حاشية يحتاجون إلى من يُكرمهم لك فلا أصلح لذلك. ثم حبسه وضربه على مشهد من العامة ثم أُخرِجَ من السجن ومُنِعَ من الفتوى والجلوس إلى الناس حتى توفي. وقبِلَ أبو حنيفة أن يعمل كأحد العمال في بناء سور بغداد تفادياً للنقمة، ولّما أحسَّ بالموت سجد فخرجت نفسه وهو ساجد عام ١٥٠ هجري وكان يردد المنصور بعد وفاة الإمام: من يعذرني من أبي حنيفة حياً وميتاً.

٢- ترجمة الإمام مالك بن أنس رضي الله عنه:

بشارة النبي ﷺ به: عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **"يوشك أن يضرب الناس أكباد الإبل يطلبون العلم، فلا يجدون أحداً أعلم من عالم المدينة "**، أخرجه الترمذي وهو حديث حسن صحيح. قال العلماء: وعالم المدينة هو مالك بن أنس وهو الذي بشر به النبي ﷺ.

ميلاده ونسبه ونشأته وطلبه للعلم: ولد مالك بن أنس عام ٩٣ هجري وتوفي عام ١٧٩ للهجرة. ولد في المدينة المنورة من أسرة أصلها من اليمن وكانت أسرته هذه أسرة علم، والده أنس كان عالماً واسم جده مالك أبو عامر الأصبحي وكان مُحَدِّثاً وراوياً سمع الحديث من أبي بكر وعمر وعثمان وكثير من الصحابة رضي الله عنهم. ولقد روى مالك الحديث عن أبيه وجده. ويروى أنه ذات ليلة وقد اجتمع أفراد أسرة مالك على عادتهم متحلقين حول الأب يسرد عليهم بعض وقائع أيامه وأحداثه، سأل الوالد أبناءه سؤالاً في الدين فأجابوه جميعاً إجابات سليمة صحيحة عدا مالك الذي عجز وتلجلج وكان في العاشرة من عمره قد حفظ القرآن الكريم وشيئاً من حديث رسول الله ﷺ إلا أنَّ عقله في مثل سنه لم يكن ليسمح له بالفهم والعلم فعجز عن الجواب فعنَّفه أبوه أنس ووبخه

ونهره لانشغاله باللعب عن طلب العلم. وانفجر مالك بالبكاء وهو يأوي إلى صدر أمه، فضمَّته إليها وعانقته ولاطفته وخففت عنه ما به من حزن وألم وفي اليوم التالي شدَّت على رأسه عمامة جديدة وضمَّخته بأطيب العطر وأشارت عليه بإتيان مسجد الرسول الأعظم ﷺ والجلوس إلى حلقات العلم المنتشرة هناك ودعت له بالخير وبالتفقه والفهم والحفظ. ومنذ ذلك اليوم لازمته عادة الاستحمام والتطيب كلما أتى مجلس العلم سواء كان متعلماً أو معلماً فيكون في أحسن سمت وأكمل مظهر وأرقى صورة، ودخل مالك بوابة العلم الكبرى ولم يغادرها حتى توفاه الله تعالى. وكان يجد نفسه بحاجة إلى مزيد علم، فقد كان يهمه أحياناً أمر علمي أو مسألة فبعد أن تنفضّ الحلقات ويأوي الشيوخ إلى دورهم فلا يجد مالك صبراً إلى الغد كي يسأل ويفهم لذا راح يسعى إلى الشيوخ في بيوتهم ومساكنهم وقد ينتظر أحدهم في الطريق الساعات الطوال ما يجد فيها ظل شجرة تقيه حرارة الشمس حتى إذا ما رآه يدخل داره ينتظر لحظات ثم يقرع الباب وكان في بعض الأحيان يحمل معه تمراً يهديه لجارية الفقيه لتمكِّنه من الدخول على العالم.

وتعلق بالعلم تعلقاً جاداً فلزم عبد الرحمن بن هرمز وهو عالم من أجلِّ علماء المدينة سبع سنوات لم يختلف فيها إلى غيره وكان يأخذ عنه المسائل الاجتهادية وقضايا الفقه وكان ابن هرمز مشهوراً بقوة عارضته ودلائل الحق ويقول الإمام مالك عن نفسه أنه اتخذ لنفسه ما يشبه الطرّاحة الصغيرة، كان يأخذها معه فيجلس على صخرة أمام دار ابن هرمز ولم يكن يطرق بابه خوفاً من أن يزعجه منتظراً خروج الإمام يعني ابن هرمز إلى الصلاة، فإذا خرج اتبعه وذهب معه إلى المسجد.

ثم بدأ يأخذ عن نافع مولى (أي خادم) عبد الله بن عمر وكان من أحفظ علماء الحديث، كان حافظاً وكان فقيهاً، أخذ الفقه والحديث عن ابن عمر... ثم أخذ مالك أيضاً عن الزهري وكان يلازمه كما لازم ابن هرمز وكان يسير معه من بيته إلى المسجد. يقول الإمام مالك عن نفسه: كنت أخرج من وقت الظهيرة وليس للأشياء ظل أتيمم درساً عند الزهري... وأخذ مالك الحديث عن الزهري مع قلة من إخوانه ويقال إن الزهري حدَّثه في يوم من الأيام نيفاً وأربعين حديثاً له ولبعض زملائه، فلما عادوا في اليوم التالي قال الزهري: أستحضرتم كتاباً لتسجلوا ما أُملي عليكم خيفة أن تنسوها؟، فقال قائل منهم ينبؤك عنها هذا الشاب الأشقر (أي الإمام مالك)، فسأله الزهري فتلى

عليه منها أربعين حديثاً مع أسانيدها فقال الزهري: والله ما ظننتُ أنَّ أحداً يأتيها غيري (أي لا يحفظها).

وكان الإمام مالك إذا جلس لتلقي الحديث يسجل الحديث وهو جالس ولما سُئِلَ هل أخذتَ من عمرو بن دينار قال لم آخذ وذلك لأني ذهبتُ إلى مجلسه فرأيته يُحَدِّث والناس حوله واقفين يكتبون عنه فلم أحب أن أكتب حديث رسول الله ﷺ وأنا قائم لأنه كان يرى في هذا منقصة لحديث رسول الله ﷺ... وتلقى الإمام مالك الفقه عن شيخه الكبير ربيعة الذي كان يُلَقَّب " بربيعة الرأي " مع أنه كان من علماء أهل المدينة.

تفوقه العلمي وجلوسه للفتيا: تفوَّقت مكانة مالك العلمية على كل أرباب الحلقات في المسجد النبوي وعرف له الجميع هذه المكانة سواء كانوا من شيوخه السابقين أو من العلماء الذين عاصروه. جلس الإمام مالك للفتيا وكان عمره ٢٥ سنة تقريباً على أصحّ الروايات ويقول عن نفسه: لم أجلس للفتيا حتى أمرني بالفتيا قرابة سبعين عالماً، وأصبح رأيه في أية قضية تُعرض أو فتواه فيها مقدَّماً على غيره مما جعل أصحاب الفتيا يتوقفون حتى قيل من غير حرج: (لا يُفتى ومالك في المدينة!)...

ومما اشتهر به مالك أنه كان يقول لجاريته إذا جاء الناس إلى بابه ليسمعوا العلم أن تسألهم: هل جئتم لسماع الحديث أم ابتغاء المسائل؟ فإن قالوا جئنا للمسائل خرج إليهم وسمع منهم وأفتاهم وإن قالوا جئنا لنسمع الحديث قالت الجارية تريثوا قليلاً فتُدخلهم إلى الدار ويدخل مالك فيغتسل ويلبس أحسن ثيابه وتحديداً البياض من الثياب ويتطيَّب ثم يدخل عليهم ليروي حديث رسول الله ﷺ. وكان يبكي إذا قال قال رسول الله ﷺ.

عاش مالك في المدينة المنورة ولم يبارحها (بخلاف كثير من العلماء) إلى أي جهة أخرى ليأخذ العلم من العلماء إذ إن المدينة هي دار هجرة النبي ﷺ وكان العلماء هم الذين يرحلون إليها من جميع أنحاء العالم إما للحج أو الزيارة أو مجالسة علماء المدينة. فكان أطيب الطِّيب عند مالك ما يفوح وينتشر من قبر المصطفى صلوات الله وسلامه عليه وأرقّ النسيم ما يهبُّ حاملاً ذكريات الماضي وذكريات الوحي والنبوة والجهاد والبطولة. وبالرغم من أنه لم يغادر المدينة إلا أنه اطلع على الظروف والبيئات المختلفة بسبب

احتكاكه بالعلماء من جميع أنحاء العالم الذين كانوا إذا قدِموا المدينة زاروه وإن لم يزوروه قدِمَ هو إليهم، يلقاهم ويتناقش معهم، لذلك اتسعت آفاقه الفكرية ومداركه الاجتهادية وأقام للمصلحة التي هي محور الشريعة الإسلامية ميزاناً دقيقاً... واختار دار الصحابي الجليل عبد الله بن مسعود سكناً له وكأنه يريد أن يشعر على الدوام بنبضات عصر النبوة تخفق مع خفقات قلبه وتتردد مع أنفاسه ويعيش يومه كله في عبق كريم وهذا التواصل الوجداني بين مالك وبين حبيبه المصطفى ﷺ جعله في عقله وحسه يتَّخذ من حديث رسول الله ﷺ أساساً ومحوراً لعلمه وفقهه.

كان مالك في صدر حياته فقيراً وكان والده صانعاً، وتفرَّغ مالك للعلم فأورثه ذلك شيئاً من الفقر ولم تكن يومها تنفق الدولة على طلبة العلم (ثم لما كان ذلك ارتاح العلماء وازدهر العلم كثيراً)، لكنه بعد ذلك استغنى إذ كان له أخ يعمل بالتجارة فكان مالك إذا تجمع له مال يعطيه لأخيه ليتاجر له به ثم فتح الله عليه واستغنى فكان كثير العطاء لطلبة العلم. وكان يحب أن يظهر أثر نعمة الله عز وجل عليه في ملبسه وفي مطعمه ومسكنه وصار متجملاً في مظهره وكان الذين يغشون داره من الضيوف يجدون في أطرافها المخدات للاتكاء والجلوس ويجدون كل أسباب الراحة والنظافة والمظهر الأنيق في داره ولم يكن هذا عن حب للمال بل كان ينفق معظم ماله في طرق الخير تماماً كأبي حنيفة والشافعي رضي الله تعالى عنهم أجمعين.

ويروى عنه في الأثر المشهور أنه قال: "ما أحب لامرئ أنعم الله عليه أن يُري أثر نعمته عليه وخاصة أهل العلم".

ويروي الشافعي أنه في إحدى زياراته لبيت الإمام مالك رأى على الباب هدايا من خيل وبغال أعجبته فقال لمالك بعد أن دخل عليه: ما أحسن هذه الأفراس والبغال. فرد عليه مالك يقول: هي لك فخذها جميعاً. قال الشافعي: ألا تبقي لك منها دابة تركبها؟ فقال مالك: إني لأستحي من الله تعالى أن أطأ تربة فيها رسول الله ﷺبحافر دابة!. إلى هذا الحد من الحساسية المفرطة في الحب والتقديس بلغ العشق في قلب مالك للمدينة التي تضم أطهر الأجساد وأعظم خلق الله وأكرم الناس عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام.

ورعه وتخوّفه من الفتوى: اشتُهِرَ عن الإمام مالك كثرة ترداده لكلمة " لا أدري " وما كان عليه شيء أسهل من هذه الكلمة ولم يكن يشعر أن في هذا منقصة له بل كان إذا

سُئِلَ عن مسألة قال للسائل أنظرني حتى أفكر، وربما يأتيه في الغد فيجيبه وربما يقول له أيضاً أنظرني. ويُروى أنَّ رجلاً جاءه من أقصى المغرب فسأله عن موضوع وقال: جئتك من مسيرة ستة أشهر من المغرب وحُمِّلتُ هذا السؤال، فقال له مالك: قل لمن أرسلك إنه لا يدري. قال فمن الذي يعلم؟ قال: الذي علَّمه الله ولم يجبه ولكن قال له إن شئتَ عد غداً ريثما أفكر بها وأقرأ ما يمكن أن يتصل بها، حتى إذا جاء الغد جاءه الرجل فقال له مالك: فكرت بها ملياً ولا أدري ما الجواب! ولقد عوتب مالك في ذلك فبكى وقال: إني أخاف أن يكون لي في المسائل يوم وأي يوم. وقال لهؤلاء المنتقدين: من أحبَّ أن يجيب عن مسألة فليعرض على نفسه الجنة والنار وليتصور موقفه من الله غداً. فلننظر جميعاً إلى هذا الرجل الذي هان عليه أن يظهر جهله وهو العالِم الذي يوثق بعلمه أين نحن اليوم من موقفه هذا حيث الواحد منا إذا ما سُئِلَ اعتصر دماغه وذهنه وقد يصل به الأمر إلى أن يلفق جواباً خوفاً من أن يقول عنه الناس إنه جاهل!!! وهذا الأمر وللأسف الشديد كثيراً ما يحدث مع علمائنا اليوم الذين يسارعون بالفتوى، الأمر الذي يوضح لنا الفرق بين هذا العصر وذلك العصر ولعل هذه المقارنة توضح لنا أيضاً الفرق بين قرب أولئك الأئمة من رحمة الله تعالى وبعدنا نحن عنها، أضف إلى ذلك كله سمو أهدافهم ومقاصدهم حيث كان همُّهم الأكبر هو مرضاة الله سبحانه وتعالى نسأل الله عز وجل العفو والعافية وأن يرزقنا الإخلاص وأن نحيا محياهم وأن نُحشر معهم إن شاء الله تعالى.

وجاء في ترتيب المدارك للقاضي عياض: "قال مصعب بن عبد الله: كان مالك إذا ذكر رسول الله ﷺ تغيَّر لونه وانحنى حتى يصعب ذلك على جلسائه، فقيل له يوماً في ذلك، فقال: لو رأيتم لما أنكرتم عليّ ما ترون، كنت آتي محمد بن المنكدر وكان سيد القرّاء (أي سيد العلماء) لا نكاد نسأله عن حديث إلا بكى حتى نرحمه. ولقد كنتُ آتي جعفر بن محمد (أي جعفر الصادق) وكان كثير المزاح والتبسم، فإذا ذُكِرَ عنده النبي ﷺ اخضرَّ واصفرَّ وكنتُ كلما أجد في قلبي قسوة آتي محمد بن المنكدر فأنظر إليه نظرة فأتَّعِظ بنفسي أياماً.

الأجواء التي كانت سائدة في عصره وعلاقته بالخلفاء: عاش مالك في الخلافة الأموية والعباسية في عصر تسوده الفتن وكان موقفه كموقف الحسن البصري وسعيد بن

المسيب الذين كانا قبله وهو موقف استنكار الفتن والدعوة إلى الابتعاد عنها وكان إذا سُئِلَ عن تلك الفتن نصح بالابتعاد عنها وبعدم الولوج فيها. وقد صح أن الحسن البصري كان ينهى عن الدعاء على أمثال الحجاج وغيره وكان ينهى عن مد اللسان في قول السوء في حقهم على الرغم من أنه لو شققنا صدر الحسن البصري لرأيناه يستنكر الكثير من أعمالهم. وقد سمع مرة الحسن البصري رجلاً يسب الحجاج فقال له: لا تفعل يرحمك الله إنكم من أنفسكم أوتيتم، إننا نخاف إن عُزِلَ الحجاج أو مات أن تليكم القردة والخنازير. وروى البصري عن رسول الله ﷺ قوله المشهور: "عمّالكم عملكم وكما تكونوا يُوَلّى عليكم "، عمالكم أي رؤساؤكم هم أعمالكم أي انعكاس لأعمالكم... وكان الإمام مالك ممن يغشى مجالس الخلفاء ولم يكن يبتعد عنها وذلك للنصح والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والوصية بالخير فما كان يوفر جهداً ليوصي الخليفة أو ينصحه عندما تسنح الفرصة وقد عوتب في ذلك فقال: لولا أني أتيتهم ما رأيتُ للنبي ﷺ في هذه المدينة سنَّة معمول بها، فكان إذا أتاهم نصحهم لكي يحيوا سنة النبي ﷺ وخاصة في المدينة المنورة وكانوا يستجيبون لنصيحته.

لكنه كان إلى جانب ذلك يحترم نفسه في مجالس الخليفة والولاة وكان يفرض سلطانه عليهم. وكان إلى جانب كونه مهاباً كان يحافظ على عزة نفسه في هذه المجالس على خلاف عادته في المساجد حيث كان إذا دخل المسجد يقف في آخر الصف ولا يأبى أن يتقدم وإن أصرّوا على تقديمه ويجلس حيث ينتهي به المجلس وكان كثير التواضع ولكن إذا غشي مجلس الخلفاء أو الولاة فرض عزته على المجلس كله.

جاء المهدي مرة إلى المدينة واجتمع إليه الناس والعلماء وذهب مالك ليزوره فلما وصل وجد المجلس مزدحماً والتفت الناس ينظرون أين سيجلس مالك يا ترى وما سيكون موقفه. فقال الإمام مالك للمهدي: يا أمير المؤمنين أين يجلس شيخك مالك؟ فتضامَّ المهدي وصغَّر من جلسته وقال: ههنا يا أبا عبد الله إلى جانبي، فوسع له ودخل مالك وتعالى ودينه أن يُهان في شخصه، الإمام مالك كان سمته سمة علم وإسلام وسمة المحافظة على الشرع لذا ينبغي لهذه السمة أن تكون هي المهيمنة وأن تكون هي العزيزة في كل مكان، فالله تبارك وتعالى بالقدر الذي نهانا عن الكِبر أمرنا أن نعتز بالإسلام وبالقدر الذي أمرنا بالتواضع نهانا في الوقت نفسه عن الذل وجاء في دعاء النبي ﷺ:

(**اللهم إني أعوذ بك من الذل إلا إليك**)، وأي إنسان صاحب ذوق دقيق يستطيع أن يفرِّق بين التواضع والذل المرفوض... ولما زار الرشيد المدينة وأراد لقاء مالك وكان قد سمع عن علمه الكثير، طلب أن يأتيه حيث نزل فقال مالك لرسول الخليفة: قل له إنَّ طالب العلم يُسعى إليه والعلم لا يسعى إلى أحد! فجاءه الخليفة زائراً معتذراً...

ولقد روى الإمام مالك ذات مرة حديث " **ليس على مستكره يمين** " وشرحه لتلامذته في المسجد وراح يبيِّن للناس أنَّ من طلَّق امرأته مُكرَهاً لا يقع منه طلاق ... ولقد كان لهذا الحديث أثر كبير وحافز قوي لثورة أحد أحفاد الحسين بن علي وهو النفس الزكية على السلطة العباسية وكان الخليفة وقتها المنصور. كان محمد يرى بأن أبا جعفر قد أخذ البيعة لنفسه غصباً وإكراهاً فليس له في رقاب الناس يمين ولا عهد، وكان محمد يستند إلى فتوى مالك في أنه ليس على مستكره يمين. أحسَّ والي المدينة بخطورة الموقف فأرسل إلى مالك أن يكفَّ عن الكلام في هذا الحديث وأن يكتمه على الناس. أبى مالك أن يكتم الحديث أو أن يتراجع عن فتواه فضُرِبَ أسواطاً على مرأى الناس وجُذِبَ جذباً غليظاً من يديه وجُرَّ منها حتى انخلع أحد كتفيه وحُمِلَ إلى داره وهو بين الحياة والموت وألزموه الإقامة في الدار إقامة جبرية في عزلة وحبس. فزع الناس في المدينة والتجأوا إلى الله تعالى يشكون الظلم والظالمين واشتد سخطهم على الوالي وعلى الخليفة وغضب العلماء والفقهاء في كل الأمصار والأقطار. ورأى المنصور أنه لا بد من تصرُّف يمتص غضب الناس يزيح التهمة عن نفسه فأمر والي المدينة بإطلاق مالك ثم جاء المنصور بنفسه إلى الحجاز في موسم الحج والتقى بالإمام مالك واعتذر إليه وقال: أنا ما أمرتُ بالذي كان ولا علمته وإنه لا يزال أهل الحرمين بخير ما كنت بين أظهرهم. وأمر بإحضار الوالي مهاناً وبضربه وحبسِهِ إلا أنَّ مالكاً عفى عنه.

عِلم الإمام مالك وأقوال بعض العلماء فيه: أجمع المؤرخون والمترجمون أن الإمام مالك بلغ الذروة في معرفة السنَّة والحديث والفقه وقلما نال عالم مثلما نال مالك من المدح وأقرَّ له علماء الرأي في العراق وعلماء الحديث في الحجاز بأنه إمام في كل منهما (أي الحديث والفقه). قال عنه سفيان بن عُيَينَة وكان معاصراً له: كان لا يبلغ من الحديث إلا صحيحاً ولا يحدِّث إلا عن ثقة للناس وما أدري المدينة إلا ستخرب بعد موت مالك... قال عنه الشافعي: إذا جاءك الأثر عن مالك فشُدَّ به (أي تمسَّك به) وهو

صحيح. ويقول إذا ذُكِرَ العلماء فمالك هو النجم فيهم.

أهم مؤلفاته: الموطأ: طلب المنصور من مالك أن يضع كتاباً يتضمَّن أحاديث رسول الله ﷺ وأقضية الصحابة وفتاوى ليكون قانوناً تطبِّقه الدولة في كل أقطارها وديارها. تردد مالك ثم ألحَّ عليه المنصور فقبِلَ. وراح مالك يعمل عملاً متقناً جداً خلال سنين عدة راح خلالها طائفة من العلماء يعملون ويحاولون أن ينافسوا مالكاً طمعاً في كسب رضا الخليفة. وكان أصحاب مالك يأتونه ويقولون له بأنَّ تأخره في الإنجاز قد أتاح للآخرين أن يسبقوه فقال مالك: "لا يرتفع إلا ما أُريد به وجه الله تعالى"، ولقد كتب كثير من معاصريه كتباً كالموطأ وقُدِّمَت إلى الخليفة، وكلما سئل مالك أن يستعجل كتابه فقد سبقه الناس كان يقول: "ما كان لله يبقى"، حقيقة هكذا كان. وظلَّ الإمام مالك عاكفاً على عمله الضخم سنوات توفي خلالها المنصور حتى كان تمام العمل في زمن هارون الرشيد الذي تقبَّله بقَبول حسن وتقدير عظيم وأراد أن يعلِّق الموطأ في الكعبة ولكن مالكاً أبى ذلك. ويُعتَبَر اليوم كتاب الموطأ من أهم كتب السنَّة ويكاد لا تخلو منه مكتبة إسلامية، أما تلك الكتب التي كتبها منافسوه فلم يبقَ لها أثر وكما يقول العلماء لولا هذه الحادثة مع الإمام مالك لما علمنا أصلاً أنه أُلِّفَت هكذا كتب، فتأمل يرحمنا الله وإياك ولنتَّعِظ من هذا ولنتيقن إن كل عمل لا يُبتَغى به وجه الله تعالى لا يبقى،﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ ﴾، [القصص: ٨٨]، قيل في تفسير هذه الآية، كل شيء هالك إلا ما ابتغي به وجه الله تعالى.

منهجه العلمي: الإمام مالك شأنه كشأن الإمام أبي حنيفة لم يدوِّن منهجاً ولكن هذه القواعد أُخذَت وجُمِّعَت من خلال عباراته في كتبه وفي مقدمة ذلك الموطأ فمن خلال كلامه نجد أنه يأخذ بالحديث المُرسَل وهو الحديث الذي رواه التابعي رأساً عن رسول الله ﷺ إن كان هذا التابعي ثقة.

أصوله الاجتهادية:

أولاً: إذا وجد في القرآن نصاً بعبارة صريحة قاطعة واضحة على مبدأ أو حكم ثم وجد حديثاً مروياً عن طريق الآحاد يعارض هذا الخبر فإنَّ مالك يأخذ بصريح القرآن ويدع الآحاد... قال مالك وهو يفسر قوله تعالى: ﴿ قُل لَّآ أَجِدُ فِى مَآ أُوحِىَ إِلَىَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ

طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ ۚ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٥﴾﴾، (الأنعام: ١٤٥).. هذا نص صريح وواضح بعدم تحريم غير ما ذُكِر. وفي المقابل رُوِيَ في خبر الآحاد الصحيح: عن رسول الله ﷺ يرويه أبو داود أن رسول الله ﷺ نهى عن أكل كل ذي ناب من السباع وكل ذي مخلب من الطيور. فرجَّح مالك النص على الآحاد فيجوز عنده أكل كل ذي ناب من السباع وذي مخلب من الطيور وإن كان جمهور الفقهاء على الحرمة.

ملاحظة: الإمام مالك كغيره من العلماء يأخذ بالحديث الآحاد إن كان صحيحاً وهو عنده حجة ولكن إذا تعارض مع نص من كتاب الله تعالى أو مع حديث متواتر ولم يُمكن الجمع بينهما، قدَّم النص من كتاب الله عز وجل أو الحديث المتواتر ولم يجعل حديث الآحاد يخصص النص القرآني أو الحديث المتواتر كما فعل غيره من الفقهاء كالشافعي مثلاً.

ثانياً: مالك يعيش في المدينة وبصمات رسول الله ﷺ واضحة في هذه البلاد فعادات أهل المدينة وما يتفق عليه علماء أهل المدينة في عصره والعصر الذي قبله كلها من مخلفات النبوة لأن العهد ما بَعُدَ بينه وبين رسول الله ﷺ، بناءً على ذلك إذا وجد حديث آحاد مروياً عن رسول الله ﷺ بالسند ووجد عمل أهل المدينة على خلاف ذلك الحديث يرجِّح مالك عمل أهل المدينة على ذلك الحديث، لا لأنه يرفض الحديث ولكن لأنه يعتقد أن ما أجمع عليه علماء المدينة ما أخذوه من عند أنفسهم وإنما هي وراثة ورثوها عن رسول الله ﷺ. يقول الإمام مالك في رسالة لليث بن سعد: "إنَّ أهل المدينة هم من الذين قال الله تعالى عنهم: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ﴾، [التوبة: ١٠٠]، وأوضح الله تعالى أنَّ هؤلاء السابقون من المهاجرين والأنصار الذين استقر بهم المقام في المدينة المنورة ينبغي أن يُتَّبعوا وأن نهتدي بهديهم".

مثال ذلك، الحديث الصحيح الآتي: "المتبايعان بالخيار ما لم يتفرَّقا". الشافعي عنده التفرق هو تفرق الأبدان وعند الحنفية هو تفرق موضوع الكلام ولكن مالك يقول عمل أهل المدينة على خلاف هذا، فعلماء المدينة السبعة وعامة الناس يقولون إن العقد إذا تمَّ بالإيجاب والقَبول كان العقد لازماً.

مثال آخر، الحديث المشهور: "**البيِّنة على المُدَّعي واليمين على من أنكر**". قال مالك نأخذ بهذا الحديث ولكن يخَصِّصه ويُفَسِّره عمل أهل المدينة وهو أنَّ هذا الحديث يُطَبَّق بشرط أن ينظر القاضي فيجد أنَّ بين المدَّعي والمُدَّعى عليه علاقة ما إمّا جوار أو قرابة أو شركة... فإن لم يجد القاضي مثل هذه الصلة فله أن لا يسمع الدعوى وذلك لكي لا يتلاعب السفهاء بالوجهاء فيأخذوا منهم أموالهم خشية تشويه سمعتهم، مثال ذلك أن يدَّعي سفيه على أحد الوجهاء دعوى باطلة، فلو أخذ بها القاضي لاضطر ذلك الوجيه إلى الذهاب إلى القاضي وعندها قد يدفع الوجيه شيئاً من المال للسفيه الذي ادعى عليه تلك الدعوى الباطلة وذلك لكي لا تُشوِّه سمعته بالامتثال بين يدي القاضي.

ثالثاً: إذا ثبت قانون شرعي وقاعدة شرعية عامة مثل: "ولا تزر وازرة وِزر أخرى"، يقول الإمام مالك: إذا وجدنا بين هذه القاعدة الضخمة الكبيرة وبين جزئيات الأدلة تناقضًا، نأخذ بالقاعدة ونترك هذه الجزئيات.

مثال ذلك: الحديث الصحيح عن عائشة رضي الله عنها: "**إنَّ الميِّت لَيُعَذَّب ببكاء أهله عليه**". قال مالك هذا يتناقض مع القاعدة التي مرَّت معنا سابقاً (و لا تزر وازرة وزر أخرى)، وبناءً على ذلك فلا ذنب للميت إن بكى أهله عليه فلم يأخذ بالحديث. ولكن الشافعي مثلاً وهو تلميذ مالك أخذ بالحديث وقال إنَّ عذاب الميت في قبره هنا هو عذاب نفسي وليس عقاباً من الله عز وجل وإنما هو عقاب خاص يأتي نتيجة لتصرفات أهله، فهو يتألم من فعل أولاده ويتمنى لهم الصلاح لأن الله تعالى يُطلعه على أفعالهم التي قد لا تخلو من معاصي وأمور مختلفة تكون سبباً لغضب الله تعالى عليهم.

مثال آخر: الإمام مالك وحده يفتي بعدم نجاسة لعاب الكلب وكذا رشحه ولكن الحديث الصحيح يقول: "**إذا ولغ الكلب في إناء أحدكم فليرقه وليغسله سبعاً إحداهن بالتراب**". قال مالك من المتفق عليه أنه يجوز استعمال الكلب في الصيد والكلب إذا اصطاد لا بد أن يمسك الطريدة بفمه ويصيبه من لعابه لذلك أخذ بالقاعدة العامة التي تفيد جواز صيد الكلب، ثم قال عن هذا الحديث انه مضطرب وهذا دليل ضعف فقد ورد الحديث بعدة روايات (أولهن-أخراهن- إحداهن بالتراب).

رابعاً: الأخذ بالاستحسان وهو عبارة عن جزئية صغيرة اقتضتها مصلحة دينية ثابتة في كتاب الله وإن عارضت هذه الجزئية مبدأ كلياً ويؤخَذ به استثناءً.

مثال ذلك قاعدة أن الأخ الميت إذا مات وترك أخاً شقيقاً أي لأب وأم هذا يُسمَّى عصبة ويأخذ كل ما تبقى من المال مثلا إذا كان الميت ليس له إلا أخ يأخذ كل الأموال وإذا مات وليس له إلا أخ أو أخ شقيق، الأم تأخذ السدس والأخ أو الأخوة الأشقاء يأخذون الباقي. إن مات رجلٌ وترك زوجاً وأمّاً وإخوة لأم وأخاً شقيقاً، الزوج يأخذ النصف والأم تأخذ السدس والأخوة لأم يأخذون من الثلث لم يبقى للأخ الشقيق شيء إن طبَّقنا هذه القاعدة.

هنا الإمام مالك وغيره عادوا فوجدوا أنَّ الأمر قد رُفِعَ إلى سيدنا عمر رضي الله عنه فحَكَمَ أنه ليس للأخوة الأشقاء شيء فقال الأخوة الأشقاء هب أننا إخوة لأم فقط ألا يكون لنا؟ قال: نعم، ثم جعل الإخوة للأم والأخ الشقيق يشتركون معاً في الباقي. القاعدة على خلاف ذلك ولكن هذه الجزئية هي لمصلحة الشريعة لأن الشريعة تقتضي هذا الاستثناء.

فائدة: الحقيقة أنه ليس بين الأئمة خلاف في الأصول الشرعية فإنهم متفقون على حوالي سبعين بالمئة منها وإنما هناك خلاف في العناوين يتعلق بالفروع الجزئية ويُشكِّلُ حوالي ثلاثين بالمئة فقط وذلك رحمة بالأمة وتوسيعاً عليها، فالحمد لله أولاً وآخِراً الذي وفقهم أن يجتمعوا على ما اجتمعوا عليه فإن اجتماعهم هذا خير للأمَّة والحمد لله الذي ألهمهم أن يختلفوا فيما اختلفوا فيه فإن اختلافهم أيضاً رحمة للأمة.

خامساً: مبدأ سد الذرائع: وهذا المبدأ مأخوذ من قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَسُبُّواْ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّواْ ٱللَّهَ عَدۡوَۢا بِغَيۡرِ عِلۡمٖۗ كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمۡ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرۡجِعُهُمۡ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ١٠٨ ﴾، (الأنعام:١٠٨).. "ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله فيسبوا الله عدواً بغير علم "، الأئمة كلهم يأخذون بهذا المبدأ ولكنهم يختلفون بالمقدار الذي ينبغي أن يأخذوا به، مثال ذلك سب المؤمن لدين كافر أو لمن يتخذه إلهاً بزعمه أصلُهُ مباح ولكن إذا كان هذا العمل المباح ينتج عنه عمل محرَّم فيسب الكافر الله تعالى عندها يصبح هذا العمل المباح في أصله محرماً لا لذاته ولكن لما قد ينتج عنه وهذا ما يُسمَّى بمبدأ سد الذرائع.

ومثال ذلك أيضاً، إطالة السهر مباح أيضاً ولكن إن كان هذا سيمنعك عن أن تستيقظ لصلاة الصبح تحوَّل المباح إلى محرَّم وهذا باتفاق الأئمة.

مثال آخر، بيع السلاح في أصله مباح ولكن إذا علمت أنَّ هذا يأخذ منك سلاحاً ليؤذي به الآخرين أو كان وقت الفتنة فلا يجوز.

سادساً: المصالح المُرسَلة: رائدها في الشريعة الإمام مالك.

جاءت الشريعة لتحقيق خمسة أنواع من المصالح وهي على هذا الترتيب: الدين، الحياة، العقل، النسل أو العرض والمال. كل الأئمة الأربعة أخذوا بها.

المصالح المرسلة هي أن يرى العالِم الفقيه أمامه مصلحة حديثة العهد طارئة، لم تكن موجودة من قبل تقتضي حكماً شرعياً ولكن هذا الفقيه لا يجد عليه (أي على الحكم الشرعي) دليلاً من القرآن أو السُنَّة ولا يجد دليلاً على حكم يشبهه للقياس لا سلباً ولا إيجاباً، فما العمل؟ يقول مالك: أنا أعود بهذه المسألة في الحكم إلى جنس هذه المصلحة التي يحققها الحكم، ننظر هل هي واحدة من هذه المصالح الخمس التي جاءت الشريعة بحمايتها ورعايتها؟ فإن كانت واحدة من هذه المصالح وكان الأخذ بها لا يُفَوِّت مصلحة أهمّ منها يقول مالك أنا أجتهد على وفق هذه المصلحة. وهذا باب عظيم في الاجتهاد وسنورد في ما يلي بعض الأمثلة والنماذج لتوضيح الصورة:

١- منع عمر بن عبد العزيز الناس أن يشتروا أراض في مِنى وأن يبنوا عليها بيوتاً لهم لأن ذلك سيضيق على الحجّاج مع أنه لا يوجد نص في ذلك ولكن من باب المصالح المرسلة أصدر عمر بن عبد العزيز أمره هذا (وهو ما يسميه الحنفية مقاصد الشريعة).

٢- قال الإمام مالك لو أنَّ صبياناً يلعبون ويتشاجرون ويمزِّق أحدهم ثوب الآخر أو يتلف متاعاً (يكسر زجاج منزل أو سيارة مثلاً) فالوالد (أي أبو الولد الذي سبب الضرر) يضمن (أي يدفع تعويضاً عن الضرر الحاصل) وإن لم يكن الولد بالغاً. ولكن هنا الشهود كلهم أولاد والقاعدة أنَّ الشهادة لا تصحُّ إلا من بالغ كبير. ماذا نفعل إذا تركنا القضية هكذا؟ طبعاً ستقع مفاسد كثيرة. المصلحة المرسلة هنا التي تتوخاها الشريعة هي أن نقبل شهادة الصبيان بعضهم على بعض في أمور إجرائية من هذا القبيل.

٣- تدوين قواعد اللغة العربية والمجامع الفقهية والمؤتمرات كلها أشياء حسنة تخدم مصلحة الدين...

سابعاً: العُرف: إنَّ العرف في الشرع له اعتبار فيما لم يرد فيه نص أو كان الأمر غامضاً، والأئمة كلهم متفقون على ذلك. يقسم مالك العرف إلى قسمين: عرف قولي عرف فعلي أو سلوكي (فقط في العقود).

مثال على العرف القولي: كلمة اللحم، فلو أنَّ رجلاً أقسم أن لا يأكل لحماً، ننظر ماذا تعني كلمة اللحم في عرفهم أحياناً تُطلَق ويُقصَد بها لحم الضأن (الخروف) وفي بعض الأعراف تُطلق ويُقصَد بها لحم البقر وفي بعض الأعراف يُقصد بها لحم السمك. فإذاً يقع القسم على ما هو معروف عندهم إلا إن قصد كل اللحم ساعتئذ تكون النية مقدَّمة على دلالة العرف.

مثال آخر على العرف القولي: لو نذر فلان أن يتصدَّق بكل ما في جيبه من دراهم وكانت الدراهم في عرفهم تُطلَق على عملة البلاد فلا يجب عليه أن ينفق من العملات الأخرى إن وُجِدَت في جيبه إلا إن نوى غير ذلك.

أما العرف السلوكي فهو مثلاً أن يعقد فلان على فلانة دون أن يتفقا على موعد لدفع المهر وكان العرف أن يُدفَع قبل الدخول ساعتئذ يكون هذا هو الحكم.

ولو اشترى أحدهم سيارة مثلاً ولم يشترط أن تكون مكيَّفة والبائع لم يشترط ذلك فاختلف المشتري والبائع، ننظر إن كان العرف أن تكون غير مكيفة كما في بلادنا فالحق مع البائع أما إن كان العرف أن تكون مكيفة كما في بلاد الخليج فيكون الحق مع المشتري.

قاعدة: المعروف عرفاً كالمشروط شرطاً

يقول الإمام مالك إن النصوص القرآنية ونصوص السنَّة إنما تُفَسَّر على ضوء العرف القولي في عصر النبي ﷺ، وهكذا فالعرف القولي مفتاحٌ هام وخطير جداً لِفَهم النصوص. ونضرب على ذلك مثلاً ما جاء في الصحيح أن رسول الله ﷺ قال: إن زكاة الفطر هي صاع من غالب قوت البلد. كلمة صاع عبارة عن مكيال معيَّن هذا المكيال يتغير من بلد إلى بلد ومن عصر إلى عصر، فالصّاع في العراق كان غير الصاع في مصر غير الصاع في المدينة... فإذاً نحن نفسر ذلك بما كان معروفاً عندما قال رسول الله ﷺ هذا الحديث في المدينة.

مثال آخر كلمة النبيذ كانت تعني أو يُقصَدُ منها شراب مُكَوَّن من الماء والتمر ولا يُقصد بها النبيذ المسكر المعروف في عصرنا وقد شرب رسول الله ﷺ النبيذ وهذا كان سبب الإشكال الذي وقع فيه الكثير من المستشرقين عندما قرأوا كتب التاريخ فوجدوا أن هارون الرشيد كان يشرب النبيذ وظنوه من السكارى.

قال رسول الله ﷺ: "**إنَّ من أشدّ الناس عذاباً يوم القيامة المصوِّرون**"، وفي

حديث آخر " كُلِّفَ أن ينفخ فيه الروح وما هو بنافخ "، هنا نفسر المصوِّر حسب العرف الدارج في زمن رسول الله ﷺ وبهذا لا يشمل الحديث الصور الفوتوغرافية والمرايا وانعكاس الضوء فيكون حُكم هذه الأشياء الجواز علماً أن الإنسان له أن يبتعد عن هذه الأمور من باب الورع ولكن هذا لا ينفي جوازها وعدم حرمتها فالورع أمر والجائز أمر آخر. وبالطبع فالشيء المصوَّر له حكم آخر إن كان صوراً لفتيات عاريات لا خلاف في أنه حرام قطعاً.

أما الدليل الشرعي للأخذ بالعرف أن الله تعالى أمرنا بكثير من الآيات أن نحتكم إلى العرف بقوله تعالى: ﴿ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾ ﴾، أي اجعل العرف أساساً... قالت هند زوجة أبي سفيان يوم فتح مكة وكانت تبايع رسول الله ﷺ على أن لا تسرق ولا تزني، قالت له: لقد كنت آخذ من مال أبي سفيان الهنة تلو الهنة (أي الشيء القليل دون علمه)، ماذا أصنع؟ فقال لها رسول الله ﷺ عن المستقبل: **"خذي ما يكفيك وأولادك بالمعروف"**.

مثال آخر: قال الله تعالى ﴿ ۞ وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ﴾، قال الإمام مالك إن كانت المرأة من الأغنياء أو كانت شريفة (العادة عندهم أن النساء الأغنياء لا يرضعن) ساعتئذ لا يجب عليها الإرضاع ولكن هو حق لها، أما إن كانت غير ذلك فهو واجب عليها، لأن ذلك لم يأتِ بصيغة الأمر الجازم كقوله تعالى: ﴿ وَعَلَى ٱلْمَوْلُودِ لَهُۥ رِزْقُهُنَّ ﴾، [البقرة: ٢٣٣].

قاعدة: إن النص يُهَيمِنُ على العُرف ولا يهيمن العرف على النص.

ونأخذ بالعرف فقط في الأمور التي علَّقها النص على العرف، أما ما ورد فيه نص فلا يغيِّره العرف حتى لو ترك أهل بلد ما جميعاً العمل بحكم شرعي، يبقى الحكم الشرعي كما هو. فلا نقول إنَّ العرف السائد اليوم هو عدم ارتداء الحجاب مثلاً خلافاً للعرف قديماً وأن الزمن قد تغير، فلو كان الأمر هكذا ما كان للشريعة الإسلامية معنى إذا كنا دائماً نحتكم إلى العرف فقط دون النص.

أسباب انتشار مذهب الإمام مالك: شاع مذهب الإمام مالك في المغرب كثيراً مع أن مالكاً لم يترك المدينة وذلك لأن المدينة كانت تستقطب أناساً وعلماء كثر أيام الحج وفي غير أيام الحج... ومن الأسباب التي ساهمت على انتشار مذهب الإمام مالك دون

سواه كمذهب الأوزاعي أو سفيان الثوري، تقييض الله سبحانه وتعالى لمالك تلاميذ كثر من مختلف الأصقاع فمن مصر كان الليث بن سعد ومن المغرب ومن العراق ومن الشام ومن اليمن، كلهم تتلمذوا على الإمام مالك وهم الذين قاموا بنشر مذهبه حتى وصلنا بالتواتر بحيث يستطيع الإنسان أن يجزم أنه عندما يقرأ الموطأ أو المدونة برواية سحنون أو غيره من تلامذة مالك يستطيع أن يجزم أنه يتبع إماماً راسخاً في العلم يبرأ ذمته عند الله باتباعه والحمد لله. وهكذا انتشر مذهبه في المغرب وفي مصر وفي صعيد مصر وفي اليمن وفي أنحاء مختلفة متفرقة حتى أنَّ فرنسا حين استعمرت أقسام كثيرة من المغرب مدة طويلة، اطَّلع علماء القانون الفرنسيون على الفقه الإسلامي لاسيما مذهب الإمام مالك فأُعجِبوا به أيّما إعجاب، لذلك نرى أن القانون الفرنسي اليوم يعتمد اعتماداً كبيراً على فقه مالك. وبواسطة هذه النافذة انتشر الفقه الإسلامي في فرنسا واطَّلع عليه كثير من المستشرقين في أوروبا الذين بدأوا يتحركون لِصَدِّ ومحاربة هذا الغزو الإسلامي وذلك بزرع الشكوك والشبهات ليُبعدوا الناس عن الإسلام، فادعوا قائلين: هؤلاء العرب أصحاب الأدمغة القانونية مثل مالك وأبو حنيفة جاؤوا إلى الأعراف القَبَلية عند العرب فدوَّنوها وجمعوها ونظَّموها وفكروا بطريقة يخلدون هذه الأحكام بها ووجدوا أنَّ الطريقة هي أن يبتدعوا لها إطاراً دينياً فاخترعوا لها الأدلة من الأحاديث والنصوص القرآنية لكي يرسخوا بهذه الأدلة الأعراف العربية والقبلية التي كانت سائدة منذ العصر الجاهلي!!!. أيُعقل هذا الكلام؟ الإمام مالك الذي رحل إليه الناس وقال لا أدري والذي كان لا يُحَدِّث حتى يغتسل ويلبس البياض من الثياب ويبكي عندما يذكر حديث رسول الله ﷺ والذي لم يطأ المدينة بحافر دابة قط أدباً مع النبي ﷺ، أيُعقل بعد كل هذا أن يُقال عنه ما قيل؟. فهذا شاخت، وهو أحد المستشرقين أعداء الإسلام يقول إنَّ مالكاً اخترع الحديث! فكل واحد يقيس الناس على نفسه: الدجّالون أمثال كريمر وشاخت وغيرهم يجلسون في ما بينهم فيختلقون الأكاذيب ثم يظهرونها على أنها حقائق ويظنون أن غيرهم يفعل الشيء نفسه.

يقول الدكتور أمين المصري رحمه الله وهو أحد علماء الشام إنه عندما ذهب إلى أوروبا لنيل شهادة الدكتوراه في الشريعة الإسلامية -هكذا حظنا أن ندرس الشريعة الإسلامية في أوروبا؟!-، فكَّر في موضوع لأطروحته، فوجد كتاب شاخت عن الفقه الإسلامي من أهم الكتب في أوروبا (وكتاب شاخت هذا يعتمد ويؤكد هذه النظرية الباطلة

التي أشرنا إليها عن اختراع مالك للحديث)، فقرر أن تكون أطروحته دراسة هذا الكتاب. فجاءت دراسته موضحة بما لا مزيد عليه اللبس الحاصل كاشفة أكاذيبهم دافعة لكل أباطيلهم وافتراءاتهم بحيث يتبين القارئ المنصف حقدَ أولئك المستشرقين وتعنتهم الذي أخرجهم عن المنهج العلمي في البحث ودفعهم لاختلاق الأكاذيب... هذا ما دفع إدارة الجامعة إلى رفض أطروحته وألزمته بالتحول عن هذا الموضوع، فلما أبى لم يستطع أن يحصل على شهادة الأستاذية واضطر أن يأخذ شهادة في علم النفس وعلم التربية وأن يترك دراسة الشريعة الإسلامية في الغرب.

وفاته: توفي الإمام مالك في أوائل عام ١٧٩ هـ عن ٨٧ سنة في الأرض التي لم يفارقها قط إلا للحج حباً وشوقاً للنبي ﷺ. وقد بقي مفتياً للمدينة مدة ستين سنة. وكان من أبلغ الناس حزناً عليه وأشدهم بكاءً تلميذه النجيب ووارث الإمامة من بعده محمد بن إدريس الشافعي. ولقد دُفِنَ مالك رضي الله عنه في البقيع.

وكان الإمام مالك قد ترك حضور الجنازات في آخر حياته وكان يأتي أصحابها فيعزيهم ثم ترك ذلك كله ولم يشهد الصلوات في المسجد ولا الجمعة أيضاً، فعوتبَ في ذلك فقال: ليس كل الناس يقدر أن يتكلم بعذره. وعُلِمَ بعد ذلك أنه كان قد أُصيبَ بسلس البول وكان يخشى أن يُنَجِّسَ مسجد رسول الله ﷺ، وقال وهو يودِّع الدنيا: لولا أني في آخر يوم من الدنيا وأوله من الآخرة ما أخبرتكم، سلس بولي، فكرهت أن آتي مسجد رسول الله ﷺ على غير طهارة إستخفافاً برسول الله ﷺ وكرهت أن أذكر علّتي فأشكو ربي!!!.

من أقواله:

– كلما كان رجل صادق لا يكذب في حديثه (أي مطلق حديث) إلا مُتِّعَ بعقله ولم يصبه مع الهرم آفة ولا خرف.

– من لم يكن فيه خير لنفسه لم يكن فيه خير لغيره.

إنتهينا من الحديث عن الإمام مالك وفقهه والسبب الذي جعل مذهبه ينتشر ويترسخ في كثير من أنحاء العالم الغربي والإسلامي وعرفنا كيف أنَّ اجتهاد الإمام مالك زاد في التقريب بين مذهبي أهل الحديث في الحجاز وأهل الرأي في العراق. وعرفنا لماذا نَمَت مدرسة الحديث في الحجاز ولماذا نمت مدرسة الحديث في العراق. تكلمنا أيضاً عن دور الإمام أبي حنيفة والإمام مالك في نسج شجون الصلة بين هذين المذهبين في الشكل

الذي ذكرناه وانتهينا إليه. والآن ننتقل إلى الكلام عن الإمام الشافعي رحمه الله تعالى.

٣- ترجمة الإمام الشافعي رضي الله عنه:

بشارة النبي ﷺ به: قال رسول الله ﷺ عن علي وابن عباس: "**اللهم اهدِ قريشاً فإنَّ العالِم منهم يسع طباق الأرض في آخرين**"، رواه أحمد والترمذي وقال حسن... وقال ﷺ: "**لا تسبّوا قريشاً فإنَّ عالِمها يملأ الأرض علماً**"، قال ابن حجر الهيثمي حديث حسن له طرق عديدة.

اسمه ونسبه وتاريخ ميلاده: هو محمد بن إدريس الشافعي، وُلِدَ بالاتفاق عام ١٥٠ هجرية أي في العام الذي توفي فيه أبو حنيفة وقد غالى البعض فقال في اليوم نفسه الذي مات فيه أبو حنيفة. والصحيح الذي ذهب إليه الجمهور أنه ولِدَ في غزة في فلسطين، والده قرشي ويلتقي نسبه مع رسول الله ﷺ في عبد مناف جده ﷺ. أما أمه فمن قبيلة أخرى، من قبيلة الأسد وهي قبيلة عربية أصيلة ولكنها ليست قرشية. ولِدَ الشافعي في أسرة فقيرة جداً، وبعد ولادته بعامين توفي أبوه فقررت أمه العودة بابنها محمد إلى مكة لأنه قرشي حتى لا يضيع نسبه ولأن له سهم من ذوي القربى.

ولكن هذا المال الذي كانت تأخذه من سهم ذوي القربى كان قليلاً وقليلاً جداً، فعانت هي ووليدها محمد حرماناً وفقراً. ولكن الأم كانت قوية الشخصية راسخة الإيمان، على جانب من العلم والحفظ، فأرادت لولدها أن يتعلم ويحفظ فدفعت به إلى مكان في مكة يقرىء الصبيان. ولكن الأم لم تجد أجر المعلم، فكان الشيخ المقرىء يهمل ويقصِّر في تعليم الصبي المتعطِّش إلى العلم والمعرفة ولكن كان المعلم إذا علَّم صبياً شيئاً، تلقَّف الشافعي ذلك الكلام ثم إذا قام المعلم من مكانه ليقضي شأنه أخذ محمد مكانه وراح يعلم الصبيان تلك الأشياء. ورآه المعلم يفعل ذلك، فارتاحت نفسه ونظر إلى أنَّ الشافعي يكفيه من أمر الصبيان أكثر من الأجرة التي يطمع بها منه فترك طلب الأجرة واستمرت هذه الحال مع الشافعي حتى حفظ القرآن وهو دون العاشرة من عمره ومنهم من قال وهو ابن سبع سنين.

عُرِفَ الشافعي بشجو صوته في القراءة. قال ابن نصر: كنا إذا أردنا أن نبكي قال بعضنا لبعض: قوموا إلى هذا الفتى المطلبي يقرأ القرآن، فإذا أتيناه (يصلي في الحرم) استفتح القرآن حتى يتساقط الناس ويكثر عجيجهم بالبكاء من حُسن صوته فإذا رأى

ذلك أمسك من القراءة.

تحصيله وطلبه للعلم: كانت أمه قد وجَّهته لإتقان القراءة والتلاوة والتفسير على شيوخ المسجد الحرام ولم يكد يبلغ الثالثة عشرة من عمره حتى أتقن ذلك إتقاناً جيداً ملفتاً للنظر. ثم اتجه الشافعي إلى علم الحديث فلزم حلقة سفيان بن عيينة ومسلم بن خالد الزنجي في المسجد الحرام. وكان الورق غالي الثمن باهظ التكاليف والشافعي وأمه في قلة وفقر فكيف يفعل في التدوين؟ يُروى أنه كان يلتقط العظام العريضة فيكتب عليها أو يذهب إلى الديوان فيجمع الأوراق المهملة التي يلقى بها فيستوهبها ويكتب على ظهرها. هذه المعاناة وفقته إلى أن يعتمد على الحفظ فتكوَّنت لديه حافظة قوية ساعدته مستقبلاً على حفظ كل ما يسمع وما يُلقى إليه من علم ومعرفة.

وبذكائه وملاحظته أدرك الشافعي أنَّ لغة قريش قد دخلتها ألفاظ غريبة ولم يعد لسانها هو اللسان العربي السليم في فصاحته وبيانه، وعلِمَ أنه لا يستطيع أن يجيد علوم القرآن والحديث واستخراج الأحكام من النصوص إلا إذا أتقن اللغة العربية الصحيحة. وكان يحضر في المسجد الحرام دروس إمام مصر الليث بن سعد حين يأتي حاجاً أو معتمراً وكان يوصي مستمعيه أن يتقنوا اللغة وأسرارها وأن يتعلموا خاصة كلام هُذَيل وهم قبيلة في البادية وأن يحفظوا أشعارهم لأن هذيل أفصح العرب. انطلق الشافعي إلى مضارب هذه القبيلة فأقام في ظهرانيهم ولازمهم عشرة أعوام عكف خلالها على دراسة اللغة وآدابها وحفظ الشعر (حفظ أكثر من عشرة آلاف بيت) كما تعلَّم الرماية والفروسية وبرع فيهما. وروى الشافعي عن نفسه فقال: كانت همَّتي في شيئين، في الرمي والعلم فصرتُ في الرمي بحيث أصيب عشرة من عشرة". وسكتَ عن موضوع العلم تواضعاً عِلماً أنه في العلم أكثر من ذلك. عاد إلى مكة وهو يحمل ثروة هائلة من شعر وأدب العرب حتى قال الأصمعي – راوية العرب المشهور– " صحَّحتُ أشعار الهُذَليين على فتى من قريش يُقال له محمد بن إدريس". وأصبح الشافعي حجة عصره في اللغة. وعاد إلى مكة ليتعلَّم عند علمائها من أتباع عبد الله بن عباس وجعفر الصادق.

وكان الإمام سفيان بن عيينة إذا جاءه شيء من التفسير أو الفتيا التفت إلى الشافعي فقال: سلوا هذا الغلام.

وكان الشافعي يوماً يحضر مجلس ابن عيينة فحدَّث ابن عيينة بحديث أنَّ رسول الله ﷺ كان معتكفاً، فأتته صفية، فلما ذهبت ترجع مشى النبي ﷺ معها فأبصره رجل

من الأنصار فقال له رسول الله ﷺ: "إنها صفية، إنَّ الشيطان يجري من الإنسان مجرى الدم". فقال ابن عيينة: ما فقه هذا الحديث يا أبا عبد الله؟ فقال الشافعي: لو كان القوم اتهموا رسول الله ﷺ لكانوا بتهمتهم إيّاه كفاراً ولكنَّ رسول الله ﷺ أدَّب مَن بعده فقال إذا كنتم هكذا فافعلوا هكذا حتى لا يُظَنَّ بكم، لا أنَّ النبي ﷺ – وهو أمين الله في وحيه – يُتَّهم. فقال ابن عيينة: جزاك الله خيراً يا أبا عبد الله ما يجيئنا منك إلا ما نحبه. ولا عجب في ذلك فقد كان يعمل ويهتدي وفق توجيهات أمّه البارّة التي كانت عالمة، حافظة وفقيهة. فقد استُدعِيَت مرة للشهادة أمام قاضي مكة ومعها امرأة أخرى وأراد القاضي أن يفرِّق بينها وبين المرأة الأخرى في الشهادة ليسمع كلاً منهما على حدة، فاعترضت وطلبت إلى القاضي أن تكون شهادتها وشهادة المرأة الأخرى بحضور كليهما واستدلَّت على ذلك بقوله تعالى: ﴿ أَن تَضِلَّ إِحْدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَىٰهُمَا ٱلْأُخْرَىٰ ﴾، [البقرة: ٢٨٢].

وأجازه شيخ الحرم الإمام مسلم بن خالد الزنجي وكان أول من أجازه فقال له وهو غلام: أنت يا أبا عبد الله والله لقد آن لك أن تفتي. ولكن الشافعي مع هذا رفض أن يفتي وكيف يفعل ذلك وهو يعتبر أنَّ سلّم العلم ما زال طويلاً، وكيف يفعل ذلك والإمام مالك في المدينة وقد سمع من حديثه عندما جاء حاجّاً إلى بيت الله الحرام؟!!!.

وأدرك الشافعي ما عند مالك من علم واسع وأحب لقاءه ولكنه تهيَّبَ أن يرحل إليه قبل أن يأخذ من علومه شيئاً، فأقبل على الموطأ فحفظه غيباً ولم يكن يملك ثمنه فاستعاره وحفظه. وخشيَ أن لا يستقبله الإمام مالك لحداثة سنِّه فلقد اشتُهِرَ عن مالك أنه رغم سماحته وطيب خُلُقه كان صارماً في العمل ولا يبيح وقته للناس ولا يستقبل من يطرق بابه خلال راحته في داره. ولكن الشافعي الشاب المتوقد المتوهج المتعطش إلى غَرف العلم لا يشبع نهمه الجلوس في حلقات درس مالك في المسجد ولكنه يريد أن يتفرَّد بلقائه. فتوسطت له أمّه عند والي مكة، فأرسل معه رسالة إلى والي المدينة. فلما وصلت الرسالة إلى والي المدينة وقرأها قال: يا فتى إنَّ مشيي من جوف مكة إلى جوف المدينة حافياً راحلاً أهوَن عليّ من المشي إلى باب مالك، فلستُ أرى الذل حتى أقف على بابه!... فقال الشافعي: أصلح الله الأمير، إن رأى الأمير يوجه إليه ليحضر. فقال الأمير: هيهات، ليت أني لو ركبتُ أنا ومن معي وأصابنا من تراب العتيق (حي يسكنه مالك) نلنا بعض حاجتنا. وواعده على الذهاب إلى مالك في وقت العصر. ويروي

الشافعي فيقول: وركبنا جميعاً، فوالله لكان كما قال، لقد أصابنا من تراب العتيق فتقدم رجل منا فقرع الباب فخرجت إلينا جارية سوداء فقال لها الأمير: قولي لمولاكِ أني بالباب. فدخلت ثم خرجت فقالت: إنَّ مولاي يقرئكَ السلام ويقول إن كان لديك مسألة فارفقها في رقعة يخرج إليك الجواب وإن كان للحديث فقد عرفتَ يوم المجلس فانصرِف. فقال لها الأمير: قولي له إنَّ معي كتاب والي مكة إليه في حاجة... فدخلت وخرجت وإذا بمالك قد خرج وعليه المهابة والوقار وهو شيخ طويل مسنون اللحية، فرفع الوالي الكتاب إلى الإمام مالك فطفق يقرأه فلما بلغ إلى هذا: "إنَّ هذا رجل يهمني أمره وحاله فتحدثه...وتفعل... وتصنع...". فرمى مالك الكتاب من يده ثم قال: سبحان الله أوَ صار علم رسول الله ﷺ يؤخّذ بالرسائل؟!!! قال الشافعي: فرأيتُ الوالي قد تهيَّب أن يكلِّمه فتقدمتُ وقلت: "أصلحك الله... إني رجل مطلبيّ من بني المطَّلِب وحدَّثتُه عن حالتي وقضيتي فلما سمع كلامي نظر إليَ وكان لمالك فراسة فقال: ما اسمك؟ قلت: محمد، فقال: "يا محمد إنه سيكون لك شأن وأي شأن، إنَّ الله تعالى قد ألقى على قلبك نوراً فلا تطفئه بالمعصية. إذا جاء الغد تجيء مصطحباً معك ما تقرأ به". وطلب منه أن يأتي بمن يقرأ له الموطأ لصغر سنه ولكن الشافعي جاءه في اليوم الثاني ومعه الموطأ وبدأ يقرأ عن ظهر غيب والكتاب في يده. وكلما قرأ قليلاً تهيَّب مالكاً وأراد أن يقطع ولكن أعجب مالك حُسن قراءته وإعرابه فقال: زد يا فتى، حتى قرأ عليه الموطأ في أيام يسيرة. قال مالك عنه: ما يأتيني قرشي أفهم من هذا الغلام، وقال: إن يك يفلح فهذا الغلام.

ولازم الشافعي مالكاً تسعة أعوام ولم ينقطع عنه إلا لزيارة أمّه أو لرحلة علمية وكان قد ذهب في بعض الرحلات إلى العراق وحصل ثروة من علم أبي حنيفة. وتلقى الشافعي علومه من مالك ومن باقي علماء المدينة. وكانت المدينة أجلّ بلد حافظ على الطابع الإسلامي الأصيل، وأكثر الصحابة كانوا فيها، فإنَّ النبي ﷺ بعد رجوعه من حنين ترك فيها نحو اثني عشر ألف صحابي، لبث فيها نحو عشرة آلاف، ثم ماتوا فيها وتفرَّق في سائر الأقطار نحو ألفين. وما كان يوثَق بعلم العالم في جميع أقطار الخلافة الإسلامية إلا أن يؤم المدينة، يختلف إلى علمائها ويروي عن حفاظها.

وفي إحدى رحلات الشافعي العلمية غاب عن المدينة زهاء عامين وكان دائم السؤال عن شيخه مالك، ويوم عاد دخل الحرم النبوي وتهيَّأ للجلوس في حلقة مالك وما هي إلا

لحظات حتى وصل مالك وفاح ريح الطيب في أرجاء المسجد وجلس مالك على كرسي أُعِدَّ له وأخذ يلقي المسائل على التلاميذ المتحلقين حوله ومن بينهم وفي زحمتهم الشافعي الذي لا يكاد يراه مالك. سكت الحاضرون ولم يجيبوا على مسائل مالك فتضايق الشافعي ثم أوحى بالجواب إلى الذي بجواره وكذلك بجواب آخر وآخر، مالك يلقي المسألة وجار الشافعي يجيب، ثم سأله مالك متعجباً: من أين لك هذا العلم؟ فقال إنَّ بجانبي شاباً يقول لي الجواب وإذا هو الشافعي فتلقاه مالك بالترحاب والحفاوة والسرور وقال له: أتمم أنت هذا الباب وهذه إجازة من مالك للشافعي بالفتيا. فلما كان عام ١٧٩ توفي مالك وبكاه الشافعي بكاءً حاراً. وكان الشافعي يعاني من الفقر ولا يبالي في سبيل إقباله على العلم والدراسة فلما توفي مالك شعر بفراغ فالتفت يبحث عن عمل وكان قد وصل إلى قمة الشباب، فبحث له بعض القرشيين عن عمل في اليمن بواسطة والي اليمن، فأُعطِيَ عملاً جيداً في نجران دون مستوى المحافظ بشيء قليل.

اتهامه بخيانة الخلافة العباسية: في اليمن تنامت ثروة الإمام الشافعي العلمية بالتعرف على فقه إمام مصر الليث بن سعد الذي كان تلامذته منتشرين هناك. ولكن والي مدينة نجران تحفَّظ عليه فوشى إلى هارون الرشيد بشأنه وشأن عدد من الناس معه كان مجموعهم عشرة وكانت الخلافة العباسية آنذاك تحسب حساباً للشيعة لاسيما العلويين – أي أسرة وذرية سيدنا علي رضي الله عنه – ذلك لأن الخلافة العباسية قامت على سواعد الشيعة أي المتشيعين والمناصرين لعلي رضي الله تعالى عنه وأرضاه، إلا أنَّ العباسيين تنكروا لهم بعد قيام الخلافة. لذا كانت الخلافة العباسية دائماً تخشى من ثورة العلويين عليهم. وكان والي نجران قد اتَّهم الشافعي بأنه يحرِّض العلويين على الثورة. وسيق إلى هارون الرشيد مكبَّلاً بتهمة خيانة الدولة وكانت عقوبة هذه الخيانة القتل. دخل الشافعي ثابت الفؤاد على الخليفة ينتظر الحكم عليه وهو يردد: "الله يا لطيف... أسألك اللطف فيما جرت به المقادير". قال الشافعي للخليفة: السلام عليك يا أمير المؤمنين وبركاته (دون أن يلفظ ورحمة الله). فردَّ عليه الرشيد: وعليك السلام ورحمة الله وبركاته، ثم أضاف فقال: بدأت بسنَّة لم تؤمر بإقامتها، ورددنا عليك فريضة قامت بذاتها ومن العجب أن تتكلم في مجلسي بغير أمري أو إذني. فقال الشافعي: إنَّ الله تعالى قال: "وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم

في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا "، وهو الذي إذا وعد وفّى، فقد مكّنك في أرضه وأمّنني بعد خوفي... حيث رددت عليَّ السلام بقولك وعليك رحمة الله، فقد شملتني رحمة الله بفضلك. فقال الرشيد: وما عذرك بعد أن ظهر أنَّ صاحبك – يعني الثائر العَلَوي – طغى علينا وبغى واتَّبعه الأرذلون وكنتَ أنت الرئيس عليهم؟ فقال الشافعي: أما وقد استنطقتني يا أمير المؤمنين فسأتكلم بالعدل والإنصاف ولكن الكلام مع ثقل الحديد صعب، فإن جُدتَ عليّ بفكه أفصحتُ عن نفسي وإن كانت الأخرى فيدك العليا ويدي السفلى والله غني حميد. فأمَر الرشيد بفك الحديد عنه وأجلسه، فقال الشافعي: حاشا الله أن أكون ذلك الرجل، ولكن قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ ﴾، [الحجرات: ٦] لقد أفِك المبَلِّغ فيما بلَّغك. وإنَّ لي حرمة الإسلام وذمة النسب وكفى بهما وسيلة وما أنا بطالبيّ ولا عَلَوي وإنما أُدخِلتُ في القوم بغياً عليّ. أنا محمد بن إدريس، وأنا طالب علم. فقال الرشيد: أنت محمد بن إدريس؟ قال: نعم، ثم التفت إلى محمد بن الحسن الشيباني وسأله: يا محمد ما يقول هذا؟ أهو كما يقول؟ قال محمد بن الحسن: إنَّ له من العلم شأناً كبيراً وليس الذي زعم عليه من شأنه (معلوم أنه بين العلماء المخلصين نسب أقوى من الرحم). وكأنَّ الله تعالى وضع هذه المحنة التي انزلق فيها الشافعي من أجل أن يعيده عز وجل من عمل الدنيا إلى عمل الآخرة وهذا واضح جداً وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم ولكن هذه الحقيقة لا تظهر إلا آخراً عندما يكون الإنسان في طور المفاخرة وأمّا في طور الحكم الإلهي فيكون كالغائص في جوف البحر لا يعلم إلا من وثق بعلم الله سلفاً.

لذا ينبغي للمسلم أن يراجع نفسه كل فترة من الزمن ويحاول أن يتذكر ما هي الأشياء التي حصلت معه في الماضي وظنها حينذاك شراً وإذا بها مع مَرّ السنين الخير كله، ذلك يفيد الإنسان بزيادة ثقته بالله تعالى فإنَّ أكثر المعاصي والإحباطات إنما هي ناتجة عن عدم الثقة بالله وعدم المشاهدة له دائماً عز وجل (ثقة عين اليقين).

موقف الشافعي من الإمامة والخلافة: كان الشافعي على عقيدة جمهور أهل السُنة والجماعة وكان يستدل على أنَّ أولى الناس بالخلافة هو أبو بكر رضي الله عنه بعد رسول الله ﷺ، أنَّ امرأة جاءت إلى النبي ﷺ تسأله في أمر فقال لها ارجعي فيما

بعد، فقالت: فإن لم أجدك؟ فأمرَها النبي عليه الصلاة والسلام أن تأتي أبا بكر، أي إن ذهبت وعادت وكان الرسول ﷺ قد توفي فعليها أن تأتي إلى أبي بكر.

إقامته في العراق: وبقي الشافعي في العراق فتعرَّف على محمد بن الحسن ووطَّد صلته به وعاد وتفرغ للعلم وترك الدنيا والعمل فيها... يقول الشافعي: "أخذتُ من محمد بن الحسن وقر بعير (أي حمل بعير) من سماعه عن أبي حنيفة، أي لو جمعتُ العلم الذي أخذته منه في كتب فإن هذه الكتب تبلغ حمل بعير وكل ما فيها ليس فيه شيء من عندي،كله أخذته سماعاً من محمد بن الحسن". انظروا إلى تواضع الشافعي الذي ما حال بينه وبين هذه الكلمة المكانة العالية التي تبوَّأها قد تقدَّم ربما على محمد ابن الحسن وهو المجتهد المطلق ما قال في نفسه ماذا سيقول عني الناس لو سمعوا أني تلميذ محمد بن الحسن. وهذا من باب ذكر فضل أهل الفضل. وقد ملأ الشافعي كتابه " الرسالة " مناقشات طريفة جداً بينه وبين محمد بن الحسن الشيباني مُلئت علماً. وكان محمد بن الحسن يقدره تقديراً عظيماً ولا يؤثر على مجلسه مع الإمام الشافعي أي مجلس. وقد حصل أن اتفق يوماً أنَّ الإمام الشافعي كان ذات مرة متجهاً إلى بيت محمد بن الحسن ليتدارس معه العلم وليأخذ منه ولكن محمد بن الحسن كان متجهاً إلى الموعد الذي كان قد ارتبط به مع الخليفة، فآثر مجلس الشافعي وتخلَّف عن مجلس الخليفة.

وقد لبث الشافعي في العراق زهاء عامين عاد بعدها إلى مكة وأخذ يدرس في الحرم المكي، وهذه فترة ازدهار علمه، منذ هذا العهد بدأ الشافعي يصب كل تفكيره ويعمل كل فهمه في تدوين الفقه وأصوله أي بدأ في تدوين موازين الاجتهاد وأصول استنباط الأحكام من نصوص القرآن والسنَّة حتى تجتمع العقول المختلفة على هذه الموازين. فالقرآن والسنة كلٌ منهما ملىء بالأحكام ولكن كيف نفهمهما، ما هي قواعد الفهم، ما هي قواعد الدلالة العربية التي على أساسها نستنبط الأحكام من القرآن ومن السنة؟ هذا ما بدأ يشغل بال الشافعي فوضع وخطط لهذا العلم وهو علم جديد لم يكن موجوداً من قبل هو "علم أصول الفقه"... بقي الشافعي في مكة تسع سنوات يجمع هذه القواعد ويدونها وينسجها وقبل ذهابه إلى مكة كان قد زار مسجد الإمام الأعظم أبي حنيفة وهناك صلى الفجر على مذهب الإمام (أي أبو حنيفة) مخالفاً مذهبه في الحركات والقنوت وما إلى ذلك، ولما سُئِلَ عن ذلك قال: إني فعلته أدباً مع الإمام أبي حنيفة أن

أخالفه في حضرته. انظروا إلى أدب علمائنا بعضهم مع بعض.

تأليفه لكتابه " الرسالة " وأهميته: أصبح من عادة الشافعي أن يجلس في الحرم عند بئر زمزم حيث كان يجلس الصحابي الجليل شيخ المفسرين عبد الله بن عباس رضي الله عنهما... وبدأ يؤلف في مكة كتابه " الرسالة "، وكان صيته العلمي في هذا الوقت يطبق الآفاق في مختلف أنحاء البلاد ومقاطعات الدولة الإسلامية الشاسعة، فيأتيه طلاب العلم والمعرفة من أقصى الأماكن وكان من هؤلاء أحمد بن حنبل الذي كان تلميذاً للإمام ابن عيينة إمام الحديث في عصره في المسجد الحرام. وابن عيينة كان يروي جلّ أحاديثه عن الزهري وهو أعلى الأسانيد، فكان الناس يغشون مجلسه. ولكن الإمام أحمد لما علم بمجلس الشافعي وسمع منه ترك مجلس ابن عيينة وأصبح يغشى مجلس الشافعي فلما سئل عن ذلك قال: إنك إن فاتك الحديث بعلوّ تجده بنزول ولا يضرك ذلك أما إن فاتك عقل هذا الفتى -يقصد الشافعي- فإني أخاف أن لا تجده إلى يوم القيامة، ما رأيتُ أحداً أفقه بكتاب الله تعالى من هذا الفتى القرشي. وكان أحمد يقول: كان الفقه مقفلاً على أهله حتى فتحه الله للإمام الشافعي. قال الحسن بن محمد الزعفراني: كنا نحضر مجلس بشر المريسي المعتزلي القدري المُناظر البارع وكنا لا نقدر على مناظرته فسألنا أحمد بن حنبل فدلّنا على الشافعي، فسألناه شيئاً من كتبه فأعطانا كتاب اليمين مع الشاهد فدرسته في ليلتين ثم غدوت على بشر المريسي وتخطّيتُ إليه فلما رآني قال: ما جاء بك يا صاحب الحديث؟ قال الحسن الزعفراني: ذرني من هذا، ما هو الدليل على إبطال اليمين مع الشاهد؟ فناظرته فقطعته فقال: ليس هذا من كيسكم، هذا من كلام رجل رأيتُه بمكة معه نصف عقل أهل الدنيا. وكان بشر المريسي لما رأى الشافعي المفتي في مكة يحدِّث قال لأصحابه المعتزلة: إني لا أخاف عليكم من أحد ولكني أخاف عليكم من هذا الفتى فإنَّ معه نصف عقل أهل الدنيا.

والذي يدعو إلى الإعجاب أن يكون الشافعي كتب هذه الرسالة في أصول الفقه وهو شاب وكان قد طلبها منه إمام المحدِّثين في بغداد لكي يستفيد منها هو وغيره من كبار العلماء في كيفية فهم النصوص. ولما كتب الشافعي الرسالة ووصلت إلى إمام المحدثين في بغداد، جعل يتعجب ويقول: لو كانت أقل لنفهم... وقال الإمام المزني: قرأتُ الرسالة خمسمائة مرة، ما من مرة إلا واستفدتُ منها فائدة جديدة. وفي رواية عنه قال: أنا أنظر في

الرسالة من خمسين سنة، ما أعلم أني نظرتُ فيها مرة إلا واستفدتُ شيئاً لم أكن عرفته.

كتاب "الرسالة" هو مقدمة ضخمة لكتابه "الأم" مثل مقدمة ابن خلدون لكتابه "تاريخ الأمم والملوك"، ومقدمة ابن خلدون ليست كتاباً مستقلاً وإنما هي مقدمة لموسوعة تاريخية ولأهمية هذه المقدمة طُبِعَت طبعاً مستقلاً وأُفرِدَت باسم مستقل وأصبحت مقدمة ابن خلدون اسم مستقل تماماً، وكذلك كتاب "الرسالة" فهو في أصله عبارة عن مقدمة كبيرة وواسعة جداً لكتاب "الأم" وهو عبارة عن سبعة أجزاء، إلا أنَّ "الرسالة" فيما بعد أُفرِدَت بالطباعة وأصبحت عبارة عن كتاب مستقل لأنه يحوي علماً مستقلاً، وقد تضمَّن ما يلي:

أولاً: بيان أنَّ أي علم شرعي لا بد أن يدور على فلك نص مأخوذ من الكتاب أو السُنَّة. ثم أكَّد أهمية وحجية حديث الآحاد (وحديث الآحاد هو الحديث الذي يرويه صحابي واحد أو اثنين أو ثلاثة عن النبي ﷺ) وقد ذكرنا طرفاً من ذلك من قبل، واستدلَّ على حجية الآحاد بأدلة كثيرة منها:

- أنَّ الله تعالى حينما أنزل في القرآن الكريم تحويل القِبلة من المسجد الأقصى إلى مكة المكرمة، جاء صحابي وأخبر الصحابة الذين كانوا يصلّون في مسجد ذي القِبلتين فاستداروا وهم في الصلاة، فإذاً أخذوا بخبر الواحد!.

- حينما أنزل الله تعالى آية تحريم الخمر، أخبر صحابي باقي الصحابة بذلك، فانتهوا وألقوا خمورهم.

- إنَّ النبي ﷺ بعث معاذ رضي الله عنه إلى اليمن ليبلِّغ عنه ولقد أخذ عنه أهل اليمن.

- إنَّ الله عز وجل قد أمرنا أن نأخذ بقول الشاهدين وهما من الآحاد.

وهذا الأمر أي حجية حديث الآحاد لم يخالف فيه أحد من الأئمة الأربعة وإنما اختلفوا في نسخ الآحاد للقرآن أي هل ينسخ حديث الآحاد حكم آية من كتاب الله تعالى وهل يخصص هذه الآية أم لا؟...

ثانياً - وكان قد ظهر في عصر الشافعي من يدَّعي أنه يأخذ بالقرآن الكريم وحده ويدع العمل بالحديث الآحاد وهم من الزنادقة، فردَّ عليهم الشافعي رداً مفحماً وسمِّيَ بذلك "نصير السُنَّة النبوية"... ثم عقد الشافعي باباً سمّاه " الدلالات " أي كيف تدل

النصوص على معانيها سواء كان المفهوم الموافق أو المفهوم المخالف وكيف نستخرج قواعد القياس على نص في كتاب الله تعالى... وأوضح البيان، أي كيف يمكن أن يكون القرآن بعضه بياناً لبعض وأنّ النص قد يكون عامّاً وقد يكون خاصاً وقد يكون مطلقاً وقد يكون مقيَّداً. والنص المطلق يمكن أن يأتي نص آخر في المعنى ذاته فيقيِّده ويفسِّره... وأوضح أيضاً فيما إذا كان يمكن للسُنَّة أن تخصص القرآن العام أو أن تقيِّده وهل يصح العكس...

وباختصار كتاب " الرسالة " هو عبارة عن مفاتيح لكيفية فهم الأحكام من النصوص. وقد كان المجتمع آنذاك يفتقر إلى هذا العلم ولم يكتب فيه أحد قبلاً، صحيح أنَّ الإمام أبو حنيفة والإمام مالك كل منهما بنى فقهه على أصول ومبادئ ولكن هذه المبادئ لم تسجَّل ولم يُصرَّح بها كلها بل إنَّ تلامذتهما هم الذين استنبطوا الأصول من فروع المسائل. والذي أعان الشافعي على هذا العلم علم استنباط الأحكام من النصوص فضلاً عن كونه عالماً بالفقه والحديث وبلوغه درجة قصوى من الذكاء، هو أنه عاش في البادية عشر سنوات حيث أخذ الطبيعة العربية والسليقة العربية من ينبوعها، فكان يعلم كيف يفهم الرجل العربي الجملة وكيف يأخذ المعنى إثر المعنى من الجملة الواحدة، ومما جعل من الشافعي حجةً في اللغة.

عودة الشافعي إلى العراق: عاد الشافعي إلى العراق وأقبل العلماء جميعاً من شتى المذاهب على كتاب " الرسالة " وأُعجِبوا به أيما إعجاب وكان الشافعي يشرح ويناقش هذه القواعد. وكان الشافعي يضرب في طول البلاد وعرضها في سبيل أن ينقل علم الحجاز إلى العراق وبالعكس ويجمع الكل تحت مظلة هذه القواعد، فلقد تنبَّه إلى ثغرات علماء العراق وهي أنهم كلما فقدوا النص استنجدوا بالرأي واستحسنوا ومالوا إلى ما تطمئنُّ إليه نفوسهم ولكن على أي أساس؟ وعلى أي قاعدة؟ وما هو المقياس الذي يوضح الرأي المتفق مع شرع الله تعالى وحكمه والرأي المتنكر عن شرع الله تعالى وحكمه؟ لا يوجد! إذاً هذه هي الثغرة التي يعاني منها أهل العراق. أما أهل الحجاز فلاحظ أنهم يأخذون بالنص دون أن يتوغلوا في فهم طرق دلالته وقوانين هذه الدلالة. إذا رأوا نصاً في كتاب الله تعالى أو سنة النبي ﷺ تصوَّروا ضرورة تطبيق هذا النص دون التأمل في كيفيته وأسلوبه، وهذه هي ثغرتهم، فكان كتاب الرسالة سداً لثغرة أهل الحديث فتقبله

المسلمون في جميع أنحاء البلاد وأقبلوا عليه. ويقول الشافعي في هذا الموضوع: صحيح أننا لا نخرج عن دائرة النص ولكن هناك فرق بين من لا يغوص في أعماق النص ولا يتعمق به وبين من يبحث ويتفكر ويتعلم ويتعمق ويستنبط معان عديدة فيجد أنَّ مسافة النص ١٠ أمتار من حيث المعنى. وضرب على ذلك أمثلة عديدة فقال:

– إنَّ الله عز وجل خاطب عباده في كتابه بألفاظ عامة وأراد منها الخاص وخاطب عباده بألفاظ خاصة وأراد منها العموم، مثال على ذلك: قوله عز وجل: "الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم " إنما أُريدَ بالناس الأولى رجل واحد هو أبو سفيان، فيكون هنا اللفظ عام يُراد منه الخاص.

– مثال على الخاص الذي يُراد منه العام: قال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ ﴾، [الطلاق: ١]، فهو خطاب للنبي ﷺ وحده ولكن المقصود به عموم الناس.

من هنا كثُرَ إعجاب الإمام أحمد بالشافعي فعن صالح بن أحمد بن حنبل قال: جاء الشافعي يوماً إلى أبي يعوده –وكان عليلاً– فوثب أبي إليه، فقبَّل ما بين عينيه، ثم أجلسه في مكانه وجلس بين يديه. قال فجعل يسائله ساعة، فلما وثب الشافعي ليركب قام أبي فأخذ بركابه ومشى معه، فبلغ يحيى بن معين هذا الخبر فوجه إلى أبي: يا أبا عبد الله، يا سبحان الله! آضطرك الأمر إلى أن تمشي إلى جانب بغلة الشافعي؟ فقال له أبي: وأنت يا أبا زكريا لو مشيتَ من الجانب الآخر لانتفعتَ به. قال: ثم قال أبي: من أراد الفقه فليشم ذنب هذه البغلة. وقال الفضيل بن زياد: قال أحمد بن حنبل: هذا الذي ترون كله أو عامته من الشافعي، ما بتُّ مدة أربعين سنة إلا وأدعو الله للشافعي. قلتُ وهذا من شيَم أهل الفضل يعرفون الفضل لأصحابه.

وكان الشافعي بالمقابل يحب ويجلّ الإمام أحمد كثيراً وكان يجلس بين يديه يتعلم منه الحديث ويقول له إذا صح عندك الحديث فأخبرني عنه. وكان الإمام أحمد يحدِّث ابنته كثيراً عن الشافعي وعن تقواه وعلمه وفي يوم نزل الشافعي ضيفاً عند أحمد ولعل ذلك كان في رحلة الشافعي الأخيرة له إلى بغداد، فأعطاه غرفة لينام فيها. وكان الإمام أحمد كثير التعبد وكثير التنسك فأخذت ابنته تراقب الشافعي كيف تكون عبادته ومتى سيستيقظ من الليل وأيهما أكثر تعبداً والدها أم الشافعي. فلاحظت أنَّ غرفة الشافعي بقيت مظلمة إلى قُبَيل أذان الفجر بينما الإمام أحمد كان يقوم أكثر الليل. وفي الصباح

قالت لأبيها: أهذا هو الشافعي الذي حدثتني عنه؟ فلم يجبها الإمام أحمد ودخل على الشافعي فقال له: كيف كانت ليلتك يا أبا عبد الله؟ فقال له: لقد فكرتُ الليلة في بضع آيات من كتاب الله تعالى وروايةٍ في حديث النبي ﷺ، فاستخرجتُ منها أحكاماً كثيرة – وفي رواية فوق الستين حكماً – فقال الإمام أحمد لابنته: لضجعة واحدة من الإمام الشافعي خير من صلاة أبيكِ الليل كله!.

هذا يصور لنا كيف كان أدب وتعظيم أئمة المسلمين بعضهم لبعض ونظر كل واحد منهم إلى الآخر على أنه إمام وحجة. أما اليوم فللأسف كثير ممن يدَّعون حب إمام من الأئمة يسفِّهون أو ينتقدون إماماً آخر. وقد أنبأنا النبي ﷺ عن هذا الداء الخطير وأنه من أشراط الساعة أن يلعن آخر هذه الأمة أولها.

أسفاره وزيارته مصر: لقد طاف الشافعي في آفاق العالم الإسلامي، ولم يترك بقعة إلا زارها من الحجاز حتى أقصى الشرق والشمال ولكنه لم يأتِ مصر بعد. ومصر مهد عريق في الحضارة والعلم وهي في الوقت عينه مجتمع علماء فحول وفضلاً عن ذلك هي مدرسة إمامه وشيخه الليث بن سعد. وبينما إمامنا العظيم في تطلعه هذا إذ جاءته دعوة كريمة لزيارة مصر فوافقت هوى قلبه ونفسه وكانت الدعوة من أحد تلامذته ومُحبّيه، الفقيه العالم، والتاجر الواسع الثراء " ابن عبد الحكم". فشد الشافعي رحاله على الفور وكان وداع الناس والعلماء خاصة له في بغداد مؤثراً جداً. كانوا يبكون ويحاولون إقناعه بالبقاء خصوصاً الإمام أحمد... وامتدت إقامة الشافعي في مصر خمس سنوات حيث استُقبِلَ استقبالاً حافلاً من مختلف الطبقات إذ سبقه صيته إلى هناك وحاول الكثيرون أن يستفيدوا من ضيافتهم له فعرضوا عليه الإقامة عندهم من الوالي حتى أقل الناس شأناً ولكن الشافعي آثر التشبه برسول الله ﷺ حين هاجر إلى المدينة المنورة فنزل عند أقارب أمه... وكان أول ما فعله الشافعي أن قام بزيارة قبر الإمام الليث بن سعد ووقف عند القبر خاشعاً يردد ويقول: لله دَرُّكَ يا إمام... لقد حزتَ أربع خصال لم يكملن لعالِم: العلم والعمل والزهد والكرم.

لقاؤه السيدة نفيسة وأخذه عنها العلم: كانت السيدة نفيسة رضي الله عنها حفيدة الحسن بن علي والحسين بن علي رضي الله عنهم موئل علم ودين وتقوى، تقيم في مصر، وكان الشافعي يعرف مقدارها ومكانتها. فاستأذن في زيارتها فأذنت له ورحبت

به وأعجبها عقله وورعه وسمع منها ما لم يكن قد وصل إليه من حديث رسول الله ﷺ.

تدريسه وتأليفه لكتابه " الأم ": كان الشافعي جامعة علم في شتى الفنون، فكان يجلس في جامع تاج الجوامع في مصر بعد صلاة الفجر ويبدأ بالقرآن وعلومه فيأتيه علماء التفسير وعلوم القرآن الفطاحل ليتعلموا منه، فإذا انتهى تحوَّل إلى الحديث فيأتيه علماء الحديث ليتعلموا منه وإذا فرغ انتقل إلى علوم اللغة وآدابها فيأتيه علماؤها يدرسون عنه وهكذا... وفي مصر أعاد الشافعي النظر في " الرسالة " فجدد تأليفها – و" الرسالة " التي بين أيدي الناس اليوم هي "الرسالة" المؤلفة في مصر – كما أعاد النظر في كتابه " الحجة " فألَّف بدله كتاب " الأم " وهو مجموع لكتب كثيرة جديدة ألَّفها الشافعي في مصر وهذا الكتاب هو المعروف والمشهور في أيامنا. وتراجع الشافعي عن بعض مسائله الفرعية في العراق وأفتى بغيرها من هنا إذا قيل اليوم في المذهب الشافعي القديم فإنما يراد به أقواله في العراق المجموعة في كتابه " الحجة " وإذا قيل مذهب الشافعي الجديد فيراد به أقواله في مصر المجموعة في كتابه " الأم". وابتكر الشافعي كتباً – كما يقول الإمام النووي – لم يسبق إليها، منها: أصول الفقه وكتاب " القسامة " وكتاب " الجزية " وكتاب " أهل البغي " وغيرها.

فائدة: الفتوى اليوم هي على المذهب الجديد إلا في بعض المسائل التي لا تتجاوز العشرين مسألة حيث يُفتى فيها بالقول القديم.

أدب الشافعي مع مخالفي مذهبه وعدم تعصبه: الشافعي رضي الله عنه إن وجد نفسه يخالف في بعض آرائه الإمام مالك، لم يكن يعرِّض لذلك ولم يكن يناقشه ولم يكن يتحدث حتى لا يضع نفسه من أستاذه موضع المناقِش أو الرّاد على رأيه ولكن في الوقت نفسه يخالف بأدب. إلى أن بلغه أنَّ في المغرب أناساً وصل بهم التقديس الأعمى للإمام مالك. فصاغ الشافعي هنا في هذا الوقت المتأخر من حياته " خلاف مالك " أي " خلافياتي مع مالك " وقال إنَّ الإمام مالك بَشَر يصيب ويخطِأ وهو أي الشافعي بشر يصيب ويخطأ وبدأ يناقش مسائل يرى خلافاً فيها مع مالك. وفي كثير من الأحيان ذهب كثير من الأئمة العظام ضحية عصبية تلامذتهم وهذا في التاريخ كثير. قد يكون الإمام عظيماً لكن له تلامذة يتعصبون ويتشنَّجون.

من هنا كان الشافعي ينادي مراراً وتكراراً: (إذا صح الحديث فهو مذهبي) يعني

إن صح حديثٌ لم أكن قد سمعتُ به وأفتيتُ بخلافه ووصل إليكم وفقهتم المعنى فإنَّ هذا هو مذهبي. إذاً هذا القول ليس موجهاً إلى عامة الناس وإنما هو موَّجه إلى فقهاء مذهبه وتلامذته وأصحابه. يعني مثلاً قد يأتي من يعترض وبالفعل فقد أتى في هذا الزمن كثير من اعترض على الشافعي، يقول مثلاً إن النبي ﷺ قال في الحديث الصحيح: "**من لحم جزور فليتوضأ**"، والشافعي يقول إذا صح الحديث فهو مذهبي. نقول ليس مطلق حديث وقع عليه إنسان يستطيع أن يطبق عليه مقولة الشافعي إذ ينبغي أولاً أن يكون من أهل النظر والاجتهاد، ثانياً أن يرى هل اطَّلع على هذا الحديث الشافعي أو أصحابه أو فقهاء المذهب من بعد وكيف فسروه؟ ولقد رد الشافعية على هذا الحديث فقالوا هذه واقعة حال والواقعة أنَّ رسول الله ﷺ كان جالساً مع بعض أصحابه وقد أكلوا لحم جزور وخرجت رائحة كريهة من أحد الحاضرين ثم حان وقت الصلاة ومن البديهي أنَّ الذي سيذهب للوضوء سيُعلَم حاله، فرسول الله ﷺ الأديب الرفيع الذوق قال رفعاً للحرج عن هذا الصحابي: من أكل لحم جزور فليتوضأ. هذه واقعة حال ووقائع الأحوال لا تصلح للاستدلال. ثم لو صح أنَّ لحم الجزور ينقض الوضوء، فمن المعلوم أنَّ أهل مكة والمدينة لا يأكلون في ذلك الوقت من اللحوم إلا لحم الإبل ولو صح أنه ينقض الوضوء لعُلِمَ ذلك وشاع ولكن لم يُنقَل إلا عن هذا الصحابي وفي هذه الحالة... وكان الشافعي يدعو إلى عدم التعصب في أمر من الأمور لأن الشيطان دائماً يتربص بالمسلمين على الأطراف التي تشكل الإفراط أو التفريط فكلما ابتعد الإنسان عن القصد في الطريق تخطَّفه الشيطان وإنه لا يستطيع أن يتخطَّفه إلا إذا خرج عن الجادة الوسطى كما قال تعالى: "إنَّ هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرَّق بكم عن سبيله".

علم أصول الفقه وتعريفه: علم أصول الفقه إجمالاً هو الميزان العربي الذي تُزان به فهوم الفقهاء بنصوص الكتاب والسُنَّة. وهذا العلم ينقسم إلى ثلاثة أقسام:

- قسم يسمى: "الدلالات".
- قسم يسمى: "البيان".
- قسم يسمى: "صفات المجتهد وكيفية الإجتهاد".

فقسم الدلالات عبارة عن كيف يفهم العربي الكلام العربي، مثلاً نقول الأمر

(افعل، اقرأ، اكتب) يدل على الوجوب والنهي يدل على طلب الترك الجازم ويدل على الحرمة. اللفظ يدل بمعناه الإيجابي دلالة منطوق ويدل بمعناه السلبي دلالة مفهوم مخالف. هذه كلها دلالات والكلمة تتفاوت حسب قوة الدلالات على المعنى عبر سلم من الدرجات. فأقوى دلالة على المعنى إسمها " النص "، في الدرجة الثانية يأتي ما يسمى " بالظاهر "، وفي الدرجة الثالثة " المُجمَل "، وفي الرابعة " المتشابَه". النص كيف يُفهَم والظاهر كيف يؤوَّل... هذا خلاصة قسم الدلالات.

القسم الثاني وهو قسم " البيان " أي كيف يأتي نص في القرآن الكريم بياناً لنص آخر، وكيف يأتي نص من القرآن بياناً لحديث من السنَّة، وكيف يأتي حديث من السنة بياناً لنص من القرآن أي شرحاً له. كثيراً ما يأتي نص من القرآن عاماً محتملاً فيأتي نص آخر واضح وضع النقاط فيه على الحروف فيفسر هذا النص الذي يسمى الخاص على العام عن طريق ما يسمى بالتخصيص أو التقييد أو التأويل أو النسخ، وهذا خلاصة القسم الثاني.

أما القسم الثالث وهو " الاجتهاد ": ما الاجتهاد؟ وبأي الأحكام نجتهد؟ القاعدة تقول أنه لا اجتهاد في معرض النص وإذا لم يكن هناك نص ولكن هناك إجماع أيضاً لا اجتهاد. وإذا كان الإجتهاد وارداً فما هي شروطه يا ترى؟ وما هي شروط المجتهد أي ما هي الشروط التي ينبغي أن تتوفر فيه من علم ودراية وذوق وفقه وما إلى ذلك حتى يستطيع أن يجتهد؟ كل هذه الأسئلة تكمن إجابتها في هذا القسم.

هل هناك خلاف في أصول الفقه بين العلماء؟ الحقيقة أنَّ هناك خلاف بين الأئمة في بعض الفروع أما في أصول الفقه فالخلاف قليل جداً جداً. الإمام الشافعي عندما دوَّن هذا العلم وافقه العلماء الذين كانوا في عصره، فكل من المالكية والحنابلة والشافعية طبَّقوا هذه القواعد التي دوَّنها الشافعي، لذلك لا يوجد عندنا كتب أصول فقه للمالكية والحنابلة، فقط الحنفية هم الذين خالفوا الشافعي في مسائل في أصول الفقه. لذلك عندما ندرس أي كتاب في أصول الفقه نجد أنَّ هذه الأصول تأخذ أحد طرفين طريقة الأئمة الثلاثة مالك والشافعي وأحمد وتسمى طريقة المتكلمين وطريقة الحنفية.

ملاحظة: هنا قد يرد إشكال ألا وهو إن كان الإمام الشافعي هو الذي وضع قواعد أصول الفقه بمعنى أنَّ الفقه الذي تفرَّع من هذه الأصول يمكن أن نعتبره فقهاً وضعه

الشافعي وبالتالي لا تثبت البيِّنة على أنَّ الفقه هو حكم الله عز وجل وشرعه المنزَل، هذا من جهة ومن جهة أخرى هناك إشكال آخر أثاره بعض المستشرقين يقول فيه: من أين جاء الإمام الشافعي بقواعد أصول الفقه؟ لعله ابتدعها من عنده!.

الجواب: إنَّ هنالك فرقاً دقيقاً ولكن هاماً جداً بين قولنا إنَّ الإمام الشافعي وضع علم أصول الفقه وبين قولنا إنه دوَّن علم أصول الفقه. الشافعي لم يخترع ولا قاعدة واحدة من قواعد علم أصول الفقه إطلاقاً وإنما بحكم أنَّ الشافعي حجة وإماماً في اللغة عكف على أساليب العرب وكيفية فهمهم للكلام والمعاني التي تُستَخلَص من العبارات فاستخرج من قواعد العرب واصطلاحات اللغة العربية في الفهم والنطق استخرج من ذلك قواعد دوَّنها ولفت إليها أنظار الفقهاء والمحدِّثين. ولكي نقرب الصورة أكثر نضرب المثال التالي: إنَّ أول من دوّن علم اللغة العربية هو أبو الأسود الدؤلي، فهل لأحد أن يقول إذاً أن أبو الأسود الدؤلي اخترع اللغة العربية؟!!! فأبو الأسوَد الدؤلي إذا كان وضع قواعدها فهذا لا يعني أنه اخترعها. نحن جميعاً نعلم أنَّ اللغة العربية كانت موجودة من قَبل أبي الأسوَد بكثير وأنَّ الناس كانوا يرفعون الفاعل وينصبون المفعول به ويجرّون المضاف إليه وما إلى ذلك قبل الدؤلي بقرون ولكن الذي حصل أنَّ أبا الأسوَد عمد بعبقريته الفذة إلى النطق العربي وتتبَّعه فوجد أنَّ العرب دائماً ترفع الفاعل وما إلى ذلك، فقعَّد له قوانين وقواعد حتى يستطيع من لا يجيد العربية بالسليقة أن ينطق النطق السليم. والكلام نفسه يطَبَّق على الشافعي وعلم أصول الفقه، فالشافعي مثلاً وجد أنَّ العرب إذا سمعوا جملة ما، تدرك لها معناها الإيجابي وتأخذ بالاعتبار معناها السلبي. مثال على ذلك، عندما تسمع العرب حديث " مطل الغني ظلم " (أي إذا كان المدين مليئاً غنياً وماطل في دفع الدَّين المترتب عليه فهو ظالم) العرب قبل الفقهاء فهموا من هذا الكلام أنَّ مطل الفقير ليس بظلم وهذا ما سماه الشافعي " المفهوم المخالِف". إذاً هو لم يخترع هذا وإنما تتبع لغة العرب وقعَّدها.

منهج الشافعي العلمي: أخذ الشافعي بالمصالح المرسلة والاستصلاح ولكن لم يسمها بهذا الاسم وأدخلها ضمن القياس وشرحه شرحاً موسعاً. وكذلك كان الشافعي يأخذ بالعرف مثل مالك ولكن كل لدرجة ما.

يروى إنه في أحد الأيام، في مجلس مالك، كان فيه الشافعي، جاء رجل يستفتي

مالكاً، يقول أنه ابتاع طائراً من رجل أقسم البائع بالله تعالى وفي رواية بالطلاق أنَّ طائره هذا لا يفتأ عن التغريد. فلما أخذه الشاري وجده يغرد حيناً ويسكت حيناً، فسأل مالكاً فقال له: لك حق خيار العيب (أي أنه لك الحق في رده بسبب عيب فيه) وقد حنث في يمينه أو على الرواية الأخرى وقع الطلاق. وكان الشافعي جالساً في ذلك المجلس ولكنه لم يتكلم أدباً مع شيخه مالك. فلما ذهب الرجل لحق به وسأله: طائرك يغرد في اليوم أكثر أو يسكت أكثر؟ قال الرجل: بل التغريد أكثر، فقال له الشافعي: إذاً البيع صحيح وليس لك خيار العيب ولم يحنث وفي تلك الرواية لم يقع الطلاق. فجاء الرجل إلى مالك، فلما ناقشه الشافعي قال له: يا سيدي، الألفاظ التي ننطق بها إنما نضعها في ميزان العرف الشرعي إن وُجِد (مثل الطلاق والعتق...)، لكن إن فُقِدَ العرف الشرعي عندئذ نشرحه بالعرف اللغوي الدارج بين الناس فإن فُقِدَ العرف اللغوي الدارج بين الناس نعود إلى اللغة العربية في جذورها وأمهاتها. ونحن نعود في هذا إلى كلام رسول الله ﷺ فقد روينا عن المصطفى عليه الصلاة والسلام أنَّ امرأة جاءت تستشيره في رجلين قد خطباها فأيهما تتزوج، فقال لها النبي ﷺ: أما فلان فلا يضع العصا عن عاتقه وأما فلان فصعلوك (أي لا يليق بك من حيث المستوى الإجتماعي وغيره). قال الشافعي: فقوله ﷺ لا يضع العصا عن عاتقه كناية عن كثرة السفر وقد علمت أنه يصلي فيضع العصا عن عاتقه ويأكل ويضعها عن عاتقه وينام ويغتسل وفي كل ذلك يضع العصا عن عاتقه ورسول الله ﷺ صادق فيما يقول، إذاً هذه الكلمة سارت مسار العرف الدارج وهنا (أي في مسألة الطائر) عرف في السوق لو قال البائع هذا الطائر لا يفتأ عن التغريد يعني أنَّ أكثر أوقاته التغريد.

وكان الشافعي يتمسك بالأحاديث الصحيحة ويعرِض عن الأخبار الواهية والموضوعة.

واعتنى بذلك عناية فائقة. وقال الشافعي ذاكراً فضل الله تعالى عليه: ما كذبت قط وما حلفت قط بالله تعالى صادقاً ولا كاذباً. قال أبو زُرعة: ما عند الشافعي حديث فيه غلط.

وقد وضع الشافعي في فن مصطلح الحديث مصطلحات كثيرة، لم يُسبَق إليها مثل: الاتصال والشاذ والثقة والفرق بين حدَّثنا وأخبرنا...

من عباداته ونوافله: كان يقسم ليله إلى ثلاثة أجزاء: ثلث ينام وثلث يكتب وثلث يصلي. وكان يختم القرآن في كل شهر ثلاثين مرة وفي رمضان ستين ختمة. ومن نوافل الشافعي كثرة صلاته على النبي ﷺ وكان يحضُّ على ذلك أصحابه وتلاميذه ومن يحضره. وكان أسخى الناس على الدينار والدرهم والطعام لا يدخل على مكة حتى يتصدَّق بما معه.

مرضه ووفاته: كان الشافعي من الأئمة العاملين فرابط فترة في مصر في الثغور وهي المواضع التي يُخشى هجوم العدو منها على بلد مسلم. وفي آخر حياته ظهرت عليه علة البواسير وكان يظن أنَّ هذه العلة إنما نشأت بسبب استعماله اللُّبان – وكان يستعمله للحفظ – وبسبب هذه العلة ما انقطع عنه النزيف وربما ركب فسال الدم من عقبيه. وكان لا يبرح الطست تحته وفيه لبدة محشوة، وما لقي أحد من السقم ما لقي.

والعجيب في الأمر بل يكاد يكون معجزاً أن تكون هذه حال الشافعي ويترك في مدة أربعة سنوات كلها سقم من اجتهاده الجديد ما يملأ آلاف الورق مع مواصلة الدروس والأبحاث والمناظرات والمطالعات في الليل والنهار، وكأنَّ هذا الدأب والنشاط في العلم هو دواؤه الوحيد الشافي!. وألحَّ على الشافعي المرض وأذابه السقم ووقف الموت ببابه ينتظر انتهاء الأجل. وفي هذه الحال، عند آخر عهده بالدنيا وأول عهده بالآخرة، دخل عليه تلميذه المزني فقال: كيف أصبحت؟ قال: أصبحتُ من الدنيا راحلاً وللإخوان مفارقاً ولكأس المنيَّة شارباً وعلى الله جلَّ ذكره وارداً ولا والله ما أدري روحي تصير إلى الجنة فأهنِّئها أو إلى النار فأعزِّيها! ثم بكى وأنشأ يقول:

ولما قسى قلبي وضاقت مذاهبي ... جعلتُ الرَّجا مني لعفوك سلَّما
تعاظمني ذنبي فلما قرنته ... بعفوك ربي كان عفوك أعظما
وما زلتَ ذا عفوٍ عن الذنب لم تزل ... تجود وتعفو مِنَّةً وتكرُّما

ودُفِنَ الشافعيِ رحمة الله تعالى عليه في القاهرة في أول شعبان، يوم الجمعة سنة ٢٠٤ هجري. مات وكان له ولدان ذكران وبنت وكان قد تزوج من امرأة واحدة...

من وصاياه وأقواله: له رحمه الله تعالى ورضي عنه أقوال مهمة، منها:

– ما تُقُرِّب إلى الله عز وجل بعد أداء الفرائض بأفضل من طلب العلم.

- طلب العلم أفضل من صلاة النافلة.
- من ضُحِكَ منه في مسألة لم ينسها أبداً.
- من حضر مجلس العلم بلا محبرة وورق كان كمن حضر الطاحون بغير قمح.
- ما ناظرتُ أحداً قط إلا أحببتُ أن يوفَّق أو يسدد أو يُعان ويكون له رعاية من الله تعالى وحفظ، وما ناظرتُ أحداً إلا ولم أُبالِ بيَّنَ الله تعالى الحق على لساني أو لسانه.

نحن كلما رأينا سيرة إمام قلنا والله هذا أحق بالاتِّباع وكلما سمعنا دليله قلنا والله هذا لهو الدليل المقنع! نعم كلهم أحق بالاتِّباع وكلهم عندهم أدلَّتهم المُقنِعة فلذلك ورحمة من الله تعالى بنا جاز لنا أن نتبع من شئنا منهم والحمد لله رب العالمين.

٤- ترجمة الإمام أحمد بن حنبل رضي الله عنه

الإمام أحمد بن حنبل رجل النصف الأول من القرن الثالث، فليس من أحد في عصره بلغ من الشهرة والثقة والاعتقاد ما بلغه، ذلك أنه كان رحمه الله إماماً في الورع، إماماً في الزهد، إماماً في التفقه، إماماً في طريقته الفقهية، إمام أئمة الحديث في عصره وإماماً في الثبات والصبر.

مولده ونسبه: ولد الإمام أحمد بالاتفاق في عام ١٦٤ هجري في بغداد وتوفي عام ٢٤١ فكان عمره عندما مات الشافعي أربعين عاماً، وكان الشافعي يكبره بأربعة عشر عام. وهو عربي الأصل من قبيلة شيبان لم تخالط العجمة نسبه قط ويلتقي نسبه مع رسول الله ﷺ عند نزار بن معد. توفي والده وهو صغير وتولت أمه تربيته وكانت رعاية والدته له أشبه ما تكون برعاية والدة الشافعي. وكانت والدته فقيرة وكانت شابة حسناء جميلة فتقدم لخطبتها والزواج منها عدد كبير من الراغبين لكنها رفضت وامتنعت وفضلت أن تعيش لولدها ونذرت نفسها له، وهذا الأمر أنشأ في نفس أحمد براً بأمه... ولم يتزوج حتى ماتت لكي لا يدخل على الدار سيدة أخرى تنازع أمه السيادة وكان قد بلغ الثلاثين.

طلبه للعلم: كسائر أترابه تعلم القرآن في صغره وتلاه تلاوة جيدة وحفظه عن ظهر قلب. وعندما تجاوز الخامسة عشرة من عمره، بدأ يطلب العلم، وأول من طلب العلم عليه هو الإمام أبو يوسف القاضي. والإمام أبو يوسف كما هو معلوم من أئمة الرأي مع

كونه محدِّثاً ولكن في البداية وبعد مرور فترة لأحمد مع أبي يوسف وجد الإمام أحمد أنه يرتاح لطلب الحديث أكثر. فتحول إلى مجالس الحديث وأعجبه هذا النهج واتفق مع صلاحه وورعه وتقواه وأخذ يجول ويرحل في سبيل الحديث حتى ذهب إلى الشامات والسواحل والمغرب والجزائر ومكة والمدينة والحجاز واليمن والعراق وفارس وخرسان والجبال والأطراف والثغور وهذا فقط في مرحلته الأولى من حياته. ولقد التقى الشافعي في أول رحلة من رحلاته الحجازية في الحرم، وأُعجِبَ به وكنا قد ذكرنا أن الإمام أحمد بقي أربعين سنة ما بات ليلة إلا ويدعو فيها للشافعي. وكان يقول عندما يروي حديث رسول الله ﷺ: إنَّ الله يبعث على رأس كل أمَّة من يجدد لهذه الأمة أمر دينها. وكان يقول: لقد أرسل الله تعالى سيدنا عمر بن عبد العزيز يجدد لهذه الأمة دينها على رأس المئة الثانية وآمل أن يكون الشافعي على رأس المئة الثالثة. وقد حيل بين أحمد ومالك ابن أنس فلم يوفَّق للقائه وكان يقول: لقد حُرِمتُ لقاء مالك فعوَّضني الله عز وجل عنه سفيان بن عيينة. (لاحظوا مدى تعظيم الأئمة لبعضهم البعض، بينما الجماعات في عصرنا لا همَّ لهم إلا تسفيه العلماء ومنهم من يتعصب لمذهبه فيسفه باقي الأئمة حتى يرفع من شأن إمامه) والشافعي كان يكثر من زيارة الإمام أحمد، فلما سئل عن ذلك أنشد قائلاً:

قالوا يـزورك أحـمد وتـــزوره قلتُ الفضائل لا تبارح منزلـه

إن زارني فبفضله أو زرته فلفضـله فالفـضل فـي الحالـيـن لـــه

قصته ويحيى بن معين مع عبد الرزاق: ارتحل يوماً الإمام أحمد من العراق هو ويحيى بن معين قاصداً المحدث الكبير عبد الرزاق في اليمن لطلب الحديث منه. فلما وصلا مكة وأخذا يطوفان حول البيت، فإذا بهما يريان الإمام عبد الرزاق فقال يحيى بن معين لأحمد تعال نسأله أن يحدثنا بدلاً من أن نلحق به إلى اليمن فقال الإمام أحمد: "خرجتُ من بغداد وأنا قاصد أن أرحل إلى دار عبد الرزاق بن الهمام اليمني صاحب المصنف في اليمن من أجل مزيد من المثوبة والأجر فلن أفسد هذه النية". حاول عبد الرزاق أن يصل أحمد ببعض المال وهو في ديار الغربة فرفض وصمم أن يكسب عيشه وعمل نساخاً.

وكان أشد ما أتعب الإمام أحمد وأرهقه من العلماء هو عبد الله بن المبارك الذي

ظل أحمد يسعى وراءه هنا وهناك ليلقاه ولكن من غير جدوى. وكان ابن المبارك فقيهاً محدِّثاً واسع العلم وواسع الغنى وكان من أزهد الناس. وتعلَّم أحمد من ابن المبارك حقيقة الزهد وكان يُطعِم الفالوذج ويأكل الخبز وإذا اشتهى طعاماً طيباً لم يأكله إلا مع ضيف ويقول: بلغنا أنَّ طعام الضيف لا حساب عليه. وقيل له قلَّ مالُك فقلِّل من صلة الناس فقال: إن كان المال قلّ فإنَّ العمر قد نفد. وأصبح يعتبره أحمد أستاذه في الحديث والسلوك. وحاول أن يصله مثل عبد الرزاق ولكن أبى أحمد وقال: أنا ألزمك لفقهك وعلمك لا لمالك. وتلقى الحديث عن هُشيم بن بشير واستفاد منه أكثر ما استفاد من غيره وتعلم منه الهمة العالية في الحديث. وتلقى الفقه وأصوله عن الشافعي.

حجه بيت الله الحرام: حج الإمام أحمد خمس مرات إلى بيت الله، حج منها ثلاث مرات ماشياً راجلاً وذلك لأنه كان قليل المال ولكن ما منعه ذلك عن الحج.

ورعه وتقواه وتعففه: من عظيم ما عُرِفَ به الإمام أحمد هو تعففه وله في ذلك قصص رائعة، فقد كان يسترزق بأدنى عمل وكان يرفض أن يأخذ من صديق ولا شيخ ولا حاكم قرضاً أو هبة أو إرثاً لأحد يؤثره به. وقد يقبل هدية ولكنه يعجل في إعطاء من أهداه هدية مثلها أو خيراً منها، رافعاً بذلك شأن العلم والعلماء. ولقد أجمعت الأمَّة على صلاحه وكان مضرب مَثَلٍ في الصلاح والتقوى حتى أنَّ بعض العلماء قال: لو أنَّ أحداً قال إنَّ الإمام أحمد هو من أهل الجنة لم يحنث ولم يتأثى على الله تعالى، ودليلهم على ذلك إجماع أهل العراق والشام وغيرهم على هذا الأمر والإجماع حجة.

تنبيه: إجماع الأمة على هذا الأمر إنما كان بعد مماته.

منهجه العلمي ومميزات فقهه: اشتُهِرَ الإمام أنه محدِّث أكثر من أن يشتهر أنه فقيه مع أنه كان إماماً في كليهما. ومن شدة ورعه ما كان يأخذ من القياس إلا الواضح وعند الضرورة فقط وذلك لأنه كان محدِّث عصره وقد جُمِعَ له من الأحاديث ما لم يجتمع لغيره، فقد كتب مسنده من أصل سبعمائة وخمسين ألف حديث، وكان لا يكتب إلا القرآن والحديث من هنا عُرِفَ فقه الإمام أحمد بأنه الفقه بالمأثور، فكان لا يفتي في مسألة إلا إن وجد لها من أفتى بها من قبل صحابياً كان أو تابعياً أو إماماً. وإذا وجد للصحابة قولين أو أكثر، اختار واحداً من هذه الأقوال وقد لا يترجَّح عنده قول صحابي على الآخر فيكون للإمام أحمد في هذه المسألة قولين.

وهكذا فقد تميز فقهه أنه في العبادات لا يخرج عن الأثر قيد شعرة، فليس من المعقول عنده أن يعبد أحد ربه بالقياس أو بالرأي وكان رسول الله ﷺ يقول: "**صلوا كما رأيتموني أصلي**"، ويقول في الحج: "**خذوا عني مناسككم**". كان الإمام أحمد شديد الورع فيما يتعلق بالعبادات التي يعتبرها حق لله على عباده وهذا الحق لا يجوز مطلقاً أن يتساهل أو يتهاون فيه.

أما في المعاملات فيتميز فقهه بالسهولة والمرونة والصلاح لكل بيئة وعصر، فقد تمسَّك أحمد بنصوص الشرع التي غلب عليها التيسير لا التعسير. مثال ذلك: "الأصل في العقود عنده الإباحة ما لم يعارضها نص"، بينما عند بعض الأئمة الأصل في العقود الحظر ما لم يرد على إباحتها نص... وكان شديد الورع في الفتاوى وكان ينهى تلامذته أن يكتبوا عنه الأحاديث فإذا رأى أحداً يكتب عنه الفتاوى، نهاه وقال له: "لعلي أطلع فيما بعد على ما لم أطلع عليه من المعلوم فأغير فتواي فأين أجدك لأخبرك؟... ولما علم الله تعالى صدق نيته وقصده قيَّض له تلامذة من بعده يكتبون فتاويه وقد كتبوا عنه أكثر من ستين ألف مسألة. ولقد أخذ بمبدأ الاستصحاب كما أخذ بالأحاديث المرسلة.

رفضه للفتوى في أول حياته: مع انتشار علمه في الآفاق، لم يفتِ وقد أصرَّ الناس عليه بالفتوى فلم يفتِ إلا بعد أن بلغ الأربعين من عمره وذلك لأسباب:

١- تقليد النبي ﷺ وهو في هذا كعبد الله بن عمر رضي الله عنهما.

٢- كان يعتبر الفقه أو مجلس الفتيا مجلس الوراثة النبوية.

٣- كيف يفتي والشافعي شيخه وإمامه وهو لا يزال على قيد الحياة.

شدة حرصه وأسلوبه في التدريس: ومع أنه أوتي حافظة لم يؤتها أحد في عصره إلا نادراً، كان يحمل كتبه أي كتب الحديث ويأتي بها إلى المجلس ويوصي تلامذته أن لا يحدِّثوا إلا من كتاب. وكان إذا جلس في الدرس يسود مجلسه الوقار والسكينة كأنما على رؤوسهم الطير، وكانت هذه السكينة تظلل مجالسه كلها إلى جانب تواضعه العظيم. وأي مجلس جلس فيه الإمام أحمد سواء كان معلماً أو متعلماً ساده السكينة والوقار، كان هذا الطبع منه يهيمن على الشيوخ الذين كان يأخذ عنهم، وذلك بسبب احترامه وتقديره والشخصية العظيمة التي كان يتمتع بها. يُروى عن أستاذه يزيد بن

هارون أنه مُدِحَ بمناسبة ما فتنحنح أحمد، فوضع يزيد يده على جبينه وقال: ألا أخبرتموني أنَّ أحمداً هنا.

وكان كثير التواضع هيِّناً طرياً ولكن كان الواحد إذا نظر إليه تذكر الله تعالى. لقد ألبسه الله عز وجل ملابس هيبته فقام مستعزاً بعزة الله تعالى. وكان بعيداً جداً عن الخوض في الفلسفة وذلك أنَّ الفلسفة في عصره كانت في بدايتها، ثم طبق العلماء قاعدة: خذ الحكمة ولا تبالي من أي وعاء خرجت. وكان الإمام أحمد يعيش بعيداً عن أمور الفلسفة وشغل نفسه بالأحاديث وآثار الصحابة، حتى أنَّ من ترجم له قال: إنَّ الإمام أحمد من طبقة الصحابة معنوياً وإن جاء متأخراً إلا أنه في طبعه وسلوكه وعقيدته وحياته العامة أشبه ما يكون بالصحابة. وقال بعض العلماء لو كان الإمام أحمد في عصر بني إسرائيل لاحتمل أن يكون نبياً!. سُئِلَ الشافعي عمن يصلح للقضاء فأشار إلى أحمد الذي قال: "أنا أجلس في مجلسك لكي يزيد فيّ العلم زهداً في الدنيا وأنت تطلبني للقضاء!!!؟". ولقد كان عاملاً بأحاديث رسول الله ﷺ وهو الذي يروي: كل معروف صدقة ومن المعروف أن تلقى أخاك بوجه طلق... فطبَّق هذا الحديث على نفسه، فكان لا يلقى الناس إلا مبتسماً ويقدمهم عليه إذا مشوا في الطريق أو دخلوا مكاناً أو اصطفوا لصلاة الجماعة. وكان إذا قرأ القرآن أو صلى ودخل عليه أحد سكت على الفور وإذا خرج من عنده عاد لصلاته وقراءته وذلك خشية الرياء. وكان مستجاب الدعوة.

ومن الجدير بالذكر أنَّ الشافعي قبل وفاته كان قد أرسل برسالة مع الربيع إلى الإمام أحمد قبل وفاته جاء فيها: لقد رأيت النبي ﷺ في المنام في الرؤيا وقال لي أبلغ أحمد بن حنبل عني السلام وقل له إنه مدعو إلى محنة وفتنة سيدعى فيها إلى القول بخلق القرآن وسيثبت على الحق وإنَّ الله تعالى سيرفع له علماً بذلك إلى قيام الساعة. وأعطى الإمام أحمد قميصه الذي يلي جسده للربيع على هذه البشرى فقال له الشافعي: لن أطالبك بالقميص (رحمة به ولعلمه أن الربيع لا يؤثر على بركة قميص الإمام أحمد أحداً) ولكن بله بالماء ثم أعطني الماء حتى أتبرَّك به.

محنته العظيمة: عاش الإمام أحمد في عصر المأمون ثم المعتصم ثم الواثق ثم المتوكل. في هذه العصور، كانت صولة المعتزلة وجولتهم في أعلى ذروتها لاسيما في عصر المأمون. وكان المأمون تلميذاً لأبي هذيل العلاف من رؤساء المعتزلة، فافتُتِنَ بالفلسفة

اليونانية. واستغل هذه الصلة أحمد بن أبي ذؤاد المعتزلي المتعصب وراح يكلم المأمون ويتودد إليه حتى عيَّنه وزيراً خاصاً له ومستشاراً. الإمام أحمد كما سبق وذكرنا، كان بعيداً عن الفلسفة وعن الاعتزال وفي هذه الأثناء قال المعتزلة بخلق القرآن أي أنَّ القرآن حادث مخلوق وليس كلام الله الأزلي القديم وتبنى المأمون هذا القول. وفي عام ٢١٨ هـ أرسل كتاباً إلى نائبه في بغداد وهو إسحاق بن إبراهيم يوضح فيه هذا القول مدعوماً بالحجة العلمية المفصلة على زعمهم. والواضح أنَّ هذا لم يكن من كلام المأمون ولكن من كلام وزيره خاصة والمعتزلة عامة. وأمر المأمون إسحق أن يجمع كل العلماء ويقنعهم بأنَّ القرآن مخلوق وأمره أن يقطع رزق وجراية كل من لم يقتنع بهذا. امتثل إسحاق بادئ ذي بدء لهذا الأمر فجمع كل العلماء من أهل السنَّة وهددهم بقطع أرزاقهم ومنع الجراية عنهم إن هم لم يقتنعوا، وأرسل إلى المأمون بأجوبة هؤلاء التي تتضمن رفض هذا القول. فأرسل المأمون ثانية أمراً بقطع أرزاق من لم يقتنع وإرساله إليه مقيداً بالأغلال تحت تهديد القتل. وكان الإمام أحمد من بين الثلة التي رفضت أن تقتنع ولم تتراجع، فقُيِّدوا جميعاً بالأغلال وذُهِبَ بهم إلى طرطوس. وفي الطريق تراجع البعض خوفاً ومات البعض الآخر ولم يبق إلا أحمد الذي جاءه خادم المأمون وقال له: إنَّ المأمون أقسم على قتلك إن لم تجبه. ولكن أحمد رفض التراجع عن الحق وبينما هو في الطريق لا يفصله عن المأمون إلا ساعات من السَّير، إذ جثى على ركبتيه ورمق بطرفه إلى السماء ودعا بهذه الكلمات: سيدي غرَّ حِلمُكَ هذا الفاجر حتى تجرَّأ على أوليائك بالضرب والقتل، اللهم فإن يكن القرآن كلامك غير مخلوق فألقنا مؤنته. توفي المأمون قبل أن يصل أحمد إلى طرطوس فأُعيد الإمام أحمد وأودع السجن ريثما تستقر الأمور. وجاء بعد ذلك المعتصم ولكن المأمون كان قبيل موته قد أوصى أخاه أن يُقَرِّبَ ابن أبي ذؤاد المعتزلي منه. لذلك لما استقر الأمر للمعتصم استدعى الإمام أحمد وهو مثقل بالحديد وكان عنده ثلة من المعتزلة على رأسهم ابن أبي ذؤاد الذي كان يضمر كيداً شديداً لأحمد، وسأله: ما تقول في خلق القرآن؟ قال: أقول إنه كلام الله. قال: أقديم أم حادث؟ قال: ما تقول في علم الله؟ فسكت أبو ذؤاد. قال أحمد: القرآن من علم الله ومن قال إنَّ علم الله حادث فقد كفر! وطلب المعتصم أن يناقشوه وكاد أن يقتنع بقول أحمد ولكن قال له المعتزلة وابن أبي ذؤاد إنه لضال مبتدع. عرض المعتصم على الإمام أحمد أن يرجع عما يقول مغرياً

إياه بالمال والعطايا ولكن الإمام أحمد قال له: أرني شيئاً من كتاب الله أعتمد عليه (أي أعطني دليلاً على ما تزعم من كتاب الله تعالى). وحذَّر المعتزلة المعتصم إن هو أطلق سراحه أن يُقال إنَّ هذا الرجل تغلب على خليفتين اثنين فسيق أحمد إلى الضرب والتعذيب. وكان يُضرَب ضرباً مبرحاً حتى يغشى عليه ثم يأتون به في اليوم المقبل. وبرغم ذلك أقبل أحمد على الناس في السجن يعلِّمهم ويهديهم.

أمر ابن أبي ذؤاد بنقله إلى سجن خاص حيث ضاعفوا له القيود والأغلال وأقاموا عليه سجانين غلاظ شداد، وكم سالت دماؤه الزكية وكم أهين وهو رغم هذا كله يرفض أن يذعن لغير قول الحق ولو كلفه ذلك حياته. وبعد مرور عامين ونصف على هذه المعاناة وهذه المحنة، أوشكت الثورة أن تشتعل في بغداد نقمة على الخليفة المعتصم وابن أبي ذؤاد، فقد وقف الفقهاء على باب المعتصم يصرخون: أيُضرَب سيدنا! أيضرب سيدنا! أيضرب سيدنا! فلم يجد المعتصم بداً من إطلاق سراحه وأعيد إلى بيته يعالج جراحه. ولما سُئِلَ عن المعتصم دعا له بالرحمة وأن يعفو الله تعالى عنه وقال إنه يستحي أن يأتي يوم القيامة وله حق على أحد!. ثم تولى الواثق الحكم وحاول ابن أبي ذؤاد إقناعه بموضوع خلق القرآن ولكن خشي الفتنة. أما المتوكل فكان من أهل السنَّة وحاول أن يكرم الإمام أحمد وأن يصله ولكنه رفض شاكراً ولقد ندم المعتصم على ما وقع منه وكان يرسل كل يوم من يطمئن على حاله، بينما ابتلي ابن أبي ذؤاد بالفالج الذي أقعده أربع سنوات واسترد منه المتوكل كل أمواله التي تُعَدّ بالملايين. وكان الإمام أحمد يصلي من الليل قبل ضربه ٣٠٠ ركعة وبعد مرضه الشديد صار يصلي ١٥٠ ركعة.

موقفه من الحكم والدولة: كان بإمكان الإمام أحمد أن يفتي الناس بكفر الخليفة أثناء حكم المأمون أو المعتصم وكيف يفعل ذلك وهو يراقب الله تعالى في كل لحظة، فكان يقول أنه لا يجوز الخروج على إمام المسلمين براً كان أو فاجراً ما دام مسلماً وهذا هو قول الجمهور وباقي الأئمة.

مُسند الإمام أحمد: بدأ بجمع مسنده منذ أن كان عمره ستة عشر سنة، فسجل الأحاديث بأسانيدها، في أوراق منثورة وظل على هذه الحال إلى أن قارب الوفاة. ولما شعر بدنو أجله بدأ يجمعها ويحذف منها... وأملى هذه الأحاديث كلها على أولاده وأهل بيته وأنبأهم بالعمل الذي قام به ولعله أوصى ابنه عبد الله أن ينهض بجمع هذه

الأحاديث وتنسيقها من بعده فجمعها عبد الله بطريق السند وهذا الأسلوب يعتبر صعباً جداً وهو أن يرتب الأحاديث حسب درجة رواتها من الصحابة فيبدأ بالأحاديث المروية عن أبي بكر ثم عن عمر ثم هكذا. وكانت طريقة الإمام أحمد في انتقاء الأحاديث أنها إن كانت تتعلق بأحكام أو عقيدة كان لا بد من اشتراط الصحة فيها، أما إن كانت تتعلق بفضائل الأعمال ولها ما يؤيدها من الكتاب أو السنة الصحيحة فلا بأس أن تكون ضعيفة. وإن كان الحديث يعارضه نص آخر أقوى منه لا يمكن الجمع بينهما، حذف الأضعف.

مثلاً نجد اسم عبد الله بن لهيعة في المسند مع أنَّ الحفاظ ضعفوه لا لأنه اتُّهِمَ بالكذب ولكن الرجل كان عنده كتب ومخطوطات كثيرة كان يروي عنها ثم تلفت، فلما تلفت أخذ يرويها من الذاكرة وكثيراً ما كان يخطئ ورواة الحديث كانوا متشددين ومدققين ومحتاطين جداً في هذا الأمر. جزم ابن تيمية وابن القيم أنه ليس في المسند حديث موضوع، وقال البعض فيه أربعة أحاديث موضوعة ولكنها ليست من أحمد. والأحاديث الضعيفة التي في المسند لا تتعلق بالأحكام وهي ليست شديدة الضعف. ولقد طاف أحمد بن حنبل الدنيا مرتين حتى جمع مسنده.

من أقواله: له أقوال جليلة منها: إذا أردتَ أن يدوم لك الله كما تحب فكن كما يحب.

قصة ثوب أحمد بن حنبل: وقعت حريق في بيت صالح بن أحمد بن حنبل وكان قد تزوج بامرأة ثرية، فلما علم بأمر الحريق راح يبكي لا على شيء ولكن على ثوب أبيه الذي كان يتبرك به، ولما دخل إلى بيته، وجد الثوب على السرير وقد أكلت النار ما حوله وبقي سالماً.

****

وهناك مذاهب فقهية عديدة أخرى لا يتسع المجال لتفصيلها، كالزيدية للإمام زيد بن علي زين العابدين بن الحسين بن علي بن أبي طالب عليهم الرضوان والسلام جميعاً، والجعفرية للإمام جعفر الصادق رضي الله عنه، والظاهرية لابن حزم الأندلسي.. وهناك أيضاً مذاهب أخرى قسم منها دُثِر أو قلَّ أتباعه كمذهب الأوزاعي والثوري وعطاء بن أبي رباح وإبراهيم النخعي وعبد الله بن المبارك وغيرهم الكثير.. فقد

ذكر الأستاذ الدكتور عبد الحميد حمد العبيدي أنه أشرف على بحوث دراسات عليا ماجستير ودكتوراه عديدة بكلية الشريعة بجامعة بغداد في تفصيل المذاهب الفقهية فوجدوا أنها بالعشرات.. وقد قسّم هذه المذاهب الفقهية إلى عدة أقسام:

١-من العلماء من كان له مذهب فقهي وكان له طلاب علم وأتباع، فدونوا علمه فوصلنا كما هو الحال في المذاهب الأربعة لأهل السنة مع المذهبين الشيعيين الزيدية والجعفرية.

٢-منهم من كان له مذهب فقهي كبير الشأن واتبعه كثير من الناس فدونه أتباعه ولكنه دُثِر كما هو حال كثير من المذاهب كمذهب الأوزاعي والثوري وعطاء بن أبي رباح وإبراهيم النخعي وعبد الله بن المبارك وغيرهم الكثير، فضعف أتباعها وانتهت ولم تعد متبعة.

٣-منهم من كان له اتباع ولكنهم بقي منهم القليل كما هو حال المذهب الظاهري لابن حزم الأندلسي، وكذلك الأشاعرة والأباضية.

٤-ومنهم من كان له مذهب ولكن لم يدون ولم يكن له طلاب يدونون علمه.

وغير ذلك من التصانيف مما لا يتسع المجال لذكره، وما ذلك إلا لسعة أفق هذا الدين ليشمل كل الأجناس ويستوعب كل الحضارات وعلى مر العصور، إذ معلوم أن الخلاف في المذهب الفقهي عن الآخر متأت من خلاف على تفسير آية أو مجموعة أحاديث، أو خلاف على إجماع أو قياس وكما فصلنا في بداية الملحق هذا.. هذا الخلاف إنما هو خلاف في الفروع وليس في أصول الدين كما حصل في فرق الأديان السابقة التي اختلفت في الأصول فذمّها الله تعالى في القرآن الكريم في آيات عديدة منها قوله تعالى مخاطباً نبيه ﷺ ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ ۚ إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ ﴿١٥٩﴾ ﴾، (الأنعام: ١٥٩)..

لذلك فهذا الخلاف مقبولٌ عند الله تعالى فلا يصل إلى مرحلة الاختلاف(*) التي ذمّها الله تعالى في كتابه الكريم وحذر منها المصطفى ﷺ. وكل هذه المذاهب كان

(*) راجع كتابنا (القوانين القرآنية للحضارات- النسخة المفصلة) فستجد تفاصيل عن الفرق بين الخلاف والاختلاف.

أصحابها علماء أجلاء أوصلوا الدين للأمة وكانوا يحترمون رأي بعضهم البعض ولا يتجرأ أحدهم على الآخر بالقدح أو الذم أو الاستهزاء كما يفعل بعض علمائنا اليوم ومع الأسف، بل على العكس كانوا وكما رأينا في بعض زوايا هذا الملحق متآخين متحابين كل ما يرجوه هو إيصال العلم الحق من منبعه الصافي من رسول الله ﷺ إلى الناس كي لا يضيع الدين، فاجتهدوا لذلك فجزاهم الله تعالى عن دينه وكتابه ورسوله ﷺ ألف خير.

على أن هناك اتجاهات مدمرة لأصل العقيدة والشريعة ومناف لإجماع الأمة، من هذه الاتجاهات:

- من كان له مذهب نحى به منحى غير مقبول من الأغلبية، فأدى في زمانه إلى صراع فكري لإثبات بطلانها أخذ زمناً ليس بالقصير كالمعتزلة والزنادقة وغيرها.
- منهم من اتخذ اتجاهات شاذة متطرفة ومغالية كالخوارج، ومنهم من وصل به التطرف لحد الكفر والإلحاد كالعلي إلهية والقدرية والباطنية والبابية والبهائية وغيرهم.

أما ما حصل من تحول في مسار المذاهب بعد إقحام بعضها في الصراعات السياسية، أو تحول بعضها إلى الاتجاه السياسي المحض فقد أدّى بالأمة إلى الانشقاق إلى فرقتين رئيسيتين استغلها أعداء الأمة على مر العصور لإثارة النعرات والتفرقة والاقتتال فيما بينها لخدمة مصالح الأعداء.. وهذا ما يفرح شياطين الإنس والجن عندما ترى أمة الحبيب ﷺ وهي تفترق وتتناحر، وهو ما لا يرضاه الله تعالى لهذه الأمة المرحومة، وهو أيضاً ما يحزن الحبيب ﷺ وآله الأطهار وصحابته الأخيار الذين رووا بدمائهم الزكية الطاهرة أرض الله الواسعة لنشر من أجل أن تكون كلمة الله هي العليا وكلمة الذين كفروا السفلى، فنسأل الله تعالى أن يحقن دماء المسلمين ويعيدهم إلى وحدتهم ودينهم وكتابهم وسنة رسولهم ﷺ وطريق عظماء هذه الأمة من الآل والأصحاب والتابعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.. **والحمد لله رب العالمين....**

أعمال للمؤلف

١. كتاب (**المنظار الهندسي للقرآن الكريم**)، دار المسيرة، عمان- الأردن، ط / ١، ١٤٢٢هـ — ٢٠٠١م.

٢. كتاب (**المنظار الهندسي للقرآن الكريم**)، دار المسيرة، عمان – الأردن، ط / ٢، ١٤٢٥هـ — ٢٠٠٤م.

٣. كتاب (**أنت والأنترنت- جلّ ما تحتاجه من خدمات الشبكة العالمية-**)، دار الرشد، ط/١، ١٤٢٢هـ- ٢٠٠١م.

٤. كتاب (**القرآن منهل العلوم**)، طبع الجامعة الإسلامية، بغداد، ط/١، ١٤٢٣هـ- ٢٠٠٢م.

٥. كراس (**مواصفات الفحوص المختبرية لأعمال الهندسة المدنية**)، مع مجموعة من المختصين، ١٤٢٣هـ- ٢٠٠٢م.

٦. كتاب (**القوانين القرآنية للحضارات -النسخة المختصرة، ١٢٥ صفحة من القطع الصغير-**)، طبع ببغداد عام ١٤٢٤هـ – ٢٠٠٣م.

٧. سلسلة كتب (**ومضات إعجازية من القرآن والسنة النبوية- ١٥ جزءاً-**)، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان.

أ. التأريخ والآثار.

ب. المادة والطاقة.

ت. الفلك.

ث. الأرض.

ج. الرياح والسحب.

ح. المياه والبحار.

خ. النبات والإنبات.

د. الحيوانات والحشرات.

ذ. الطب.

ر. الصيدلة والأمراض.

ز. الوراثة والاستنساخ.

س. الجملة العصبية والطب النفسي.

ش. الأحلام والباراسايكولوجي.

ص. الاقتصاد والاجتماع.

ض. آخر الزمان.

٨. كتاب (**القوانين القرآنية للحضارات – النسخة المفصلة، ٣٦٥ صفحة من القطع الكبير**)، دار الكتب العلمية، بيروت– لبنان..

٩. كتاب (**تفصيل النحاس والحديد في الكتاب المجيد**)، دار الكتب العلمية، بيروت– لبنان.

١٠. عدة بحوث في مجال الهندسة المدنية منشورة في مجلات ومؤتمرات هندسية مرموقة داخل العراق وخارجه.

١١. عدة بحوث ومقالات في مجال الإعجاز القرآني منشورة في صحف ومجلات ومؤتمرات مرموقة داخل العراق.

١٢. عدة أعمال مرئية تلفازية وحاسوبية في محطات محلية وأخرى فضائية عربية.

مشاريع كتب للمؤلف

١. كتاب (استنباط الحلول من أسباب النزول)، قيد التأليف.

٢. كتاب جامعي عن المواد الهندسية، قيد التأليف.

٣. تصاميم شبكات الخدمات المائية والصحية، قيد الإعداد.

فهرس المحتويات

مقدمة ٣

الفصل الأول: نظرة عامة ٩

الفصل الثاني: الاقتصاد في الإسلام ١٦

الفصل الثالث: النظام الاجتماعي الإسلامي ٢٥

الفصل الرابع: بعض دلائل الرقي في السلوك الاجتماعي في الإسلام..... ٦٥

الملحق: تاريخ التشريع الإسلامي..... ٨٥

فهرس المحتويات ١٩٢